
طيف زهيرة
بقلم : محمود تيمور

عدت الى دارى بعد منتصف الليل بقليل ، وتوخيت على الفور مكتبى ، وقد استقر منى العزم على أن اتم الفصل الختامى من قصتى المطولة « زهيرة » ، بعد أن ظل دون اتمام وقتا ليس بالقصير .

لزام أن افرغ من القصة مهما يكن من أمر ، فلم يعد للتسويف مسوغ .

و « زهيرة » هذه فى القصة التى تحمل اسمها : غانية لعوب ، تأسر قلوب الرجال ، وتتحكم فيما لهم من مصاير وأقدار ، وانها لتتميز بجاذبية انثوية فتاكة ، وان حياتها لسلسلة من المغامرات موصولة الحلقات فى دنيا اللهو والمجانسة والهوى .

كانت شخصيتها مثار اعجاب من حولها من الناس فى أحداث القصة وطواياها ، ووجدتنى مشغوفا بشخصيتها تلك التى سويتها لها على ما بها من غرابة وتعقد ، اذ كانت تجمع بين المتناقضات ، فهى مزاج طريف من التضحية السامية والأنانية الوضيعة من الرحمة البالغة والقسوة العنيفة ، من الحب الفياض والكراهية المستعرة ، من الأريحية السخية المبذرة والابتزاز للمال فى شراهة ممقوتة .

والآن ، وقد قضت « زهيرة » حياتها نهبا للأعاصير الهوج ، حان لها أن تستخفى عن العيون ، وتترك مكانها على مسرح الوجود . فلقد أدت دورها كاملا غير منقوص ، وحق عليها أن تنتهى أيامها ، ذلك ما تحته ملابسات حياتها ، وهو ختام طبيعى يساير منطق الأحداث فى غير تكلف ولا افتعال ، على ما يثيره فى نفسى من شعور الأسى الدفين .

وبسطت الأوراق بين يدى ، واستغرقت فى تفكير ، أقلب الأمر على شتى الوجوه . وأخيرا أشرعت القلم لأكتب ، واذا أنا بغتة أحس شيئا يمس كتفى ، فالتفت أستبينه .. لا شىء .. الصمت والهدوء يضربان دونى نطاقا .

ولم تمض لحظات ، حتى تصيدت أذنى صوتا أشبه برفيف أجنحة الفرافير ، بل ما أشبهه بوسوسة النسيم .

ان الصوت يحوم حولى .

ثم تراءى لى دخان أبيض ، لم يلبث أن تشكل فى صورة آدمية ، وكادت تنطلق منى شهقة ، وفغرت فمى وأنا أحدق فى الطيف ... أترانى أمام روح تزورنى من عالم الآخر ؟

وتدانى الطيف منى على مهل ، وسمعته يتكلم هامسا :

« ألا تعرفنى ؟ »

هذه ملامح ليست غريبة عنى ، ونبرة الصوت مألوفة لى .

ـ يخيل الى أنى عرفتك ، ولكن ... اين ؟ ومتى ؟ وكيف ؟

وانبعثت من الطيف ضحكة نسوية ناعمة ، طالما تجاوبت أصداؤها فى أذنى من قبل .

وسمعتها تقول :

ـ نحن نلتقى فى هذه الحجرة كل ليلة ...

فسرت فى أوصالى رعشة ، وهممت :

ـ أممكن هذا ؟

ـ كل الامكان يا صاح ...

ـ عجيب ... ولكن اليس لى أن أعرف مبعث هذه الزورة ؟

فمثلت هى بعض وقت فى صمت ، لا تختلج لها جارحة ، ثم قالت :

لماذا حكمت على بالموت ؟

ـ أنا ؟ كيف ؟

ـ الأوراق المبسوطة أمامك تشهد بصدق دعواى .

والفيتنى احملق فى الأوراق ذاهلا ، ويدى تمتد اليها تعبث بها . وشعرت بيد تمس منكبى ، فكانما لامسنى تيار كهربى ، واذا هى تقول :

اريد وقف الحكم الذى أصدرته على ... لا اريد ان أموت فى هذه السن المبكرة ..

فاجبت وعيناى مشدودتان الى الأوراق :

ليس ثمة مفر من موتك ... التطور الطبيعى لحياتك يسلمك لابد الى هذه النهاية .. الى الانتحار !

فصاحت فى حدة :

لا ، لن انتحر ، لن أموت ، وستلغى أنت بنفسك هذا الحكم الظلوم !

ـ ليس فى الأمر حيلة .

ـ قلت لك لابد أن تلغى حكم الموت .

ـ وهل الأمر بيدى ؟

فتضاحكت تقول :

فى يد من اذن ؟

ـ فى يد الأقدار !

ـ أنت الذى تسوى قدرى ، وتخط مصيرى .

فرفعت اليها بصرى ، أقول مغمغما :

أنا لا أسوى قدرا ولا اخط مصيرا . هيهات .. هيهات !

ـ أنت خالقى ، وما أنا الا وليدة الهامك ..

ـ لقد اطلقتك حرة ترسمين منهج حياتك بنفسك ، ولا أحد غيرك مسئول عن تصرفاتك .

ورأيتها تطيف بى صامتة ، ثم همست :

اذن فلا أقل من أن تمد الى يد العون ...

ـ حبذا ... لو استطعت !

ـ فى مستطاعك ان تفعل ...

ـ كيف ؟

فاحسست بخيالها يتمسح بوجهى ، ولكانما هناك نسمة عبقة يتضوع منها اريج الزهر ، أريج نفاذ يبعث التشوة فى القلب .

ومضت تبدى لى مفاتنها فى اغراء واغواء .. فوجدتنى أقول :

احتشمى يا « زهيرة » .

ـ ماذا تنكر مما أصنع ؟ ألست فى دارى ؟ الست فى الوطن الذى شهد مولدى ؟

ومثلت أمامى فى وضعة مثيرة .

ـ جهد ضائع تبذلينه ... أؤكد لك .. لا تحسبى أنك قادرة على اخضاعى بمثل هذه الوسائل التى تجيدها الغوانى .. لست واحداً من عشاقك المتولهين بك !

فرفت على محياها الرقيق ابتسامة ، وقالت فى طراوة أنوثة :

أتزعم أنك غير متوله بي ؟

ـ أنا ؟ ... أنا أتوله بك ؟

فشعرت بكفها المواج يداعب خدي مهدهدا .

ـ أنت في طليعة الواقعين في أسري .. لن تفلت من سحر فتنتي .. لن يجسر أحد على أن يعصيني !

ـ يا للمغرورة المتآمرة !

ـ هكذا سويتني ...

وما لبثت هي أن تمددت على المتكا في استرخاء .

ونهضت أنا أذرع الحجرة مضطرب الخطا ، ويداي معقودتان على صدري .. أغدو وأروح ... وأروح وأغدو .. ثم أخذت مكاني من المكتب متهاويا على المقعد .

ـ هل وفقت الى وسيلة أنجو بها من الموت ؟

ـ لا ... وا أسفا !

وتقضت فترة صمت جياشة .

وبغتة سمعت نشيجا مؤثرا .

واذا أنا عن كثب من المتكا أعالج أن أسرى عنها ..

ونهضت تلملم من شعثها ، وتصلح من مظهرها .

ـ الى أين ؟

ـ الى المكان الذي هيأته لي هناك .. المنضدة .. وزجاجة الشراب .. والمسدس .

وندت مني صيحة ذعر .

ـ لا .. لا .. بحق السماء لا تفعلي .

ـ اذن ؟

ـ أمهليني أتدبر الأمر ، لعلي أجد مخرجا ...

وعادت الى المتكا تستوي عليه ، أما أنا فافتقدت حشية صغيرة على الأرض بمقربة منها .

ـ الديك شراب يا حبيبي ؟ .

وسرعان ما كان الشراب .

وشرعنا نتساقاه على مهل .

ـ لابد أن أجد حلا يا « زهيرة » .

ـ وهل يستعصي عليك أن تجده ؟

ـ نستطيع أن نتعاون معا .. نفكر .. نتبادل الرأي ...

وأمضينا الأمسية في منادمة بهيجة وسمر أنيس .

ولذت بمخدعي سكران أترنح وأترنم .

وفي غد عدت الى داري ، بعد منتصف الليل بقليل ، وجلست الى مكتبي ، تشيع بين جوانحي غبطة وانشراح ، وتناولت الأوراق التي تم فيها تدبيج الفصل الختامي من قصة « زهيرة » ، وطفقت أزوده باللمسات الأخيرة ، وكنت كلما مضيت في القراءة داهمني شعور غامض فيه ألم وحسرة .

راجعت ، وعاودت المراجعة ، والمرارة تزداد بي .

واستشطت غضبا ، فضربت المكتب بيدي ، وأنا أجمجم لا أبين .

ثم جمعت الأوراق ، أوراق الفصل الختامي ، وانهلت عليها أشبعها تمزيقا .

وسمعت صوتها الشاجي :

يبدو أن نجاتي من الموت محال .



ـ لقد جعل الريب فى كفايتى يتسرب الى نفسى !
ـ اذن لا أمل ؟
ـ كل شىء يتيسر بالمهارة .. فلماذا تخوننى مهارتى ؟
ـ فلتحاول كرة اخرى ...

وامتدت أمامنـــا مائدة الشراب ، وأقبلنا على منادمة وسمر ، وتألقت شخصية « زهيرة » طاغية آسرة .

... وتوالى تدبيج الفصل الختامى من جديد .

وتوالت جلسات الأماسى ثائرة معربدة حول مائدة الشراب ، ويا لها من أماسى واصلنا فيها السهر حتى مطلع الفجر ، وما أشبهها بليالى « ألف ليلة وليلة » ، كنت فيهـــا « شـــهريار » ، وكانت « زهـــيرة » « شهر زادى » تحاول بحديثها المأنوس أن تستخلص رقبتها من سيف الجلاد !

أما نهارى فكان كله هما وحنقا ، وشعورا بالخيبة والاخفاق ...

القصة بلا ختام .

الفصل الأخير مكانه شاغر .

أيظل كذلك الى الأبد ؟

أأكون قد وقعت فى براثن غانيـــة تحسن الكيد وتجيد العبث بالرجال ؟

اغدوت فريسة لها ؟

أأدع فنى صريعا بين يديها ؟

وارتقبت أن ألقـــاها لأحسم معها الموقف الحائر المتميع ...

وما كاد المساء يزفها الى ، حتى تدانيت منها فى رفق ، وجلست معها على المتكا . وبعد صمت قالت :

ما بالك كأنك تنطوى على سر ؟

فأجبتها ، وأنا منسرح النظر :

سأفضى اليك بذات نفسى يا « زهيرة » ...

أجيبينى .. ماذا يخيفك من الموت ؟

فانتفضت تقول :

عجبا لك ، الموت هو الموت ... انه الضياع الأكبر .

ـ ليس موتك ضياعا ... فالقصة الخالدة يخلد أبطالها معها .

ـ هل لك فى الشراب ؟

لهذا الخلود الذى تفرضه لها ؟

ـ كل شخصية تؤدى مهمتها فى الحياة الى نهايتها ، دون تكلف أو افتعال ، لها من الخلود نصيب .. فاذا لم تتخل عن مكانتها ، وقد انتهت مهمتها ، كان وجودها لغوا ، وليس اللغو من سمات الخالدين !

ـ ولكن ما انتفاعى بهذا الخلود ، وقد حرمنى الحياة ؟

ـ ان الخلود هو الحياة الحقة ...

ـ ولكنى لن استشعر هذه الحياة الحقة التى تشيد بها ، فالموت هو الجمود المطبق ، والسكون المطلق ..

ـ لا جمود ولا سكون يا « زهيرة » الموت مجرد انتقال من حال الى حال .

فصاحت :

فلسفة عويصة يصعب على مثلى ادراكها ! ... قصارى ما أفهمه ان الموت ظلام ووحدة وبرد ! ... وما أقسى !

ـ هذا ما يصوره لك خيالك المحدود ، خيالك المرتبط بك باعتبارك كائنا بشريا على ظهر الأرض ... أما اذا أرهفت الحس ، واذكيت البصيرة ، وسموت بالروح ، فسيتجلى لك أن الموت تطور فى الذات الانسانية .. فلا فناء ولا عدم

فصاحت :

كيف ؟ أكاد أفقد رشدى !

ـ الرشد هو أن تؤمنى بأن العدم لا مفهوم له .. لا فى العقل والعلم ، ولا فى الفلسفة والدين !

ـ تحاول جهدك اقناعى بقبول الموت بصدر رحب ، لتستنفد فنك ، تريد أن تودى بى ، طوعا لما يتطلبه مجرى قصتك ..

فنكست راسى ، ولم أحر جوابا .

وانقطعت لا تزورنى ليالى ، متوالية ، فنالنى قلق ، وشاعت فى نفسى كآبة . وعندما عاودت زيارتى اقبلت عليها ملهوفا .

ـ افتقدتك يا « زهيرة » ...

ـ أحقا ؟ .. قالتها فى نبرة شجن ولوعة .

ـ هل لك فى الشراب ؟

ـ لن أشرب ..

وازداد بها التجهم .

ـ ماذا يشغلك ؟

ـ لا شىء ...

وخيم علينا صمت .

ثم سمعتها تخافت بصوتها :

ليكن لك ما تريد ... ليكن فنك منزها عن الافتعال .. لا فرض فيه ولا الزام .

ــ فلننس الفن والافتعال فى مجلسنا الحاضر .. علينـــا أن ننتهب المتعة انتهابا .

ــ والفصل الختامى ؟

ــ ليظل مكانه شاغرا .. لن تموتى يا « زهيرة » على أية حال !

ــ بل يجب أن تتم الرواية فصولا ، وان ذهبت حياتى فدية لتمامها ...

ــ انى واثق بكفايتى ، ولن أعيا بحل ينقذك من الهلاك ..

وامتدت بيننا مائدة الشراب ، تحيى ليلنا الساهر ..

لم تعد « زهيرة » تتعهدنى بالزيارة بانتظام ، واخذت زوراتها تقل حينا بعد حين ، واختفت فى سهراتنا مائدة الشراب ، فكان الوقت يمر بيننا جامدا ليس فيه الا الحسرات .

وتواصل اختفاؤها ، وأنا أترقبها فى تشوف .

وكلما طال غيابها ، ازددت من حيرة وشتات فكر .

وفجـــاة أحسست ثورة تهب من أغوار نفسى ، وتجلت لعينى تفاهتى ، وأنا أشهد مكان الفصل الختامى من القصة شاغرا أبيض الصفحات .

كان انقاذ « زهيرة » من الموت عقبة ليس الى تخطيها من سبيل .

ومرة بعد أن بلغ بى التفكير والتحبير مبلغ العنت والارهاق ، انتقلت الى المتكا أطلب فيه غفوة استرخاء واسترواح ، وأغمضت جفنى .

وانبهتنى طلقـة تدوى فى الحجرة .

واذا أنا أمام مشهد ملأنى رعبا ...

تراءى لى فى سماء الحجرة نثار من ســحاب أبيض ، وما أسرع أن تبينت صورة « زهيرة » وقد تمزقت أوصالها وتطايرت قطعة قطعة .

وتجلى لى وجههـــا ، وهـو يعلو ويرق : جفنان مسبلان ، ومحيا ممتقع وملامح بالغة الأسى .

ووقفت وقتــــا مصعوقا أمام ذلك الحطام المبعثر ، وهو يتزايل شيئا فشيئا ، حتى لم يبق له أثر .

ورجعت الى مقعــد مكتبى أتهالك عليــه ، وتعلقت عينى بالورقة الأخيرة للقصة ، وكنت قد تركتها بيضاء ، فاذا يد قد خطت فيها هذه السطور :

« تناولت « زهيرة » المسدس ، وتأملته مليــا ، ثم ابتسمت ، وقد اكتست عيناها بالدموع .. لم يعد لها من مطمع فى الوجود .. لقـد عاشت حياة صاخبة مثيرة ، ولقد آن لها أن تستريح .. انها تموت منتحرة ! »

ولاح لى المســدس على مقربة ، وجعلت أقلبه بين يدى ، وأنا لا أتمالك من فرط ما عرانى من اضــــطراب وخبال ..

ماذا ؟ .

أأكون حقا أمام حادثة انتحار ؟

أم .. أنا أمام حادثة قتـــــل عن عمد ؟

وتركت المكتب ، قاصــــدا المقعد الوثير ، وألقيت بجسمى عليه ، وأملت رأسى الى ظهره .

وطفرت من عينى دمعة حارة .

ثم وجدتنى وقد انطلقت من أعماق صدرى تنهدة ارتياح !

خلود فى الوطن

بقلم : إبراهيم المصرى



تمثل هذه القصة التاريخية الواقعية روح البطولة والوطنية التى كانت مستولية على الشعب اليونانى أثناء حرب الاستقلال ضد الفرس وملكهم داريوس عام ٤٩٠ قبل الميلاد . وقد وقعت هذه الحرب فى ميناء ماراتون على بعد عشرين ميلا من أثينا وتولى قيادتها الزعيم الوطنى والقائد العبقرى ملتيادس » .

المؤلف

— ١ —

ابتسم الكاهن « هرمس » ابسامة رقيقة ، وقال وهو ينظر بعينيه المستديرتين الى ضيفه « شالكاس » :

ـ انى لاستغرب كيف تكون فيلسوفا ثم تتعلق بأشياء عارضة لا يلبث أن يأتى عليها الزمن . فى رأيى أن من كان مثلك يجب أن ينظر الى أحداث هذا العالم كما ينظر الرجل العادى الى اختلاف فصول السنة ...

فضحك الفيلسوف « شالكاس » والتفت الى زميله « أوريون » ، وقال له :

ـ ما رأيك فى هذا اللون من التفكير الذى أصبح يستعذبه صديقنا هرمس ويشيد به ويدعو اليه ؟ ...

فأطرق أوريون لحظة ، ثم رفع رأسه الصغير ، فبدا وجهه الذى نقره الجدرى ، عابسا متجهما محتقنا ، أشد دمامة مما هو عليه ، وحاول أن يتكلم ، ولكن أعصابه المتوترة تغلبت عليه وضاعفت انفعاله ، فلم يستطع الا أن يرسل شبه صيحات مخنوقة مبهمة .

ورمقه الفيلسوف بنظرة مشفقة ثم تحول الى صاحب الدار وقال :

ـ انت تاخذ على يا هرمس اهتمامى بشئون وطنى ، وترى ان من واجبى كمفكر أن أظل بمعزل عن السياسة ، وان أعيش فى عالمى الخيالى المغلق . ولكنك تنسى أن بلادى هى مادة فكرى ، وان المجتمع الذى يكتنفنى هو الذى يغذى عقلى وقلبى ، وأن الأرض التى تحملنى هى التى توحى الى مختلف الأفكار والعواطف . فكيف تريدنى على أن انفض يدى منها ، ولا أحفل بكفاحها المقدس ضد أعدائها ، ولا أساهم فى هذا الكفاح بكل ما أوتيت من قوة الفكر والبيان . انك بذلك تساعد على افناء المادة التى اعيش منها ، وتصيرنى انا نفسى الى عدم .

فقال هرمس وهو يشيح بوجهه كى لا تقع عيناه على وجه أوريون المشوه :

ـ ولكنك كلما تعلقت ببلادك ، انطويت على نفسك ، وضاق أفق تفكيرك ، وآثرت مصلحة اليونان العارضة على خير الانسانية الباقى .

فمد الفيلسوف أصابعه الضامرة على بطنه المتكور ، وقال دون أن يفارقه هدوءه :

ـ الحرية التى انشدها لبلادى هى القوة التى لابد أن تتوافر لى أولا ، كى أستطيع فى دائرتى المتواضعة تحقيق الخير والحرية **للانسانية كلها .**

فندت من أوريون صرخة أعرب بها عن اعجابه بأستاذه . ولكن هرمس لم يعبأ به واستطرد :

ـ واذا كانت القوى غير متكافئة ؟ ... اذا كانت جيوشنا لن تستطيع الثبات أبدا أمام جحافل الفرس ، أفلا يكون من الخير لنا أن نستعيض عن الحرب بالسياسة وأن نخدع أولئك القوم ونتقرب اليهم ، عسى أن تنفع الحيلة حيث أخفقت الحرب ؟

وهنا صاح الفيلسوف :

ـ ولكن الحرب لم تنته بعد . وليس معنى تقهقرنا فى المعركة الأولى أن الفشل مقضى به علينا .

فقال الكاهن هرمس وهو يبتسم ويربت على كتف الفيلسوف :

ـ **لا ... لا** يا صديقى شالكاس ... انك لم تعد فيلسوفا بالمرة . ان عواطفك الوطنية تطغى عليك وتؤثر فى تفكيرك . وانك الآن لتفضل هزيمة بلادك وخرابها على استخدام عقلك وذكائك وحنكتك لانقاذها .

فقطب شالكاس حاجبيه . وقال وهو يطيل النظر الى مضيفه :

ـ لا انت ولا أنا سنصبح شيئا مذكورا اذا ما فقدت البلاد معركة استقلالها ضد جيوش داريوس !.. **وانه لمن البديهى أن الحكمة والفلسفة والفنون والشرائع لن تزهر فى أمة من العبيد ... والواقع انى عندما أكافح من أجل حرية بلادى ، انما أزود فى الوقت نفسه عن حرية فكرى ، أى عن تطور الفكر البشرى اطلاقا . لهذا السبب أنا من أنصار الحرب ، ومن أنصارها حتى النهاية !.**

فأسبل هرمس عينيه المستديرتين الضيقتين ، وتظاهر بالتبسط والمسايرة والتسليم . ومضى الفيلسوف يفكر وهو يدير ابهاميه على بعضهما فى حركة هادئة . وانطلق أوريون يضحك بلا مسوغ ضحكات مزعجة متقطعة ، وقد تهدل لحم خديه ، وارتعش أنفه الأفطس ، وبرزت من بين شفتيه الغليظتين أسنانه الحادة السوداء .

وقر فجأة وزايلتـــه نوبة الضحك ، وارتد وجهه ساكنا كئيبا حزينا . فلاح عليه ضوء غريب من جمال لم يلحظه ولم يبتهج له غير الفيلسوف شالكاس .

وقال صاحب الدار بعد فترة :

ـ لقد انذرتكم وانذرت سواكم ، وما أنا بعد بمسئول اذا حلت الكارثة ؟ ...

وهنا انتفض أوريون الدميم ، واستطاع بعد جهد أن يقول :

ـ أية كارثة ؟! ...

وتلفت يمينا ويسارا كأنه يشهد الملأ على ما سيقول واردف :

ـ نحن سنكسب هذه الحرب ! ... سنكسبها ! ... سنكسبها ! ...

وطفق يضحك كمعتوه ويهز جسمه هزا متواليا ، كأنما هو يرقص على نغمات موسيقى النصر . ثم صمت مرة أخرى واربد وجهـــه وعاودته كآبتـــه . فانتحى زاوية قبع فيها وظل يحدق باهتمام الى قدميه .

وهنا لم يتمالك الفيلـــسوف نفســه ، فانفجر بالضحك هو الآخر وقال :

ـ ما امتع حيـــاتى معـــك يا أوريون ! ... ان تقلباتك الغريبة تســحرنى وتفتننى ! ... انك تمثل الحياة الكبرى ، وكل ما فيها ينعكس عليك . كل ما سوف يأتى به القدر يستشعره قلبك وتفيض آثاره على محيـــاك . وما دمت أنت مؤمنـــا بالنصر فأنا مؤمن به أيضـــا ... فلا تكتئب ولا تحزن ... ان « هستيا » تقـــدرك وتثق فى الهامات بصيرتك ، وتعتقد نفس اعتقادك ولو كره والدها . فنحن ثلاثة : هى وانت وانا ، ولسوف نتغلب بعون الآلهة على ضعف هرمس وشكوكه ...

فقاقل أوريون هرمس ومال نحو أستاذه ، وهمس فى أذنه متوسلا وهو يرتجف :

ـ لا تنصرف ... ابق قليـــلا ... اريد أن أراها فى حلتهـــا المقدسة البيضاء قبل أن تذهب الى المعبـــد ...

فطمأنه الفيلـــسوف بنظرة معنوية ، ثم تحول الى مضيفه وقال :

ـ لابد أن سيكون احتفال هذه السنة رائعا ! ...

فأجاب الكاهن هرمس وهو منصرف الى تفكيره :

ـ ملاذا تقول ؟ ... نعم ... أجمل العذارى من أرقى بيوتات اليونان اشتركن فى حياكة ثوب الآلهة « بالاس » الذى ستكسوا به اليوم تمثالهـــا . سيكون الموكب كما الفتموه عظيما ... ولكن رهطا كبيرا من العظماء والوجهـــاء سيشترك فيه هـــذا العام ، كما سترتل « ميرا » لأول مرة ، يصحبها جمع من الفتيات ذوات الجمال الرائع والصوت الرخيم .

فهتف أوريون وهو يصفق :

ـ سيكون عيد « بالاس » بشير النصر ! ...

ثم اتجه بغتة نحو هرمس ، وركع امامه نصف ركعة ، ثم تشجع وقال فى احترام عميق :

ـ آمل وانت الكاهن الأول فى معبد الآلهة « بالاس آتينا » ألا ترفع اليها اليوم صلواتك وانت فى شك من انتصار ابنائها ! ...

فرمقه هرمس بنظرة ساخرة . ثم قال فى صراحة وشموخ :

ـ ان سلامة نيتى تثبت لها طهارة قلبى .

وكان الفيلـــسوف يحدق اليـــه وهو ينطق بهذه العبارة . فلما التقت عيناهما ابتسم هرمس ابتـــسامة خفيفة واشاح بوجهه واطرق . وفى هذه اللحظة سمع صوتا عذبا يقول : **هاتذى يا والدى ...**

وتلفت الكل واذا بهستيا الجميلة واقفـة بباب مخدعها تبتسم لهم ، وترفل مبتهجة فى حلة العيد الجديدة البيضاء .

وصاح الفيلسوف وهو يتأملها معجبا بها :

ـ كم انت جميلة يا هستيا ! .

فطربت الفتاة لهـذا الاطراء ، وتألقت عيناها الزرقاوان ، وانسكب على كيانها كله شوء من الزهو الفاتن البرىء . ولكنها قالت فى وداعة ورقة :

ـ سترى فى الموكب فتيات أجمل منى بكثير يا أستاذى العزيز ...

فلوح الفيلسوف بيده وقال :

ـ انت اجملهن جميعا .

فأمالت هستيا رأسها على كتفهـا بحركة لطيفة ، وقالت قد ارتعشت جدائل شعرها المصفف حول رأسها كتاج من ذهب :

ـ لقد علمتنى التواضع يا أستاذى ، فحذار ان تلقى فى نفسى بذور الكبرياء .

فقال الكاهن هرمس وهو ينظر الى ابنته نظرة ملؤها الاعتزاز :

ـ يحق لك ان تفخرى يا ابنتى فالكبر من شيم الجمال ...

واردف مداعبا وهو يبتسم :

ـ آه لو رآك خطيبك « كرونوس » على هذه الصورة ، اذن لازداد جنونا بك ! ...

فغضت الفتاة من بصرها حياء وقالت فى خفر ودل :

ـ ألن تكف عن ذكر هذا الموضوع يا أبت ؟ ...

فقال الفيلسوف وهو يحك صلعته :

ـ هذا أحب موضوع الى الفتيات يا هستيا .

فتضرجت وجنتاها ، وشاع الخجل والاضطراب فى صوتها ، وقالت وهى تلقى على الفيلسوف نظرة عتـاب :

ـ وانت ايضا يا أستاذى ؟! ... انى اغفر لك لانى احبك ، ولكن عدنى بالا تطرق هـذا الموضوع مرة ثانيـة ...

فقهقه الفيلسوف وقال :

ـ اذا امتنعت عن الكلام فيه فلن تعدمى أنت وسيلة لاثارته بنفسك ...

فضج الوالد بالضحك ، وتململت « هستيا » وتحولت عنهما الى أوريون . ولكنها ما كادت تدنو منه وتنظر اليه ، حتى انقبض محياها ، وخنق الاشمئزاز الكلمات فى صدرها على الرغم منها .

وكان اوريون قابعا فى زاويته . رافعا رأسه اليها ، يتأملها بنظرات ملؤها العبادة والتقديس . فلما ابتعدت عنه ، واحس منهـا ذلك النفور الطبيعى الذى لم تكن لهـا حيلة فيه ، طوى رأسه على صدره كى يخفى وجهه الدميم ، وأرسل أنة قصيرة ، وانكمش ولم يتحرك .

وبعاطفة انسانية نبيلة غالبت الفتاة نفسها وتحولت نحو أوريون وقالت له :

ـ ألا ترى ان من واجبى اليوم الا افكر فى نفسى ، أو فى خطيبى ، او فى اية سعادة غير سعادة ومجد وطنى ؟ ... كل عذراء فى بلاد اليونان ، ولا سيما انا بنت الكاهن الأول ، يجب أن تتجه اليوم بعقلها وقلبها الى المعبودة « بالاس » كى تعجل بعقد اكاليل النصر على هامات أبطالنا ! .

فهز الفيلسوف رأسه ، وتعمد أن يقول كى يحرج هرمس :

ـ ما أعجب أن تناقض البنت آراء أبيها .

فتطلعت هستيا الى أستاذها وقالت فى دهشة :

ـ ما معنى هـذا ؟ ...

فأجاب الفيلسوف على الفور :



ـ والدك يرى أن النصر على الفرس ضرب من المحال ، وانه أولى بنا وأجدى لمصالحنا أن نتفق معهم ونلقى السلاح ! ...

فبهتت هستيا ، ثم امتقع لونها وتبدلت فى لحظة . تغضن جبينها وارتسمت عليه صرامة مهيبة . اتقدت عيناها واتسعتا وقدح منهما بريق الغضب والاستنكار . زايلها كل خضر وكل رقة . تقلص عنها جمال العذارى ، وأغدق عليها السخط جمالا آخر أشد تأثيرا وأوقع فتنة . فمشت الى والدها كامرأة راشدة كاملة ، وقالت فى صوت جاف جهير :

ـ أصحيح ما قاله شالكاس يا أبت ؟ .

فاضطرب هرمس ، وأجاب متلعثما وهو يرشق الفيلسوف بنظرة حانقة :

ـ هذه الفكرة عرضت لى .. وليست من الأهمية بحيث ...

فقاطعته هستيا منفعلة :

ـ بل هى من الخطورة بمكان عظيم ! ... ولو تسربت منك أنت الكاهن الأول ، وتغلغلت فى أوساط الشعب فى أيام المحنة هذه التى نجتازها ، فمن ذا الذى يضمن أن تظل الأمة متماسكة أمام عدوها فى حرب هى بالنسبة لها حرب حياة أو موت ؟! ...

وصمتت فجأة ثم صرخت :

ـ أنتم تعلمون شدة حبى لخطيبى كرونوس ، ولكنى برغم هذا الحب أوثر أن يقتل فى ساحة الحرب على أن يعود الى حيا وفى صدره خيبة الهزيمة ... الموت ... حب الموت يا والدى ... انكار الحياة ... الزهد فيها ... التحرر من مباهجها ... التغلب على سلطانها باحتقار هذا السلطان ... تلك هى المبادىء التى أخذتها عن أستاذى شالكاس ، والتى أعلم علم اليقين أن فيها سعادة وطنى كما كانت فيها حتى اليوم سعادتى !

وكانت تتكلم وأوريون شاخص اليها ، يتأمل وجهها الملتهب ، وعينيها القاسيتين ، وشفتيها القرمزية وهى ترتجف ، وأشاراتها القاطعة ، وحركاتها الفياضة بالأباء والعزة . فغفر لها من صميم قلبه نفورها العميق منه ، لفرط ما شاهد من أخلاصها وصدق وطنيتها .

وفجأة وقع بصرها عليه فلم تتقزز ، بل اتجهت نحوه ، وأمسكت بذراعه ، وتقدمت به الى حيث كان يجلس والدها واستطردت :

ـ ماذا قدمنا نحن للوطن ؟ ... لا شيء ! ... أما أوريون الذى منعـه الضعف والعجز البدنى من عمل السلاح والذى لم يستطع أن يقدم للوطن حياته ، فقد وهب خزانة الجيش كل ثروته ! ... يجب أن نقتدى به . وان أعوزتنا روح التضحية ، فلا أقل من أن نصمت وندع اليونان تقاتل موحدة متراصة الصفوف مرتاحة الضمير ! .

ورنت بطرفها الى أوريون وربتت على كتفـه . فتفتح قلب الرجل الدميم المنبوذ ، وابتهجت روحه ، وانحدرت دمعة على خده المشوه .

واحست هستيا أنها قد أسرفت فى القسوة على والدها . فاندفعت نحـوه وطوقته بذراعيها ، ومضت تبتسم وتقول بصوتها الناعم وقد عاودتها فتنة العذارى الرقيقات المستضعفات :

ـ سامحنى يا ابت ! ... ما قصـدت الاساءة اليك .. لتنصب على لعنة الآلهة « بالاس » فى يوم عيدها العظيم ان كان قد خامرنى اى شك فى وطنيتك ... أعف عنى ... ابتسم لى كعادتك ... انس ما بدر منى وهات يدك ..

وتناولت يد والدها وقبلتها فى خشوع ... ثم انثنت الى أستاذها ، وقالت وقد تغاضت عن أوريون كعادتها ، وأهملته كان لم يعد له وجود :

ـ الا ترى انى بوصفى بنت الكاهن الاول يجب أن أحمل الانيـة المقدسة وأتقـدم موكب العـذارى ؟ ...

فأجاب الفيلسوف :

ـ يكون منك أجمل وأروع وانت بنت الكاهن الأول فى معبد الآلهة التى ستحتفل اليوم بعيدها ، أن تضربى المثل الصالح فى التواضع ، وأن تقدمى عليك أترابك وتسيرى فى مؤخرة الموكب ...

فحنت هستيا رأسها وقالت :

ـ لك ما تريد يا أستاذى . وسأظل فى المؤخرة وأنت العظيم الى جانبى .

ولم تكد تتم عبارتها حتى سمعت خارج البيت حركة وأصواتا مصحوبة بلجب كبير . فصاحت هستيا وقد غمر الفرح وجهها :

ـ جاءت العذارى ، وأزف الموعد ...

فهتف أوريون :

ـ هيا بنـا ! ...

فرمقهم الكاهن هرمس بنظرة جانبية ، ثم قال فى هـدوء وهو يشيح بوجهه ويبتسم ابتسامته الخفيفة الغامضة :

ـ تقـدمونى الى المعبـد . يجب ان أغتسل واتطهر قبل أن أشرع فى الصـلاة . تقدمونى ولتباركم الالهـة .

فنهض الفيلسوف شالكاس ، وتأبطت هستيا ذراعه . وسار أوريون خلفهم بخطى التابع القانع السعيد ، وخرجوا جميعا متجهين نحو المعبد .

* * *

ولم يكن هرمس فى حاجة الى التطهر . اذ الواقع أنه كان قد اغتسـل وتطهر منـذ الفجر . فلما القى نفسه وحيدا ، ذكر كل كلمة قالها للفيلسوف ، وطفق يضحك . ضحك ضحكات ساخرة هادرة متوعدة شبه وحشية . ثم اندفع نحو نافذة صغيرة وفتحها ، ثم أطل منها ، وجعل يتأمل الشارع العريض وهو يلهث . وفجأة أبرقت عيناه ، وارتعش بدنه كله ، وصاح :

ـ ها هم ...

وأسرع وفتح الباب . فنفذ منه سبعة رجال في مقدمتهم رئيس الشرطة والشاعر الغنائي المشهور أكتيون . فاستقبلهم الكاهن مرحبا ، ثم أهاب بهم وهو يتعجلهم :

ـ الوقت ضيق وثمين ... فتكلم ... تكلم يا أكتيون ... ماذا فعلت ؟ ..

فقال الشاعر وهو يصعر خده ، ويشمخ برأسه زهوا وكبرا :

ـ لقد أعددت المنشورات وهي معي ... هذه هي ... موقعة بخاتمك وخاتم الكاهن الأعظم ورئيس الشرطة ... سنوزعها على الشعب في أيام العيد .. ثم نبدأ باشعال نار الثورة بعد غـــد فنحتل المرافق العامة ، وننظم المظاهرات ضد الحرب ، وننادي بسقوط القائد ملتيادس ، وضرورة عقـــد الصلح مع الفرس وملكهم داريوس ! ..

فهتف رئيس الشرطة :

ـ مرحى بك يا أكتيون . لأنت بطل الثورة ولا ريب ، وزعيمنا الأوحد في المستقبل القريب .

فاندفع الكاهن هرمس ، وعانق الشاعر وقبله وهو يردد :

ـ أنت زعيمنـــا ... أنت منقـــذنا ... امض في سبيلك ، وهيىء رجالك للعمـــل وأسرع . ان كل لحظة محسوبة علينـــا . فابدأ بتوزيع المنشورات في الحي الشرقي من المدينـة حيث يقطن التجار وأصحاب المصالح . أما رئيس الشرطة فسيحرص الحرص كله على عدم التدخل لمنع المظاهرات . وأما أنا فسأنطلق من فوري الى المعبد حيث أطلع الكاهن الأعظم على ما قمتم به من جهود ، وأشغل الجماهير بصلوات وحفلات العيد ... اذهبوا ..

فانحنى الجميع في احترام وقبلوا يد الكاهن فشيعهم هرمس حتى البـــاب وهو يحدق في عيني رئيس الشرطة تحـديقا غريبـــا ، وينظر الى الشـــاعر المزهو أكتيون نظرات ملؤها التشـــجيع والتقدير والاعجاب .

ولـــما ألفى نفســـه بمفرده مرة ثانيـــة ، لم يضحك . بل ضم قبضتيه ، وعض على شفتيه ، وأرسل شبه صرخة ، ثم التقط أنفاسه واندفع متجها نحو « الاكروبول » كي يلحق بموكب العذارى .

* * *

وكان الاكروبول قلعة أقيمت في أثينـــا فوق صخرة عالية شيدت عليها **معابد مختلفة ، منهـــا البارثنون معبد الآلهة بالاس .** وكانت الجماهير الغفـــيرة قد احتشدت حول المعبد . أما المعبد نفسه فكان مقسما الى مناطق ثلاث : المنطقة الأولى رحبة فسيحة أعدت في الجهة الشرقية لتلقي القرابين والنذور ، والمنطقة الثانية رحبـــة أيضا أقيمت في الجهة الغربية لحفظ كنوز الآلهة وجواهرها .. وأما المنطقة الثالثة فكانت تبرز في الوسط ، وينهض فيها على قاعدة عظيمة تمثال الآلهة نفسها .

وكانت الجماهير ومعظمها من أبناء الشعب البائسين الكادحين وذوي العاهات ، تتجمع عنـــد أبواب البارثنون في انتظار مقدم الموكب وبدء الصلاة .

فالمشلولون والمقعـدون والعميان ، والأمهات الحاملات أطفالهن المرضى ، والشيوخ الذين أعيتهم مكافحة الهرم ، والمصـابون بداء الصرع ، والأرامل الحزينـــات ، والمطلقات المنبوذات ، والنســـاء العقيمات اللاتي يتمنين الحمل ويشتهين الأمومة ، كل أولئك كانوا يتزاحمون بالمنـــاكب نحو المعبـــد ومن خلفهم طوائف المتفرجين من أبناء الطبقة الوسطى ، أو أرهاط الشباب الماجن العابث من أبناء الطبقات العالية ، جاءوا لامتاع نفوسهم بالاندماج في حفلات العيد ، والاشتراك في الرقص مع الغواني ، والاستماع لتراتيل المغنية « ميرا » ومشاهدة موكب العذارى .

أما الرجال والنساء الذين ذهب الى الحرب أبناؤهم أو أزواجهم أو أخوتهم ، والذين فقـــدوا الكثيرين منهم في ميدان القتال ، فقد كانوا في المقدمة متجمعين بعضهم حول البعض الآخر ، يتنسمون أنباء القتال ، ويواسون المرضى ، ويبتهلون الى الآلهة بالاس أن تعجل يوم الخلاص والنصر .

ولم يكن ليلفت النظر في هـــذه الجموع ســـوى الغواني المحترفات بائعـــات الهـــوى . فقد كن يبرزن من بين الجماهير بأرديتهن الزاهيـــة ، وضـــحكاتهن العالية ، وتكاتهن الصارخة ،

ووجوههن الوقحة المطلية بالمساحيق . وكن يتحرشن بالشبان الاثرياء ، ويبادلنهم مختلف النكات ، ويعقدن معهم أواصر الصداقة ، ويضربن لهم مواعيد الغرام .

وكانت الاحاديث تدور حول المرض والحرب والحب . وكان الفرح بالعيد يخفف من وطأة المرض ، والأمل العميق في النصر يحجب كوارث الحرب ، ومشهد العذارى المنتظر يؤجج في النفوس شعلة الحماسة ويضرم عاطفة الوطنية وعاطفة الحب .

وفجأة ترامت الى الآذان انغام موسيقية بعيدة . فاضطربت الجماهير واختلطت ، ومالت صفوفها المتراصة متدافعة كالموج ، وارتفع صراخها وهتافها عاصفا مدويا كهدير بحر خرافي هائل .

وتقدم الموكب شيئا فشيئا ، وأفسح له الشعب الطريق . ولم يكد يبدو هرمس ومن خلفه الكهنة يتبعهم خدم الهيكل حتى استولى على الناس شبه جنون . فاندفعوا نحو الكاهن الأول ، وداس كبيرهم صغيرهم ، وولولت النساء ، وبكت الأطفال ، ولم ينعم غير نفر قليل بلثم رداء هرمس خادم الآلهة بالاس .

وفي اقل من لحظة تبدلت نفسية الجماهير ، وخمدت أصواتها ، وقر فيها النظام ، واحتواها الصمت .

تراجع الناس واصطفوا خاشعين ، ثم اشرأبت أعناقهم ، واندلعت عيونهم ، ومضوا يحدقون في لهفة ونشوة الى موكب العذارى .

وكن عشرا من أجمل وأفتن بنات اثينا ، يسرن مشدات شامخات ، صارمات الوجوه في جلال مهيب ، تائهات العيون في ورع قدسي ، ملتهبات الخدود في فرح محتجز عميق ، يحملن في كبر واعتزاز ثوب الآلهة الجديد الذي حاكته أناملهن ، وزركشته ، ووشت مختلف أطرافه ، ورسمت عليه صورا رائعة من شتى المعجزات التي قامت بها الآلهة ، ونقشت فيه أسماء الأبطال الذين استشهدوا وماتوا في سبيل الوطن .

وجثت الجماهير عند مرور الموكب ، وحنت رؤوسها أمام الثوب الذي كان يتألق ويسطع تحت أشعة الشمس ، متموجا من خلالها ، سابحا فيها ، أشبه بقارب صغير من ذهب ، يرمز الى النجاة ، ويتجه في هدوء نحو شاطىء الأمن والخير والسلام .

وارتفعت غمغمة كبيرة تعالى بعدها الهتاف :

ـ المجد لبالاس أثينا ! ...

فارتعشت يد هستيا وهي تحمل طرف الثوب المقدس ، وضمت شفتيها خشية أن تبكي من فرط التأثر ، واستطردت في السير وئيدة الخطى ، صافية العينين ، مشرقة الوجه ، ممشوقة القد ، لينة الاعضاء ، تكلؤها عين الفيلسوف أستاذها ، ويرمقها أوريون الدميم بنظرات ملؤها الحسرة ، وتنهب حسنها الباهر أبصار الجماهير .

ومر الأشراف والنبلاء وكبار رجال الحكومة ، وتبعتهم فرق الموسيقى ، وجماعة الشعراء والأدباء ورجال الفن ، يحيطون بالمغنية « ميرا » وقد ارتدت ثوبا أبيض ناصعا محلى بزهرات حمراء ، وأرخت شعرها الأسود الرائع على كتفيها ، وتمنطقت بحزام من ذهب . فما أن عرفتها الجماهير حتى صاحت :

ـ ميرا ! .. ميرا !..

فابتسمت المغنية ولوحت للهاتفين بذراعها ، كأنما هي تعدهم بسماع ما لم يسمعوا في حياتهم من أشجى التراتيل وأحرها وأقدسها .

وجعل الموكب يختفي ويغيب في جوف المعبد على مهل . ثم تدفقت في أثره الجماهير متسابقة متدافعة ، ثم هدأت الساحة بعض الشيء ، وتخلف فيها ذلك النفر من الشباب الأثرياء في صحبة بنات الهوى اللاتي جلسن على الأرض ، ومضين يجاذبن أصدقاءهن الحديث ، ويداعبنهم ، ويمرحن ويضحكن في انتظار نهاية الصلاة وبدء أفراح الشعب .

وكان آخر من دخل المعبد هو عاشق هستيا التعس المسكين ، أوريون الدميم المعذب المنبوذ الذى لم تستطع أن تطيل النظر اليه عين ، والذى لم يكن بين كل هذه الجموع صديق .

* * *

واخترق أوريون الجماهير وتسلل بين أعمدة المعبد ، حتى وقع اختياره على زاوية يمكن أن يلمح منها الآونة بعد الأخرى وجه حبيبتـــه هستيا . وكان الكاهن الأعظم قد بدأ يتلو صلاته وهو جالس على أريكة عالية مجاورة لقاعدة تمثال الآلهة ، يشخص اليها البصر ، موفور التقى ، مشبوب الفكر والقلب والروح . أما الكاهن الأول هرمس فكان قد اقترب من التمثال المقدس وحوله صغار الكهنة يبتهلون ويرنمون ، وشرع ينزع فى بطء وحرص عن الآلهـــة ثوبها القديم ، ويتناول الثوب الجديد من أيدى العذارى ، ويخلعه على التمثال .

وظل الكهنة يرتلون والشعب صامت ثم انحنوا فجـــأة وتراجعوا كأنهم يقـــدمون الآلهـــة هبـــة للجماهير .

ولاحت اذ ذاك « بالاس أثينـــا » تتلألأ فى ثوبها الجديد الرائع ، مستوية على قاعدة تمثالها ، عزيزة ومرهوبة ، تعلو رأسها خوذة يزينها رسم أبى الهول ، ويحمى صدرها درع نقشت عليها صور بعض الأفاعى ، وتقبض يدها اليسرى على رمح أسـتند الى درع ، وتحمل يدها اليمنى شـــارة النصر المجنح .

وعندئذ جاشت الجماهير واصطخبت . فارتفعت الأذرع مرتعشة ، وامتدت الأكف نحو الآلهة متضرعة ومبتهلة ، وفتح الكاهن الأعظم باب الحجرات الشرقية حيث تراكمت القرابين والنذور التى قدمها الشعب بالأمس . فضج الناس بالفرح ، واتقدت حماستهم ، وجعلوا يرددون :

المجد لبالاس أثينا ! ...

وقبل أن تفتر حميتهم ، توسطت المغنيـــة ميرا بهو المعبد ، ثم تقدمت صوب الهيكل ووقفت تجاه تمثال الآلهة . ثم جثت ، ثم نهضت ، ثم رفعت ذراعيها وأنشأت ترتل بصوتها الحار الجميل ، وهى شاخصة الى عينى الآلهـــة ، والجمهور يتبعها النظر ، وقد خفتت صيحاته ، وحل محلهـــا سكون خاشع رهيب .

وغنت ميرا تمتدح بالاس وتمجدها :

« الحكمة شعارك يابالاس والعقل قوتك » .
« الفصاحة لسانك والفنون زينتك » .
« الرقى ايمانك والحضارة قبلتك » .
« فامنحينا النور يا عذراء الخلود وقوى قلوبنا ! »

فرددت الجماهير فى حماسة :

ـ امنحينـــا النور ! ..

وجلجل صوت ميرا واستطردت :

« يا بعيدة النظر ياسيدة الرواية » .
« يا بنت العلى وحارسة المدنية » .
« يا ذات العيون الصارمة والنفس الأبية » .
« يا درع الوطن ، يا عذراء ، أنقذينا ، وامنحينـــا نعمة الخلاص والحرية ! ... »

فرددت الجماهير فى جنون :

ـ امنحينا نعمة الخلاص والحرية ! ...

وحلق صوت ميرا ودوى كالرعد القاصف :

« يا راعية الأبطال يا عاقلة » .
« يا ربة الحكمة والشجاعة . يا باسلة » .



« يا عبقرية السيف والقلب والفكر » .
« يا روح الكفاح ومجد هذا العصر » .
« امنحينا الثبات يا عذراء » .
« وجودى علينا بالنصر ! ... »

فماجت الجماهير ، وانشقت حناجرها وهى تصرخ :

ـ جودى علينا بالنصر ! ...

ثم صمتت ميرا ، وانحنت تقبل قدمى الآلهة ، ثم تراجعت فتلقاها الشعراء والفنانون واحاطوا بهــا وجعلوا يلثمون اطراف ردائها ، بينما كانت الموسيقى تعزف ، والجماهير تهلل ، والعذارى ينثرون الورود على الآلهة فتتساقط كالنجوم وتنحدر على قاعدة التمثال حيث كان يزدحم المصلون ويتبارون فى أيهم يفوز بوردة منها .

وبعد ان اتم الكهنةالشعائر الدينية وتحولوا فى اتجاه رئيسهم الأعظم وانحنوا لتحيته ، اصطفت الفتيات فى نصف دائرة تجاه الهيكل ، ووقف هرمس على الدرجة الثانية لقاعدة التمثال ، ثم طوى ذراعيه على صدره وقال :

ـ يا أطهر وأنقى عذارى اليونان . تعلمن أن الكاهن الأعظم لم يعهد اليكن بحياكة ثوب الآلهة العذراء بالاس الا ليكون الاقتداء بفضائلها رائدكن منذ الساعة ، وحتى بعد أن تغادرن بيوت آبائكن الى دور أزواجكن . فلتتقدم اذن كل واحدة منكن ولتقسم أمام الآلهة انها ستحتفظ بنفسها طاهرة من كل خيانة وكل نميمة وكل رذيلة وكل دنس . واعلمن أن من تحنث بيمينها لابد أن تحق عليها لعنة بالاس ! ...

فرفعن جميعا ابصارهن نحو الآلهة ومددن أذرعهن وقلن فى صوت واحد :

ـ نقسم أن نقتدى بالآلهة بالاس !

فاستدار هرمس وتمتم أمامها بعض الصلوات ، ثم تحول وبارك العذارى . فانحنين لتحيته بعد أن قبلن قدمى الآلهة ، ثم انصرفن الواحدة بعد الأخرى ، متئدات ساكنات ، وقد امتلأت قلوبهن راحة وقوة وصفاء .

وبدأ المصلون يمرون بالتمثال وهم يلمسونه ويقبلون أناملهم متبركين . ثم اندفعت جموعهم نحو الخارج ، وفترت حركتهم فى المعبد ، وشرع الكاهن الأول هرمس يتلو صلاة الشكر الطويلة الجامعة وهو جاث تجاه التمثال ، والكاهن الأعظم يردد عن بعد نفس الصلاة ، ويتهيأ لنحر الذبائح التى قدمها المؤمنون قرابين للآلهة بالاس .

وكان قد خطر لهستيا أن تتخلف ريثما يفرغ والدها من صلاته فيعودا الى البيت معا . ولكنها ذكرت أن الفيلسوف استاذها لابد أن يكون فى انتظارها خارج المعبد ، وأن من واجبها ألا تدعه ينتظر .

فاتجهت نحو الباب . غير أنها لم تكد تتوسط الرحبة الكبيرة المؤدية الى الخارج ، حتى جمدت فى مكانها ، ثم ابتسمت ، واستضاء وجهها كأنما قد صب عليه فجأة سيل من نور ... أبصرت خلف أحد أعمدة المعبد حبيبها وخطيبها كرونوس ، رئيس فرقة الفرسان فى الجيش الوطنى المقاتل ، يشير اليها بالصمت ، ويدعوها الى الدنو منه . فتقدمت وهى ترتعد . فجذبها الشاب من يدها ، وسار بها الى أقصى المعبد حيث ينهض عمود ضخم أخفاهما عن الأبصار . وهناك ضمها فى حنان الى صدره ، فأقصته عنها فى رفق وغمغمت :

ـ كيف جئت ؟ .. انها لمعجزة ! .. أأنت فى أجازة ؟ .. وهل .. هل نحن منتصرون ؟ ..

فحاول الشاب أن يجيب . ولكنها تأبطت ذراعه وآثرت أن تخرج به من المعبد فردها بحركة وقال فى همس :

ـ استاذك وأوريون ينتظران بالباب ، ولا أريد أن ألتقى بهما قبل أن أتحدث اليك .. اليك وحدك .. الآن .. لدينا متسع من الوقت .. ابقى مكانك .. لا تتحركى .. اصغى الى .

وكان شابا وضىء الطلعة ، سبط القوام ، مدمج الأعضاء ، بادى عظام الوجه فى رجولة أخاذة . وكان يتكلم وهو يرتجف ، ويعض شفته الرقيقة السفلى ، ولا يفتأ يرشق هستيا بنظرات حادة متقطعة وجلة ، كأنما هو يخشى التحديق اليها مواجهة .

وكانت هى تتطلع اليه وقلبها يخفق ، ونظراتها تحوم حول ملامح وجهه وتقتنص من حركاتها ما يمكن أن يميط لها اللثام عن دخيلة نفسه .

وقالت بعد فترة :

ـ أنت مضطرب .. لم أرك أبدا على هذه الصورة .. ماذا ؟ .. هل بدأت المعركة الثانية .. وهل هزم جيشنا ؟ .. تكلم .. أسرع ..

فقال الشاب وهو يلتقط أنفاسه :

ـ لن نهزم فى ساحة القتال أبدا . ولكننا قد نهزم هنا .. فى الداخل .. وهذه الهزيمة المروعة قد تقضى على جيشنا شر قضاء ! ..

فتمتمت هستيا :

لا أفهمك ..

فاستطرد وهو يختلج :

ـ ما أن ظفرت بأجازة يومين ، ومنيت نفسى برؤيتك ، حتى امتطيت صهوة جوادى وأسرعت ودخلت المدينة متجها نحو بيتك ، ولكنى لم أكد أشرف على بابه حتى رأيت الشاعر اكتيون خارجا منه ... من بيتك انت .. خارجا فى صحبة نفر من أصدقائه يتقدمهم رئيس الشرطة . فاستغربت أمرهم ، ولم أفهم لماذا اجتمعوا اليوم فى دارك ، وتراجعت . ولكن أكتيون أبصرنى . فودع رئيس الشرطة ، ثم نادانى واندفع نحوى وعانقنى . ثم استفسرنى عن حقيقة موقف الجيش فى ميدان القتال وهو يبتسم ابتسامة غامضة أدهشتنى وارابتنى . وفجأة ، مال الى ، وربت على كتفى ، وقال لى بالحرف الواحـــد :

« من الخير لك أن تظل فى أثينا ، وأن تنضم الى صفوفنا ، وأن تعدل عن العودة الى ميدان القتال ، لأن البلد أصبح فى أيدينـــا . وقد اعتزمنا نحن أن نعقد الصلح مع الفرس ، وأن نشعل نار الثورة فى الداخل كى نضع حـــدا لحرب الاستقلال الطائشة ، ونعرقل جهود القائد ملتيادس ، ونقيم الكاهن الأعظم صديق الفرس ملكا علينا ! ... »

هذا ما قاله الشاعر أكتيون . فبهت أنا ولم أصدق . وعندئذ أبرز لى الشاعر منشورا يدعو الى الثورة ووقف القتـــال ، موقعا عليه بخاتمه هو ، وخاتم الكاهن الأعظم ، وخاتم رئيس الشرطة ، وخاتم شقيقى الاكبر « بلوتون » حارس صـــوامع الذخيرة فى أثينا ، وخاتم رجل آخر تعرفينه أنت حق المعرفة يا هسنيا ...

فاندفق الدم الى وجه الفتاة ، وانخلع قلبها ، وهتفت :

ـ من ؟ .. من هو ؟ ..

فأومأ الشاب باصبعه الى الهيكل وقال :

ـ هو ذلك الرجل الذى يصلى ! ... هو والدك ... هو الكائن فى معبد بالاس ، وهو الذى عقد المتآمرون اجتماعهم صباح اليوم فى بيته ! ..

فجحظت عينا الفتاة ، وعقد الهول لسانها . أما كرونوس فاستطرد يقول :

ـ تصورى مبلغ دهشتى ورعبى عندما تأكدت أن الكاهن الأعظم واكتيون الشهير ووالدك النبيل ورئيس الشرطة نفسه وشقيقى الاكبر بلوتون ، أى صفوة رجال هذه الأمة ، هم جميعا من الثوار دعاة الهزيمة وأنصار الفرس وأعـــداء جيشنا الذى يقاتل قتال المستميت ذودا عن كرامتنا وحريتنـــا واستقلالنا ! ... جن جنونى ، ولم أفكر فى تلك اللحظة الا فى أخى .. فى شقيقى .. فى ذلك الرجل الذى ربانى بعد وفاة والدى ، والذى لا أحب بعـــدك فى هذه الدنيا انسانا سواه . فلم أتردد ، وقفلت راجعا الى بيتنا ، والتقيت بأخى ، وما زلت به أنبهـــه وأحذره وابصره بالخطر الذى لابد أن يستهدف له لو فشلت الثورة ، حتى اقتنع برأيى ، ونزل على حكمى ، وكتب أمامى الى الشاعر اكتيون بأنه قد عدل بصفة نهائية عن تأييد المتآمرين . فتنفست أنا الصعداء . ولكنى لم أهدأ حتى عثرت على ملجأ أمين نصحت شقيقى بأن يختبىء فيه خشية أن ينقم عليه اكتيون فيبعث بمن يقتله . ولما اطمأن قلبى على أخى ، عدت فامتطيت جوادى وأسرعت الى هنا أحمل اليك النبأ المنكر المشؤوم ... فخذى ... اقرأى أنت أيضا وتأكدى ... هذا هو المنشور وهو يدل أبلغ الدلالة على صدق كلامى ! .

وصمت وهو يلهث . فتعاقبت أنفاس الفتاة ، وأحست كأن هوة عميقة تحتفر عند قدميها ، وكأن دوارا عنيفـــا يطوح بهـــا . ذكرت تلك العبـــارات الغريبة النابية التى صدرت اليوم فى البيت عن والدها . ذكرتها كلمة كلمة . ذكرتها وقلبها يتمزق سخطا وكبرا وأنفة . وذكرت موقف أستاذها ، وثورتها هى على أبيها ، وأشادتها بوطنية صديقهم أوريون المشوه الدميم ... فشعرت بالعار يغمرها ، ولم تستطع أن تتصور كيف يكون والدها الكاهن الأول ثم يخون ، وكيف تكون هى بنت هـــذا الكاهن ثم تغض الطرف عن الخيانة ، وتسمح بالنفاق يتستر خلف شعائر الدين ، وتحنث فوق ذلك باليمين الكبرى ، بيمين النزاهة والاستقامة التى أقسمتها الساعة أمام الآلهة بالاس !

وحانت منها التفاتة الى داخل المعبد ، فلمحت والدها ينهض ثم يسجد ، ثم يمعن فى صلواته . فتصاعدت من صدرها موجة اشمئزاز أخذت بمخنقها ، وزايلتها رقة العذارى ، وانبعثت فى نفسها

المرأة الصارمة القاسية التى كانت تعترض اليوم والدها وتحاسبه على انحرافه ومروقه حسابا عسيرا . وقالت وقد تقطب جبينها واتقدت عيناها :

ـ اصغ الى يا كرونوس . انت تعلم بالطبع ان ملك الفرس داريوس عندما انزل جيوشه فى سهل ماراتون هاجم قلب جيشنا فتغلب عليه فى المعركة الأولى . ولكنى سمعت والدى يقول بالأمس للكاهن **الاعظم ان هذه خطة دبرها** قائدنا العبقرى ملتيادس ، وانه تعمد اضعاف قلب جيشنا وتقوية جناحيه كى يستدرج العدو الى وسط السهل الفسيح ، ثم يطبق عليه بجناحيه القويين ، ويمعن فى الطعن فيه حتى يلقى به فى البحر . واذن فهزيمة الملك داريوس فى المعركة الثانية محتومة . لهذا ولا شك راى المتآمرون ان يسرعوا باشعال نار الثورة كى يضطر قائدنا الى نقل جزء من جيوشه الى الداخل . فيحارب فى ميدانين ، فيتخبط ، فيهزمه الفرس ويدخلوا بلادنا ، ويجعلوا من المتآمرين بين عشية وضحاها سادة وحكاما علينا ! ... فالمعركة الثانية الفاصلة قد تبدأ غدا اذن أو بعد غد . فاذا بقى المتآمرون أحياء ، ماتت اليونان ، وضاع استقلالها الى الابد . فيجب ، يجب القضاء على المتآمرين يا كرونوس ...

وابرقت عيناها بريقا ثابتا حاقدا وأردفت :

ـ يجب سحقهم جميعا والتخلص منهم ، كى يدب الذعر فى صفوف أنصارهم ، **فيعجزوا عن اشاعة الفوضى فى الداخل** ، ويقبعوا فى جحورهم مكرهين ، ريثما تتم المعركة الثانية ويتحقق لجيشنا **النصر ! ... ان حاكم المدينة لن يجسر على اعتقال الرؤوس والزعماء وهم أعظم وأقوى الشخصيات فى اثينا . بل هو لو اعتقلهم** فستندلع نار الثورة بفعل انصارهم وتلك **هى الغاية التى يسعون اليها . واذن فواجبنا** نحن ، نحن الشعب ، أن نعمل ... واجبنا نحن **الشعب أن نحاسب ونعاقب ونضرب ! ...**

فحدق اليها كرونوس مرتجفا وقال :

ـ صرحى عما فى ضميرك ...

فقالت بصوت قاطع :

ـ ان أستاذى الفيلسوف انالكاس وطنى متيم ، وله فى البلاد اتباع ومريدون ، فاليه سأتوجه **حال انصرافى من هنا** ، وهو الكفيل بالقضاء على الكاهن الأعظم ورئيس الشرطة **والشاعر اكتيون ...** اما انت ، انت يا كرونوس ، أنت يا حبيبى ، فواجبك أمامك وهو على ملقى العزم منك ... فكن **شجاعا ولا تتردد . ومتى اختفى الآن الكاهن الأعظم وشرع فى نحر الذبائح ، فتقدم أنت ، تقدم واطعن الكاهن الاول وهو يصلى ! ...**

فتراجع كرونوس مذهولا وهتف :

ـ ماذا تقولين ؟ ...

فصرخت هستيا :

ـ لا تفكر فى انه والدى ! ... لم يعد لى والد ! ... كنت يتيمة الأم فاصبحت يتيمة الأب . ولست منذ الساعة الا بنت الآلهة بالاس ! ... لقد اقسمت ان اقتدى بها . ولن أحنث بيمينى ! ... فلا تفكر فى كامراة لها عواطف بنوية مقدسة . اطرد هذه المرأة من ذهنك . اقصها عن خيالك . اقتلنى فى قلبك الى حين . لتستطيع ان تقتل المجرم وانت ثابت مطمئن !

فارتعد الشاب من قرعه الى قدمه وقال :

ـ هستيا ... هستيا .. كيف تطلبين الى أن أرتكب هذا الجرم ؟ .. كيف يمكن لرجل يحبك أصدق الحب ان يسعى لاشقائك وهو لا يتمنى على القدر ان يجعل منك أسعد امرأة ؟ .. لا .. لا أستطيع ... هذا ليس فى طاقة مخلوق .. ان وطنيتك تحرضنى اليوم على قتل والدك . ولكن عاطفة البنوة لابد ان تثور فى نفسك غدا ، وتعدنى مسئولا عما ارتكبت يداى ! ... أنت فى حماستك لا تفكرين فى المستقبل . ولكن المستقبل هو كل ما نملك ... وأنا أراه ... أراه فى هذه الساعة والمسه واعيش فيه ... أجل . أعيش فيه وأعلم علم اليقين أنه سيكون الظلام ... سيكون الهلاك ..

سيكون مقبرة حبنا العظيم ! ... آه يا هستيا .. انى لو طعنت والدك فالطعنة سترتد الى صدرى وتمزقنى وتمزقك أنت ايضا يا حبيبتى .. لن تموت الجثة بيننا أبدا ! ... لن يموت والدك فى قلبك بل أنا الذى سأموت ! .. سأكون ذعرا لك . سأكون موضع حقدك وبغضك ونقمتك مدى الحياة . فثوبى الى رشدك واشفقى على نفسك وعلى ..

فقالت فى مجالدة وعناد :

ـ سأقترن بك ، وسيزداد حبى لك كلما ذكرت أنك أنكرت حبك وقمت بواجبك !

فضمها الى صدره فى عنف ، وصاح بها يصب الكلمات فى مسمعها صبا كأنما هو يريد أن يحرك فيها عوامل الأنانية التى تملأ قلوب جميع العشاق :

ـ أنت شابة ، ومن حقك أن تعيشى وتسعدى ... وما من قوة فى الأرض تستطيع أن تطلب من امرأة أكثر مما يمكن أن تعطى ... ليس فى وسعك يا هستيا ولا من حقك أن تضحى فى سبيل الوطن برجل أنت نفسك مدينة له بالحياة ! ... على ان للوطن رجاله ، وانا على ثقة بأنهم سينقذونه .. وحتى لو نشبت الثورة فهى لن تؤثر فى نتيجة المعركة ... فى مقدور جيشنا أن يقمع الثورة ويربح المعركة ...

فقالت وقد اشتد فى صوتها لهب الغضب والاستنكار :

ـ ما ادراك ؟ .. وكيف تستحل تقدير الأمور وفق هواك ؟ .. ألست تحبنى ؟ .. اذن فاصدع بأمرى وقم بواجبك ولا تبك على والدى أكثر منى ! ..

فتشبث بها ، وقال :

ـ انما أبكى عليك وعلى ! ...

محال .. لن تخدعنى حماستك الطارئة ... لن انزلق . لن اطيعك . لن أشقيك .. لن أجلب على نفسى بغضك الناقم الأبدى ! ..

والصق خده بخدها ، وجعل يميل بها كأنه يهدهدها ، وأردف :

ـ الحياة أمامنا يا حبيبتى ، فلماذا نضيعها ؟ .. السعادة بين أيدينا ، فلماذا نفقدها ؟ ... الحب يدعونا يا هستيا فلنلب النداء ! .. لنذهب ... لنتركهم ... لنفر الى الخارج ... اليوم ... بل الليلة ... لقد أعددت عدتى ... معى نقود ولى فى الخارج أصدقاء . فاستمعى لنصحى قبل فوات الوقت ، واعلمى انى أحبك أضعاف ما تحبيننى ، وانى أرتضى الفرار من الجيش فى سبيل حبك وانقاذ والدك ! .

فحملقت فيه مبهوتة وغير مصدقة وتأملته ... أهذا هو الرجل الذى عقدت عليه كل آمالها ؟ .. أهذا هو الفارس البطل الذى آمنت بشرفه ايمانها بحياتها ؟ ... يريد أن يأخذ ولا يعطى . يريد أن يتمتع ويتنصل . يريد أن يحب ويسعد ولكن بعد أن يفر ويخون ؟! ..

وظلت تتأمله وأنفاسها اللاهثة تتعاقب ، وبدنها المحموم يرتعش ، وعينها الصارمة ترقبه وتبحث فيه ولو عن لمحة واحدة من الرجل الذى كان منذ لحظة أمير أحلامها .

ولم يكد يصمت حتى كان صمته الزاخر بالخزى والعار قد باعد بينه وبينها . فتأملته ثانية واحتقرته . **احتقرته برغم حبها الشديد له . احتقرته ولكنها لم تيأس مع ذلك منه . لم تيأس** من تبديل عزمه وايقاظ ضميره والهاب وطنيته ودفعه الى تأدية واجبه والعودة الى ميدان القتال . فقالت له وهى تكذب لأول مرة فى حياتها ، وتجاهد ما استطاعت لتخفى عواطفها وأفكارها ، وتلاحق بعينها الحاقدة الرجل الخائن الذى يصلى والذى شاء القدر أن يكون هو والدها :

ـ ما أشد حبك لى يا كرونوس .. ليس فى مقدورى أن أجيبك الآن الى سؤلك ... أريد أن أتحدث اليك على انفراد .. تقدمنى الى بيتى وانتظرنى هناك ... يجب أن أصلى أيضا وأستوحى الآلهة . ومتى أتممت صلاتى أسرعت اليك بمفردى لأن والدى قد دعى لتناول طعام الغداء على مائدة الكاهن الأعظم وكذلك أستاذى وصديقنا أوريون . فاذهب ، اذهب الى بيتى حالا .

(للقصة بقية)

العطر

كان يتحرك فى طول الشارع وبصره يتبع الجوارب الشفافة التى كانت تمضى فى رشاقة وسرعة اتقاء للمطر الذى أخذ ينهمر فجأة فى قلب القاهرة .

وكان النسوة يكثرن فى الطرقات على غير عادة بسبب « الأوكازيون » الذى بدأ منذ يومين فى المتاجر .

وبعد التسوق أخذن طريقهن الى العربات الخاصة وسيارات التاكسى .. ولكن الغالبية منهن تجمعت عند .محطات الترام والأوتوبيس ..



بقلم : محمود البدوى

وكان منظر النساء المهرولات وزفيف الريح قد أثار « حسين » وشد أعصابه فاخذ يتعقبهن بعين الصقر .. الى أن تخير سيدة شابة كانت تعبر الشارع أمام سينما مترو فتتبعها فى كل خطوة .. وكانت جميلة جمالا مثيرا .. وانيقة اناقة تامة فى ملبسها ..ولم يستطع المعطف الذى ضم جسمها أن يخفى الجورب الشفاف الذى أبرز جمال ساقيها .. وجعل بياضها الحليبى مع المعطف الداكن اشد المناظر فتنة .

وطاردها بحذر حتى رآها تتجة الى ميدان « التوفيقية » .. ثم تنتظر هناك عند موقف سيارات « التاكسى »المشتركة المتجهة الى مصر الجديدة .. فوقف على بعد خطوات منها يراقبها دون أن يجعلها تلاحظ ذلك وكانت واقفة فى سكون وتحمل على صدرها لفتين كبيرتين ضمتهما عليها بكلتا يديها .. وأخذت بعينيها تستجير « بالتاكسيات » العابرة لتنقذها من حملها .. ولكن لم يستجب لطلبها سائق .

وبدا « الايشــــارب » الذى يغطى شعرها الأسود ويدور حــــول العنق العاجى تتحرك أطرافــه مـــع الهواء الشديد .. فانتقلت تحت « باكية » هناك لتكون بنجوة من الريح .

وادرك حسين من نظرته الأولى اليها انها خرجت وهى مستعدة للمطر .. وتقلبات الجو .

وطالت الوقفة .. اذ لم يقف تاكسى واحد حتى بعد أن انقطع سيل المطر .

ثم جاء تاكسى اخيرا .. وكان الزحام قد خف .. فركبت السيدة فى المقعد الخلفى وركب راكب آخر بجانب السائق ووقف « حسين » متمهلا على الرصيف ثم تقدم بتؤدة وركب مع السيدة فى المقعد الخلفى .

* * *

وقال الســـــائق بعد أن يئس ممن يكمل العدد ..

ــ نطلع .. بثلاثة والنفر ١٥ قرشا ..

فرد عليه حسين وهــــو ينظر الى السيدة والراكب الآخر .

ــ اطلع .. قابلين ..

فتحرك بالعربة .

ولما بلغوا شارع رمسيس عاد المطر ينهمر والشوارع كلها تبدو كالمغسولة ..

وكان شارع رمسيس يموج فى هذه اللحظة بالسيارات الكبيرة والصغيرة وعنــد كل وقفــــة مرور .. تخرج السيارات مندفعة كأنها خـــــارجة من عنق زجاجة ..

واخذ « حسين » يراقب كل ما هو على يمينه بهدوء .. ولم يكن قد حــول وجهه الى ناحية اليسار قـــط حيث تجلس السيدة الراكبة بجــــواره ..

وكانت هى ساكنة الملامح ونظرها الى الأمام .. ووجهها الأبيض يبدو ظاهرا بوضوح فى مرآة السائق .

وكان حسين مذ اخـــــذ يطاردها فى شارع طلعت حرب قد اشتم منها رائحة عطر هــــادئة .. اثارته وذكرته بشىء انتفض له ولكنه ضغط على أعصـــــابه والعطر لا يزال يفوح فى السيارة وتبدو رائحته فى هذا المجال الضيق ونوافذ السيارة مغلقة أشد شىء اثارة له .

وظل طوال تحرك الســـيارة يتجنب النظر اليهـــا مباشرة والتحـــديق فى وجهها .. وظلت هى جالســـة صامتة تحدق فى العربات المـــارة بجوارها عن يسار .. وفى سيل المطـــر الذى كان لا يزال مندفعا .. ووضعت الربطتين بجوارها عن يمين وبجانب « حسين » مباشرة .. اما حقيبة يدها فقد اراحتها على فخذيها .. وغطت ما ظهر من بياض الركبة التى لم يغطهـــا المعطف المنزلق ولا الجونلة القصيرة .. وكانت لا تفتأ تحرك الحقيبة الى الأمام أو الخلف .. كلما تغير وضعها تبعا لهزات السيارة .

ومع أنه بدا غير ملاحظ لها ولكنه كان من جانب عينيه يراقب كل حركاتها .. وراى الخاتم الذى فى يدها اليمنى .. والعقد الذى فى جيدها .. وقدر سنها .. على التخمين بســـتة وعشرين عاما .. وانها على الأرجح غير متزوجة كما انها ليست موظفة وتبـــدو من هنـــــدامها ونضـــــارة وجههـــا فى يسر من العيش ولا تشكو هما .. كما لاحظ من جلستها المستكنة انها وديعة للغاية .. وظاهرة الخجـل ..

* * *

وكان العطر رغم أن المسافة من ميدان التوفيقية الى مشارف مصر الجديدة قد استغرقت حوالى نصف الساعة .. لا يزال يشمه فى خياشيمه .. ويذكره بحادث قديم ود لو يطويه .. فى أعماق النسيان ..

ولكنه عاد الآن اليه بكل صورته الماضية .. فارجف أعصابه .. ولكنه ضغط عليها وتماسك وظل صلبا ..

وعندما استدارت السيارة لتدخل فى شارع « ابراهيم » بمصر الجديدة سمع السيدة تحدث السائق بصوت خافت:

ــ تسمح على اليمين ياأسطى ..

ــ أأدخل فى هذا الشارع .. ؟

ــ نعم أعمل معروفا .. فالمطر نازلا .. وانا أحمل شيلة ..

ــ حاضر ..

ومالت السيارة الى اليمين وأمام منزل من أربعة طوابق توقفت وانحنت السيدة لتحمل الربطتين

وسقط منها شيء صغير وهى تضم الربطتين على صدرها ورأى « حسين » ما حدث ولكنه لم ينبس .

وقال لها السائق وهى تنقده الأجر:

ــ أأحمل لك الأشياء يا سيدتى .. ؟

ــ لا .. شكرا .. أنا ساكنة فى أول دور ..

وسمع « حسين » هذا الحوار وهو ينصت جيدا ومد يده سريعا وتناول الكيس الصغير الذى سقط منها وهى خارجة من السيارة ووضعه فى جيبه واحس بمتعة .. وهو يفعل هذا ..

* * *

وفى اليوم التالى كان « حسين » يتجه بالاوتوبيس الى مصر الجديدة قاصدا مسكن هذه السيدة وسار فى الشارع الذى فيه بيتها .. واخذ من بعيد يتطلع الى النوافذ .. كان يريد أن يراها .. ليعرف الشقة دون أن يسأل احدا .. ولاحظ البيت عن قرب .. لقد سمعها تقول عندما كانت فى التاكسى امس انها تسكن فى الدور الأول فهل تقصد الدور الأرضى أم الذى فوقه .. كما وجد ايضا أن فى الدور الواحد اربع شقق ففى أيها تقيم يا ترى ؟ احتار ماذا يفعل واخذ يروح ويجىء فى الشارع بحذر ولكنه لم يشاهد حتى خيالها فعاد الى القاهرة ..

وبعد يومين جاء الى نفس الشارع .. ساعة الغروب وساعده الحظ اذ رآها تحرك مصراع الشرفة .. وتوارى سريعا حتى لا تراه .

وبعد ساعة عندما خفت الحركة فى الشارع وخيم الظلام .. ضغط على الجرس ..

وفتحت هى الباب .. ووقفت تحدق فى وجهه وتحاول أن تتذكر اين رأت هذا الوجه من قبل .. وقطع عليها خيط تفكيرها .. بأن قدم لها الكيس الصغير وهو يقول ..

ــ لقد نسيت هذا فى التاكسى .. ولى ايام وأنا أبحث عن المنزل ..

وتملكها سرور طاغ .

ــ شكرا .. شكرا .. تفضل ..

ــ آسف .. أنا مسافر اسكندرية اريد أن الحق إقطار ثمانية . فاتنى أوتوبيس الصحراوية .. بسبب الكيس .. فقد تذكرته فى آخر لحظة .

ــ طيب تفضل شوية .. أظن الوقت بدرى ..

ودخل ..

ورات السيدة « زبيدة » امامها شابا وسيما متوسط الطول ناحل الجسم .. ولاحظت أنه متأنق .. ويلبس نفس البذلة التى رأته مرتديها فى التاكسى..

وكان لا يزال ممسكا بيده حقيبة صغيرة .. حتى بعد ان جلس فى البهو .. ولكنه بعد قليل اراحها على البساط وقالت زبيدة بعذوبة :

ـ لقد كنت انا اذن السبب فى أن فاتك الأوتوبيس .. ؟

ـ الواقع اننى تذكرت الكيس .. قبل موعد السيارة بدقائق . وقلت لابد أن أوصله لك أولا ..

ـ كم اشكرك .. !

ـ هذا واجب ..

ـ عن اذنك دقيقة ..

ومشت « زبيدة » بنعومة الى الداخل ..

واخذ « حسين » يحدق فى كل ما حوله .. ولاحظ انها تسكن فى شقة صغيرة وانها وحدها فى هذه الساعة اذ لم يسمع فى الداخل سوى صوتها ..

وكان أثاث البيت كله بسيطا ولكنه جميل وعلى غاية من التنسيق والصور على الجدران تكاد تكون قليلة واستعيض عنها بزهور صناعية وقناديل مزركشة تشع من الأركان .

واسترسل معها فى الحديث وهى تقدم له الحلوى .. ونسى انه حدثها انه مسافر ويود أن يلحق آخر قطار .

وكانت « زبيدة » ترتدى جونلة وبلوزة سمراوين ولا يدرى اكان ذلك للحداد أم تمشيا مع آخر طراز فى الزى للنساء الشابات المتأنقات .

وكان السواد قد زادها تألقا وجمالا ..

وراى فى ساقيها نفس الجورب الشفاف الذى أسره وجعل قلبه يرتجف ..

كما شاهد وهى جالسة فى هدوء وضامة فخذيها دنتلة القميص التحتى .. وكان ازرق خفيفا والدانتلة تبدو فى عرض خمس بوصات .. وطرفها على الركبة التى بدت له بنعومتها وصفاء لونها لاعظم فيها .. وأهاجه المنظر .. ولكنه ضغط على نفسه وتماسك ..

* * *

ولرقتها وهدوئها .. كان يود لو يضمها .. ولكنه كان يرد نفسه ويتماسك .. كأن شيئا فى اعماقه يحدثه بانها تخاف وقع المفاجاة .

وطفق يتاملها فى سكون .. وشعر بالارتياح .. عندما لم يجد فى البيت اى دليل على وجود الرجل .. لا عصا .. ولا معطفا معلقا .. ولا اى شىء آخر يدل على وجوده ..

كان كل ما حوله نسائى .. فاستراح ولكن احساسه بانه امام انسان هادىء وجميل .. اعاد اليه التشتت الذى هبط عليه وهو يدور حول البيت قبل ان يدخل ..

وغابت قليلا ثم عادت تحمل صينية عليها الشاى والبسكويت وقربت منها الطاولة التى وضعت عليها الصينية ..

ورأته ينظر الى صورة امامه .. فنظرت حيث ينظر .. وقال :

ـ صورة جميلة ..

ـ اعجبتك .. ؟

ـ جدا ..



ـ من أين جئت بها .. ؟
ـ وجدتها عند بائع فى بدروم بشارع شريف واشتريتها بجنيهين ..
ـ رخيصة جدا ان فيها منظرا رائعا واظننى شاهدت مثله فى فيلم ..
ـ اى فيلم ؟
ـ آبرما الغانيـــــة غالبـــــــا .. اشاهدته .. ؟
ـ اجل .. وانه لجميل ..
ـ اجل .. جميل .. وطبيعى ..
ـ وهل اعجبتك شيرلى ماكلين ..أم الممثل .. الذى قام بدور البطولة ..؟
ـ اعجبت بالاثنين فى الواقع .. وقديكون الممثل اكثر .. !
وابتسمت « زبيدة » بنعومة .
واخـذت تصب الشاى .. وتأمل أناملها الدقيقة .. وهى عارية هــذه المرة .. الا من خاتم صغير .. كانت اليد نحيلة وجميلة واخذ وهو يتأملها يساوره شعور بالتوقف .. وانقطـع النور فجأة وتوقف عن الكلام وظل صامتا وقد ارجف قلبــــه لحظات حتى رآها تقول له :
ـ عن اذنك ساجيء بشمعة ..
وجاءت بالشمعة سريعا ..
وعلى ضـــوئها الخفيف بدت اكثر جمالا ..
وسألته بدماثة .. بعـد أن صبت الشاى فى الفنجانين ..
ـ يمكن تحبه باللبن .. ؟



ـ باللبن أحســن فى الواقـــع .. وشكرا ..
وغابت مرة اخرى ورقص قلبــه من الفرح .. اذ اخرج زجاجة صغيرة من جيبه وصب منها فى فنجانها .
وجاءت « زبيـــدة » بدورق اللبن وحركت الصينية والفنجانين سريعا دون أن يشعر بحركتها لتضع الدورق بينهما .. ثم قربت الطـــاولة أمامها واخذت تصب اللبن فى فنجانه . وقدمت له الفنجان .. واخذ يشرب ..
ولما رفعت الفنجان الى شفتيها حول وجهه عنها وسألته :

ـ حضرتك من اسكندرية ؟
ـ اجل ..
ـ ممكن تبحث لى عن شقة على البحر .. ؟
ـ حاضر .. فى اى حى ؟
ـ فى أسبورتنج لأنى أحب ان انزل محطة الرمل كثيرا ..
ـ هذا اختيار حسن فى الواقع ..
ونظرت اليه بدماثة ..
كانت الليلة باردة وأحس بعد الشاى بالدفء ..

وكان مذ دخل البيت وتأكد من أنها وحيدة .. يحاول أن يجد الحيلة ليبقى معها هذه الليلة .

وتعمد أن يتحدث عن ايرما الغانية ليجد وقع هذا الحديث على نفسها فلم يجد منها صدودا .

بل على العكس سرت به واستزادت منه ..

وسمع طرقا على الشقة المجاورة بعنف .. وادهشه ذلك فالحى هادىء جدا وساكن سكونا تاما وعاد الحى الى هدوئه كما خيم السكون وانقطع الطرق .. وتلاشى وقع أقدام نازلة السلم ..

وبدا له من احساسه وهو فى الداخل أن المطر لا يزال يتدفق بعنف وان الهواء يعصف فى الخارج .

وحملت « زبيدة » صينية الشاى وعادت بها الى المطبخ ..

واخذ يتفحص الشقة أبوابها وشبابيكها .. وقدر انها من مبانى الشركة وان ايجارها ولاشك رخيص .

وكان فى البهو رف عليه بعض المجلات المصورة وصحيفة يومية موضوعة بعناية على الصف الثانى من منضدة لها قاعدة .

ثم تماثيل صغيرة ودقيقة فى الاركان والزوايا .. ولوحة زيتية كبيرة واحدة.

وكان هناك باب يقود الى حجرة .. قدر انها حجرة النوم .. اذ كان على الباب ستار يتحرك بالجذب .. مثل ستار المسارح .. وسمع صوت شيء ينشى على النار ..

وراح يحدق فى البهو وقد ساورته النشوة .

ثم سمعها تدخل الحمام وسمع شد السيفون وتكة المـاء فى الصنبور .. ودخلت عليه بعد قليل وهى تحمل طبقا من الساندوتش وكانت قد غيرت ملابسها .. وارتدت قميصا فى لون العناب وفوقه « روب دى شامبر » احمر .. فى خطوط بنفسجية وكان شعرها الطويل قد أسدل وراء ظهرها ووجهها ظهر بعد ان اغتسل بالماء الساخن متوردا وأشد شيء فتنة .

وجلست « زبيدة » بجواره على كرسى صغير وهى تنظر الى عينيه وتناول يدها ولمسها بأطراف شفتيه وسحبتها برقة .

ـ مالك ؟
ـ لا شيء .. وانما العفو ..
وابتسم .. وظل فى مكانه ..
وتحركت فى الشقة كأنها تستوثق من انها اغلقت جميع النوافذ والأبواب بعد ان سمعت صوت المطر وزفيف الريح.. وخامره احساس غريب متسلط .. واخذت أفكاره تحوم ..

وعادت وجلست قبالته تنظر اليه باعجاب ..

وراح يتأملها وقد أفرجت ساقيها.. وانحنت قليلا الى الأمام كأنها تهم بتناول شيء .

فقال وهو يعرض حركة بارعة ..
ـ اكتبى لى عنوانك قبل أن ننسى .. واسمحى لى بأن أستأذن ..
ـ على فين ؟
ـ سأحاول أن اعثر على لوكاندة

هنا .. وفى الصباح .. سآخذ أول أوتوبيس صحراوى من ميدان الاسماعيلية ..

ـ لا توجد لوكاندات فى مصر الجديدة ..

ـ قط .. ؟

ـ لا توجد سوى هليوبوليس الصغيرة .. وهى مشغولة .. بطيارى شركات الطيران .. ولا احسبك ستجد غرفة خالية ..

ـ ما الذى اعمله لابد من البحث عن غرفة .. وقد اقضى الليل فى القاهرة ..؟!

ـ تفضل ونام هنا .. فالساعة قد تجاوزت التاسعة ..

ـ قد اضايقك .. وقد أسبب لك حرجا .. اذ ..

ـ اطمئن انا اعيش وحدى .. والخادمة فى اجازة العيد ..

واحس بالهناء ..

* * *

وقالت « زبيدة » برقة وهى تهيىء له الفراش :

ـ ليس لدى بيجامة رجالى ..

ـ لا تشغلى نفسك .. سأدبر الأمر لنفسى ..

وفرشت له مرتبة فى غرفة الجلوس .. الصغيرة ..

وكان جالسا على الكرسى يفك رباط حذائه .. وعندما جاءت بملاءة وبطانية وسقطت منها البطانية على الأرض فهم ليساعدها فى التقاطها .. فالتقت أيديهما ووجد نفسه يمسك بيدها ويشدها اليه .. وتدحرجت معه على المرتبة .

وانحنى فوقها وجعل شفتيه تشربان من رضابها .

واحس وهو يحتضنها بحالة توتر قاتلة وبشيء يمزق احشاءه . فابتعد عنها والعرق يتصبب على جبهته وسألته وقد أدركت حالته :

ـ مالك !

ـ لا شيء .. حالة تنتابنى ..

ـ استرح .. نم قليلا ..

واغلق عينيه واحس بأمعائه تتلوى وسكاكين تنهش فى بطنه لقد شرب السم الذى كان يود ان يسقيه لهذه السيدة بغلطة ارادها القدر .. السيدة التى كان يود موتها لأنها تشبه زوجته التى خانته منذ ثلاث سنوات وتحمل نفس العطر الذى اشتمه من زوجته عندما فاجأها بالخيانة .. فهربت منه ولم يستطع قتلها ثم اختفت الى الأبد .. وظل يطارد كل ما يشبهها من النساء .. حتى وجد هذه فأراد موتها ولكن تدخل القدر دون أن يدرى أو تدرى هى ما حدث عندما حركت الفنجانين بحركة خفيفة .. وهى تضع دورق اللبن .

* * *

بعد منتصف الليل أدركت السيدة « زبيدة » أنه مات .. وكتمت صرخة مجنونة خرجت من أعماقها .

وبحثت بحركة عصبية فى جيوبه فعرفت اسمه .. ووجدت الزجاجة الصغيرة التى صب منها السم .. الذى كان يود أن يسقيه لها .. دون سبب تعرفه .

قد يكون مجنونا .. ساقه القدر اليها فى ليلة عاصفة ولكن الله لطف بها .. وانجاها من شره ..

وجلست فى الفراش وهى ترتعش من الخوف .. ثم دفعتها غريزة البقاء الى أن تتحرك وتتحرك لتفعل شيئا .. قبل أن تلصق بها جريمة لم ترتكبها .

* * *

وذهبت الى الحمام واغتسلت واحست ببرودة الماء على وجهها فاستفاقت .

وكانت وهى تحت الصنبور .. تحس بما جرى اكثر واكثر .. وعجبت انها لا تزال تعيش فى بيت واحد مع الرجل الذى كان يود صرعها .. وانها على قيد خطوات منه .. ولا يزال جسده فى بيتها ..

وذهبت الى المطبخ فوجدته دافئا .. واشعلت « البوتاجاز » .. ووضعت غلاية على النار .

واخذت تحس .. وهى جالسة متيقظة فى المطبخ .. بحركة المدينة .. وسقوط المطر .. وكانت مواجهتها لذلك الغول الوحشى أكثر مما تحتمله أعصابها .. وبحثت فى صيدليتها الصغيرة عن حبوب مخدرة او منومة يمكن أن تخفف ألمها او وقع الأمر على نفسها أو تنسيها ما حدث ولكنها لم تعثر على شىء اطلاقا .. كيف تعرف المصير ..

من الصعب أن تعرفه .. واننا نعيش ولا ندرى الخيوط التى تحركنا فى الظلام .

* * *

راقبته والقلق يمزقها .. كانت تعرف أن العاصفة قد انقضت عليها .. وانه مات فى بيتها وتحت سقفها وفى فراشها.

كانت تحس الشر يزحف عليها كالثعبان الأسود فى عتمة الليل .. وكان الليل مبهما مهولا .

وزحفت يدها الى سترته .. وتحسست لحمه فانفتحت عيناها رعبا ..

كانت تريد أن تسحبه من فوق الفراش الى الأرض .. ولكنها تجمدت من الخوف ..

واخذت شفتاها ترتعشان وتصطكان باسنانها .. اغلقت مصباح النور .. وظلت سادرة فى قلب الظلمة .. ولكن عقلها الذى تصورته قد انشل ظل يعمل ..

فعادت واشعلت المصباح الجانبى .. وهداها تفكيرها بأن تتخلص من الرجل قبل أن يطلع النور ..

فاسرعت وجرت الميت من داخل الشقة حتى اوصلته الى الباب وقد اوتيت قوة كبيرة ساعدتها على ذلك ..

وكان سحبه على السلالم النازلة اسهل من سحبه على البلاط ولكنها خشيت من فتح الباب ..

ثم فتحته بحذر شديد وتطلعت فلم تر غير الظلام والسكون .

كان الخوف قد شد من عزمها .. فجرته من رجليه حتى أخرجته من الباب ..

ومع أنه كانت هناك أربع ابواب اخرى مشتركة مع بابها .. فى هذه البسطة .. ولكنها رأت أن تنزله .. الى البسطة التحتية ..

وبمشقة أنزلته وتركته .. تحت السلم فى مدخل البيت .. ليكون قاسما مشتركا بين السكان جميعا .

وعندما اغلقت عليها الباب .. تنبهت الى شىء سريعا .. ففتحت حقيبته الصغيرة .. واحرقت كل ما وجدته فيها على النار .

ولما خمدت النار .. ارتمت شاردة فى الصالة وبصرها معلق على باب الشقة الذى تربسته واغلقته بالمفتاح .. وكانت قد قررت الا تفتحه لطارق أبدا مهما كانت الاحوال » .

رغم كل شيء

مجموعة عبد القادر حميدة

نقد : يوسف الشاروني

تتكون هـــذه المجموعة القصصية من تسع قصص ، نستطيع أن نلمح بسهولة خصائص مشتركة بينها ، حتى لكانها مستمدة من تجربة واحدة اراد كاتبها أن يعبر عن جوانبها المختلفة أو أن يستوعبها ويسيطر عليها وهو يكتب القصة بعد القصة .

من هذه الخصائص ان اكثر القصص تقع احداثها فى قرية بالقرب من دمنهور ، واحيانا قليلة فى دمنهور نفسها ثم فى القاهرة كما فى قصة **((أقوى من الحب))** او فى الاسكندرية كما فى قصة **((رغم كل شيء))** . وفى القصص التى تقع أحداثهـــا فى القرية تبدو مدينة **دمنهور** كأنما هى الحلم أو المنقذ للعاطلين والبؤساء من أهل القرية، فهم دائما يشدون رحالهم نحوها عندما تضيق الامور فى وجوههم فى القريـة .

أما الخاصية الثانية المشتركة فهو الشكل القصصى ، فالقصص لا تبــدأ من بدايتها الزمنية ، بل من منتصفها ثم تعود ترتد الى زمن مضى لتستأنف تتبعنا لما جد من أحداث . فالبداية هى دائما نقطة بين الماضى والحاضر . فاغلب قصص المجموعة تبدأ بتعطل أصحابها عن العمل ثم ترتد الى الوراء لنعرف أسباب هذا التعطل ثم ما نلبث أن نستأنف تتبعنا لما جد من احداث او نتائج . ولعل الوظيفة الفنية التى يؤديها هذا الشكل ، هو انه يضع امامنا أولا أهم ما يريد الكاتب أن يكشف لنا عنه، فنحن نجابه بصلب الموضوع أولا ثم بأسبابه وأخيرا بنتائجه .

أما الشخصيات فيتشابه كثير منها ايضا ، بعضها يتشابه فى الاسم مثل **مبروك الشرقاوى ويوسف الدكرورى** فى قصتى **((سعدية))** و **((النـاس لبعضهم))** ومثل **((رشدى))** فى قصتى **((الليلة السابعة))** و **((حدث ليلتها))** ، وبعضهـا يتشـابه فى الوظيفة مثل وظيفة **ناظر الزراعة** فى قصتى **((سعدية))** و **((الناس لبعضهم))** ، واكثرهم يتشابهون فى التعطل عن العمل أو فيما يصيبهم من أمراض مثل الشلل . بل ان تكوين الأسرة فى أكثر القصص متشابه ، فصورة الأسرة التى تنطبع فى ذهن القارىء بعد الانتهاء من قراءة المجموعة عبارة عن أسرة عائلها مريض او مفقود ترك وراءه زوجة وابنا او اثنين احدهما كبير يمكن أن يحلّ محل والده والآخر صـغير ما يزال فى حاجة الى الرعاية .

لهذا كله يحس قارىء المجموعة أنها تصدر عن تجربة واحدة تعددت محاولات التعبير عنها . الا ان أهم الخصائص المشتركة لتلك القصص التى تضمها هـــذه المجموعة يدل عليها عنوانها **((رغم كل شيء))** والاهداء الذى جاء فيه **((الى كل بسمة**

تشرق على فم الانسان برغم كل شيء » فقصص المجموعة تدور حول صراع الانسان ضد ظروف تبدو اقوى منه ، ولكنه رغم هذا لا يستسلم بل انه احيانا ينتصر . وهي ظروف تمليها أسباب اجتماعية حينا وتلتحم فيها القدر بالمجتمع حينا آخر. فالموت أو المرض حدث من أحداث القدر ، ولكن ان يصيب الموت أو الشلل عائل الاسرة فان ذلك تترتب عليه نتائج اجتماعية بالنسبة لمن يعولهم . لهـذا فالموتى والمرضى في قصص هذه المجموعة هم دائما ممن تترتب على ما يصيبهم من كوارث ، كوارث أخرى لغيرهم .

في **القصة الاولى** قصة « **سعدية** » نجد **محمود** الزوج متعطلا عن العمـل لأن زوجه الحامل اشتهت ان يحضر لها جوافة من حديقة العمـدة التى كان يعمل بستنانيا بها ، فضبطه العمدة وطرده . لهذا فهو لم يجد اجر الداية عندما ولدت زوجته ابنته التى أطلق عليها اسم « سعدية » ويفكر في قتل العمدة لولا أنه يعرف من أسراره ما هو كفيل من أن يذله به . وعندما ضبطه يتسلل من الكشك الذي تنام فيه الخادمة « **ست أبوها** » تنفس من اعماقه ، فقد ضبطه متلبسا بسرقة أخطر من سرقة بعض ثمار الفاكهة لزوجته الحامل .

وفي قصة « **الليلة السابعة** » نجد أن الزوج لم يفقد عمله فحسب بل انه ما لبث أن فقد حياته ايضا في حادث أشبه ما يكون بالانتحار . لهذا فالقصة ـ بدلا من أن يتلقاها القارىء من زاوية الزوج المتعطل كما في القصة السابقة ـ فانه يتلقاها من زاوية ابنه الطفل رشدي وزوجته مسعودة .

وفي قصة « الأب » نجد الأب يصاب بالشلل فيتعطل وبالتالى يتعطل ابنه عن الدراسة ليبحث عن عمل ، ويقع عليه عبء اعالة والده المريض ووالدته واخيه الصغير ، حتى يجد عملا كخفير في مجلس ، وبالرغم من هذه الظروف يواصل دراسته حتى ينجح في التوجيهية ، ثم يلتحق بكلية الحقوق بينما يعمل في الوقت نفسه بمدرسة خاصة حتى تخرج وتزوج وأنجب . وعندما مات أبوه كان ابنه **هشام** يشب بأعوامه الخمسة يحاول أن يرى جده .. جيل يذهب وجيل يقبل وتيار الحياة مستمر .

وفي القصة « أقوى من الحب » نجد بطلها **محمود** تخطب له امه ـ بعد خلاف مرير مع أبيه ـ ابنة اخيها **سعاد** ، وهو ما يزال طالبا . وفجأة يصاب الأب بالشلل ـ كما في القصة السابقة فيتعطل عن عمله ويقع على كاهل الابن هنا ايضا عبء اعالة الاسرة . ويحاول ان يتخلص من خطيبته لأنه لا يحبها ولأن ما جـد عليه من ظروف لا يساعده على اتمام هذا الزواج ، لكنه لا يتخذ خطوة حاسمة ، ثم يتزوجها ويقع في هوى امرأة أخرى ، ورغم كل ذلك ما تلبث الألفة أن تتغلب في النهاية على نزوة الحب .

وفي قصة « حدث ليلتها » يتعطل الأب عن العمـل ، لكنه يتعطل هذه المرة لأنه كان يثير التلاميذ ضد **معاهدة صدقي ـ بيفن** فيلقى به في السجن ، وكان على الابن الاكبر أن يتولى اعالة امه واخيه الأصغر ، وكما أن الطفل في قصـة « **الليلة السابعة** » كان نائما فلم يشهد أباه وهو يودع امه ليترك القرية متجها الى **دمنهور** بحثا عن عمل ، حتى انه ظل ينتظره كل ليلة ولا يعرف أنه مات تحت عجلات

القطار ، كذلك فان الأخ الصغير فى قصة ((**حدث ليلتها**)) كان نائما أيضا فلم يشهد القاء القبض على ابيه ، ولكنه عرف من استاذ له بالمدرسة ما اخفاه عنه اخوه وامه .

وفى قصة ((**الناس لبعضهم**)) يتعطل الأب **هنا أيضا** لأنه طالب مالك الأرض التى يعمل ناظرا لزراعتها بزيادة أجره . ورغم أن زوجته كانت مريضة فى حاجة الى ثمن العلاج الا انها كانت تعارض فى أن يقبل زوجها ما يقدمه له الفلاحون من هدايا وهم فى حاجة اليها ، ولهذا طالب صاحب الأرض بزيادة أجره فطرده . وكأنمـــا اراد الفلاحون أن يردوا الجميل للزوجة التى تريد لزوجها الا يمس املاكهم ، فقاموا بمظاهرة طالبوا فيها بارجاع ناظر الزراعة الى عمله وتخفيض ايجاراتهم ، وعندما استجاب **الباشا** للمطلب الاول اكتفوا بذلك على أن يتم النظر فى المطلب الثـانى فيما بعد . وبعد مضى سنوات طوال تعطل الأب من جديد بشلل اصابه ثم ما لبث أن مات تاركا وراءه ــ كما رأينا فى أكثر من قصة ــ زوجة وابنا كبيرا وآخر صغيرا .

أما القصة الأخيرة التى اطلق عنوانها على المجموعة فالوالد فيها لا وجود له من بداية القصة ، والمريض هذه المرة هو الأم ، ومرض الأم يعرض ابنها لامتحان عسير ، فهى تحتاج الى دواء ثمنه ليس فى جيب ابنها ، ووظيفة ابنها تتيح له ان يرتشى اذا اراد ، لكنه رغم ظروفه ــ **برغم كل شىء** ــ يتغلب على نفسه وعلى ما يعرض له من اغراء .

ولعل أجمل قصص المجموعة قصة **أيام الحرب** ، وبالرغم مما يبدو للنظرة الاولى أنها تختلف فى موضوعها عن بقية القصص الا أن النظـــرة المستأنية ما تلبث أن تكشف الموضوع الواحد المشترك بينها وبين القصص الأخرى . فهى تتنـــاول علاقة عاطفية تمت فى سن مبكرة ثم وأدتها الظروف لتعود وتستيقظ من جديد بعد ثمانية عشر عاما . **وطبقا للشكل الذى ساد قصص المجموعة ، تبدأ القصة بالتقاء ممدوح بمحاسن صديقة طفولته فى روضة أطفال بالدقى بعد ثمانية عشر عاما من فراقهما ، ثم ما تلبث أن ترتد الى أيام الحرب العالمية الثانية حين هاجرت اسر من الاسكندرية الى دمنهور ومن بينهم الطفلة محاسن وامها ، أما الوالد فهو ــ كما فى قصص أخرى بالمجموعة ــ قد مات بسبب الحرب** . وتنمو علاقة عاطفية بين الفتى والفتاة غير ان الحرب ما تلبث ان تنتهى فتنقطع هذه العلاقة بعودة **محاسن** وامها الى **الأسكندرية** حيث تصاب **محاسن** بقنبلة من مخلفات الحرب لتطيح بذراعهـا اليمنى . وتعود الى الحاضر فيفاجأ كل منهما بأن الآخر قد اطلق اسمه على طفله ، **محاسن** أطلقت اسم **ممدوح** على طفلها **وممدوح** اطلق اسم **محاسن** على طفلته .

وتختتم القصة **ومحاسن** تصافحه بذراعها اليسرى وهى تقول ((**الا ترى ان هناك علاقة كبيرة بين الحرب والحب**)) كلاهما ينتهى لكنهما يتركان آثارهما علينـا .

وكان الكاتب يقول لنا أنه برغم هذه السنين ، برغم ان كلا منهما تزوج وأنجب ، برغم هذه الظروف فان الحب قد طبع آثاره على كل منهما ممثلة فى طفليهما كمـا طبعت الحرب آثارها على محاسن فبترت ذراعها اليمنى .

النظرة الميتة



للكاتب الفنلندى .. **مايكا فالترى**

ترجمة : سعد مكاوى

— ١ —

فى صالة البيت التى ينيرها ضوء حزين مجرد من الحياة ينفثه مصباح عار مدلى من السقف ، كانت على المائدة بقايا الطعام ، وعاء الحساء وسلة بها شرائح ثقيلة من الخبز وثلاثة اطباق ، عندما ظهر على العتبة ذلك الرجل المجهول عند غروب الشمس فى ذلك اليوم من الربيع .

كان واضحا انه جاء من بعيد ومشى طويلا حتى ثقلت ساقاه وهده الاعياء ، لم اجتاز القرية كلها قبل أن يصل الى البيت المنفرد فى قلب المزرعة ، والقى تحية المساء بصوت خافت وهو يكشف رأسه ويجفف جبينه ، وظل واقفا فى فتحة الباب وقبعته فى يده .

وكان فى الصالة الواسعة ثلاثة أشخاص ، رجل لم يتخط الشباب لكن له وجها مسترخيا وتحت عينيه اللتين تروغ نظرتهما جيوب زرقاء ، وكان يقرأ صحيفة فتحاها قليلا والقى نظرة خاطفة على الغريب ، ثم عادت نظرته الهاربة فثبتت على صحيفته ، وعجوز كان مشغولا باصلاح العقد الممزقة فى مصيدة السمك ، فقطع عمله وفحص الغريب دون أن يرد تحيته ، ودون أن يبين فى وجهه النحيل الهرم فضول ، وامرأة واقفة بين الموقد وسطل الماء الكبير ، وشعرها ممشط باهمال ومشدود الى الوراء بحيث يبدو وجهها عاريا غريبا كأنه قناع ، فرفعت عينيها بلونهما الأزرق البارد وتأملت الغريب فى هدوء وشمول ، وردت وحدها تحيته .

أنزل الغريب المجهول ربطته من فوق ظهره وجلس قرب الباب الى جانب الموقد ووضع ربطته وقبعته بين ساقيه ، ولم يقل كلمة .

واخيرا سأله الفلاح العجوز :

ـ هل جئت من بعيد ؟

والتقت به أنظار الثلاثة ، فقال :

ـ جئت أطلب عمل خادم فى المزرعة .

قذف الرجل العصبى بصحيفته فوق المائدة وتقلصت ملامحه وقال فى احتدام فظيع :

ـ لا حاجة بنا الى خادم !

نظر الغريب بازدراء مندهش الى الرجل الذى فقد كل سيطرة على نفسه ، ثم انزلقت نظرته نحو المرأة ، التى كانت رغم مرولتها القذرة شخصا خارقا للمألوف واصلب من أن تكون امرأة ، وقال موجها كلامه اليها هى :

ـ رأيت اعلانا فى الصحيفة .

فايدته باشارة من رأسها ولم تتغير النظرة الزرقاء الصلبة فى عينيها ، لكنها نظرت الى رجلها العصبى مجرد نظرة ، فاذا بوجهه يتقلص وبكتفيه تفوران وبفمه يسترخى من جديد ، الا الغضب المحتدم ظل مبرقا فى عينيه ، ثم لم يلبث هو أيضا أن انطفأ وخبا .

وسألت المرأة بصوتها الهادىء الحاسم :

ـ اذن فأنت قادم من بعيد ؟ .

تردد الغريب لحظة قبل أن يقول انه قادم من الشرق ، وأمام الحاح عينيهـا الهادئتين الباردتين أضاف اسم منطقة صناعية كبيرة ...

ـ هل تعشيت ؟

أجاب وهو يكذب دون أن ينظر نحوها بأنه ليس جائعـا ، فنهض الرجل العصبى بعد أن أشعل سيجارة وتقدم نحو الرجل المجهول الذى دخل بيته وفحصه من رأسه الى قـدمه وهو ينفث الدخان ، ثم سأله فى جفاء :

ـ وما الذى جاء بك الى هنا ؟

لم ينظر الغريب نحو الرجل وظل محدقا أمامه دون أن يجيب ، فاحتدم ذو الوجه الرخو المنفعل :

ـ على من يطلب عملا أن يرد عنـدما يوجه اليه سؤال ... والشهادات ... والشهادات ، معك شهادات ؟ نحن لا نأخذ فى هذه المزرعة أى متشرد يدق بابنا ! .

ونظرته المتعاليـة هى التى جعلت الغريب يحس فجأة كم هـو رث الثياب مخروق الحذاء وقـذر ، فانكسرت نظرته وهو يقول بصوت خفيض :

ـ عندى شهادتان .

وبحث فى صدوره دون أن يرفع رأسه حتى أخرج محفظـة من الجلد وتناول منها ورقتين مطبقتين واطرافهما متـآكلة ، فأخذهما صاحب المزرعة وفحصهما تحت المصـباح ، ثم قال فى مماحكة .

ـ بسـتانى ، ثم رئيس عمال فى مصنع ، والشهادتان قديمتان جدا ، أحدثهما تاريخها من ثمانى سـنوات ! ... أين كنت فى هـذه السنوات الأخيرة ؟

كان يتعثر فى الكلام من الانفعال ، واختفت الآن كل رخاوته وتحددت ملامحه وصار جبينه ذكيا ، فهو الآن صاحب الأرض الواثق من نفسه والشاعر بقيمته ، وزمجر فجأة :

ـ أولئك المتشردون !

فما أن قال ذلك حتى كان الفلاح الشيخ قد نهض واقفا فى تحفز ، ودنت المرأة أيضا من رجلها الهائج الذى بزغت عروق صدغيه وسال من ركنى فمه اللعاب ، وهو يدق الأرض بقدمه ويشوح بذراعيه قائلا فى صراخ عنيف :

ـ ان بيتى ليس ملجأ للمتشردين ! ... هل يتصور احـد انى لا أعرف كيف أقف على قدمى دون مساعد ؟! ..

ـ رويدك يا ألفريد !

قالتهـا المرأة بصوت خفيض لـكنه حاسم وواضح ، فقطعت بها كلام زوجها الذى تعثرت الكلمات فى حلقه وارتبك وزاغ بصره فى اتجاه كتلة الخشب الملتظية فى الموقـد ، ثم ركل الخشبة المشتعلة ، وأخذت ترتعد وجنتاه المكتنزتان وذقنه الضئيل ، ونظر الى امرأته فقرأ الغريب فى هذه النظرة بغضاء جملته يشيح ببصره لفرط عمقها ومرارتها ..

واندفع سيد المزرعة خارجا وصفق البـاب وراءه بضربة عنيفة ، فنزعت المرأة مرولتهـا وجلست الى المـائدة وعقـدت فوقها ذراعيها وقالت :

ـ نحن فى حاجة الى مساعد خبير بشئون الزراعة المختلفة وقادر أيضـا على أن يتولى وحده المزرعة ... وليس هنا غيرنا نحن الثلاثة ، فالعجوزيفعل ما يستطيع ، وهو ... زوجى ... يحاول أن يحمل نصيبه من العمل ، لكن على نحو غير منتظم ... عنـدما يستطيع ... كان مريضـا ... ولا هو ولا أنا كنـا فى الأصل مزارعين ، ولا نكاد الآن نقوى على الاحتفاظ بخادم حتى الخريف ، فاذا كنت فوق هذا حريصا على الأجر ، فانى أخشى ...

قال وقد ادرك الموقف بوضوح :

ـ يرضينى أن أنتظر حتى الخريف بأقـل ما تسمحين به ، ثم بعد ذلك نرى .

ألقى العجوز تحية المساء ثم جر قدميه الى الخارج ، وسدد الغريب نظرته فى عينى المرأة اللامعتين بالصلابة والحيطة ، فقالت له :

ـ لا أريد أن أرى شهاداتك ... ماذا تعنى الشهادات ! ... بالعمل وحده تعرف قيمـة المرء ... كما أنى لا يعنينى المكان الذى اشتغلت فيه فى العهد الأخير وسبب رحيلك عنه ... ان

هذا لا يعنى أحدا سواك ... يكفينى أنك قرأت اعلانى وجئت ..

وفى ركن المكان كان سرير قالت له انه سيكون مرقده حتى يشيع الدفء فى الليالى وعند ذاك ينتقل الى المخزن ، وانها ليست طباخة بارعة ، وان الطعام يشح فى المزرعة فى الربيع ، فليبق ان أرضاه كل هذا !

وفى سكون نهض المجهول وعلق قبعته فى المسمار وحمل ربطته الى جانب السرير ، فنهضت ربة البيت ووزنته بنظرتها وهى مترددة ، ثم انسحبت الى حجرتها .

وكان جالسا فوق طرف الفراش عندما عادت المرأة بعد قليل ، بعد أن كان قد نزع حذاءه الرطب الموحل ، فحملته المرأة قرب النار ، ثم وضعت فوق السرير بجانب الرجل ملابس نظيفة وهى تقول له :

ـ جرب هذه الملابس لعلها توافقك ، وتستطيع فى الصباح أن تأخذ حذاء من مدخل البيت ، فان هذا لم يعد يصلح للاستعمال ... وهنا فى الركن قرب الموقد ستضع ملابسك التى تحتاج الى الغسل .

والتقت نظرته الجادة بنظرتها الباردة ، فقال :

ـ اسمى التونن .

قالت قبل أن تتركه للنوم :

ـ مرحبا بك فى المزرعة يا ألتونن .

ــ ٢ ــ

الغريب الآن يتصرف فى المزرعة تصرف انسان يبحث فى زحمة العمل عن محو كامل لماضيه ، فهو يحصر نفسه فى حدود مهمته بلا فضول ، وهو رغم قربه بعيد ، وفى الوسع الاعتماد عليه دون أن يطالب هو بالثمن .

وقد تبين « ألتونن » من فوره سوء الحال فى المزرعة التى كانت تنزلق بسرعة نحو الخراب ، وعلم من الفلاح العجوز أو والد « ألفريد » كان سكيرا مدمنا ، وقد حاول أن يسرق خاتم الخطبة من اصبع امرأته المسجاة فى تابوتها ! ... وبعدها اختفى ولم يسمع عنه عنه أحد ... لكنه ترك لابنه دمه كما ترك له ميراثه .. ان « ألفريد » يتسول خمرة فى بعض الأحيان باستعطاف وذلة ، ويهيم طوال أيامه فى بحار الذهول ، وقد يبدو له ان يشارك فى شرف العمل ، فيبدأ فى حماسة ثم فجأة يتخلى عن كل شىء وينصرف الى هواجسه وأوهامه ورغبته المخبولة فى زوجته المسكينة التى ما كان أصعب حياتها وأقساها ، والتى تعمدت من يوم الى يوم ومن سنة الى سنة أن تهمل أنوثتها لكى تنفر منها زوجها المخبول الذى تحكمه وتروضه ، والتى تبارك فى الحقيقة كل لحظة تستطيع فيها أن تكون وحيدة وبعيدة عن ذلك الرخو المريض الذى يطاردها بصباباته وتوسلاته ووعوده الكاذبة ، زوجها ، لعنة حياتها ..

وكانت حجرة السيد المريض من داخل حجرة امرأته ، ففى ذات ليلة صحا « ألتونن » من نومه على محادثة بين الزوج والزوجة من خلال الباب الفاصل بين الحجرتين ، وكان الرجل بيديه يدق الباب وهو يسب ويتوسل ، والمرأة تكلمه من خلال الباب الموصد عليه ، ثم ارتفع صوت الفلاح العجوز هو الآخر وقبضته تضرب الحائط من الدهليز ، وهو يزعق فى ساكن الحجرة الداخلية :

ـ أتسكت أم أجيئك فأضربك ؟

وعند هذا التهديد هدأت ثائرة الرجل المحبوس ...

كانت المرأة تتعذب وهى تتصلب وتتشدد ، ولما كان خادمها الجديد القادم من بعيد هو أيضا قد عرف العذاب فى ماضيه الذى هرب منه ، فقد جاشت نفسه بالعطف عليها ، وصار العمل المضنى من أجلها لذة ...

وجاء يوم كسر الرجل المحبوس فيه الباب وسرب نقود زوجته وهرب ... اختفى أسبوعا كاملا ظلت المرأة خلاله عاملة لا تعرف الراحة ، وهى تحارب ضد ما بقى فى أنوثتها من عذوبة ومن ضعف ... وفى عينى « ألتونن » صارت جميلة فى كبريائها وارادتها وعذابها !

ثم جاء من القرية خبر يقول ان « ألفريد » هناك فى حالة سكر فظيعة ، فذهب اليه « ألتونن » والفلاح العجوز وضربا رفاقه السكارى ، وأخذ « ألفريد » نفسه يبكى من

الخوف وهو يرتعد واللعاب الغزير يسيل من فمه ، ولم يكف عن صراخه العصبى الا عندما ضربه عجوز المزرعة وراء أذنه بهراوته فأسقطه وهو يتلوى والزبد فى فمـــه ، وعادا به الى المزرعة فى موكب صامت ، فمشى بينهما وهو يتعثر ويبكى متهاقتا كلما دفعه العجوز الصارم ..

وفى البيت استقبلت المرأة رجلهـــا العائد بنظرتها البـــاردة الزرقاء ، نظرة ميتـــــة ، بلا رجاء ...

وعرف « التوتن » فى هذا الموقف أن صاحب المزرعة السكير كان قد قضى سنة فى المستشفى ، وأنه وزوجته كان لهما فى المدينة بيت جميل وحياة مترفة ، الى أن قال لها الأطباء ان حياة الريف أنسب لزوجها المختل الأعصاب ، فاشترت بما بقى من مالها هذه المزرعة ، منذ ثلاث سنوات ، هى التى لم تكن رأت فى حياتهـــا بقرة تحلب ... وحدها ، بلا معين ، كافحت ، وفى كل يوم كان حال زوجها يزداد سوءا ، وتزداد هى اصرارا على البقاء فى المزرعة التى صارت كل حياتها ...

وبعد حادث الهرب ـ ولم يكن هربه الاول ولا العاشر ـ تفاقمت حالته وصار كل همه من الحياة أن يغازل امرأته بتوسلاته المرتعدة الذليلة ، فهو يدنو منها زاحفا على ركبتيه وهو يستجدى ، ويظل أمامها ينهار وينهار حتى تضعف له ، ثم تخرج من عنده شبه مجنونة هى الأخرى ... هناك وراء الباب الموصد بالمفتاح يتحرك حيوانها الفظيع ويناديها ... يقرض الباب بأظافره ، ويتسول جسمها ... ذلك الصوت كان يوما ما عزيزا عليها ، وهو الآن يقتل ببطء كل ما هو انسانى وطيب فيهـــا .. صوت يكلمها هى وحدها ... وفى الليل تنهض وتأخذ المفتاح وتفتح الباب وتدخل .. وفى الظلمة تقبض على ذراعيها فى الحال يدان طريتان شرهتان ، أليسا زوجين أمام الله وأمام الناس ! .

فى الماضى كانت تفعل ذلك محاولة أن تخدع نفسها ، فهى تنتزع من ذلك الفم اللاهث وعودا وتأكيدا بحياة جديدة ، لكن كل وعد كان يخفى أكذوبة ، وكل عهد كان مجرد وسيلة لئيمة ... وعندما تحققت آخر الأمر أن ارادة زوجها مثل جسمه بلا عضلات ، رخوة مرتعدة خدعت نفسها أيضا وشاءت أن تعتقد ان وعوده وعهوده كانت على الأقل حقيقية وصادقة فى ساعة النطق بها ، كانت كلمات حب ، حب يناشـــدها أن تأمل وتغفر ... تصورت أن حنانها يمنحه شيئا من القوة ، من القـــدرة على العمل وعلى ترويض الذات ، لكن هذا أيضا لم يكن غير أكذوبة ولم يكن هدف كل ضراعة من ضراعاته الا اضعاف ارادتها وتحطيم مقاومتها واخضاع كيانها للوثات الســـمار المخمور ... وهى الآن ان دخلت على حيوانها دخلت شهيدة ، صماء وباردة ، بلا حركة ، بلا دمعـــة ، وبثمن جسمها المسلوب كانت تشترى للمزرعة أياما من سلام ظاهرى خادع ، ثم تعود الى حجرتها لتقسم لنفســـها أن تكون هذه هى آخر مرة ... كان ذلك هو كل الماضى ، أما الآن فهى تعرف أنه لن ينالها أبدا منذ اليوم ولن يشرب من كأســـــها غير مرارات الحقـــد والضغينة !

لم يعد فى نظرها مريضا تعسا ومسكينا وغير مسئول عن أفعاله ، هذا هو منطق حضارة المدن وابتذالها الذى تطبعه فى الروح ، حيث يقول الأطباء الكذابون ان القســوة والوضاعة والشر والزيف والكذب وعدم المسئولية هى أمراض أيضا ، ويبررون مثل حالة زوجهـــا بكلمات جوفاء .. يقولون كيان قابل بطبيعته للأمراض النفسانية .. ادمان ورائى ... كلمات خطيرة كانت فى الماضى تتسلل الى نفســـها الرحيمة فى جلال علمى ، أما الآن فهى امرأة جديدة ضاع منها حتى ايمانها بهذا الكلام الجميل !

انه وحش يلتهم الحيـــاة ويجردها من كل جمال !

والطبيعة كالقسوة فى معاملة مثل هذا الحيوان المخبول الذى عصف بحياتها وأفقدها حياة المدن دون أن يعوضها فى الريف شـــيئا يمتلىء به وجودها .. لقد ضاع هذا الرجل وانتهى !

وعليها ، وحدها ، أن تصنع المستقبل ...

— ٣ —

لأول مرة تكلما عن شىء غير العمـــل والأرض والحصـــاد ، وكانا قد بذرا البطاطس فى الأرض ثم تناولا الغداء عند حافة الغابة واستلقيا فى ظلها جنبا الى جنب يختلسان راحة ، فقالت صاحبة

المزرعة لأجيرها ان أباها كان خبازا غنيا فى المدينة ، وانها كانت وهى تلميذة فى المدينة تقرا الكتب وتؤمن بها ، وكانت تتنقل فى سيارة أبيها ، وتقيم حفلات استقبال ... وقال لها ان اسمه ليس « التونن » وانه ليس اعزب كما كذب عليها !

واحسا وهما يتكلمان انهما صارا قبضة واحدة فى وجه الدنيا ، هذه التي تصارع الأرض وهذا العامل الذى يأكل بسكينه ولا يستعمل المنديل ، والذى تغسل هى كل يوم اثنين قميصه القذر على حافة الجدول ..

واعترف واعترفت ، فهناك فى الشرق البعيد له امراة وطفل فى عامه السابع ، وهنا قصة موجعة عن ماضى هذه المسكينة ، وكيف ظهر « الفريد » فى حياتها وتزوجها وأثثا بمال أبيها بيتا جميلا ... لقد أخفت عنها أسرته أنه قضى فترة من شبابه فى مستشفى الأمراض العصبية ، أخفوا عنها ذلك كما لو كان عارا ... ولم تكن هى غير بنت حمقاء مزهوة ، فتاهت بالعريس عجبا وكانت تضحك من أفاعيله وهو سكران ، بل شربت معه هى ايضا ..

كشفت له كل الماضى وكل الجراح الدفينة وأزاحت له التراب عن الجمرات الملتهبة فى أعماق حياتها ، فعاد هو أيضا يكلمها عن بيته القديم القريب من المصنع الذى اشتغل فيه ثمانى سنوات ، وعن حديقة كانت للبيت وكان يرويها فى المساء بنفسه ... وكيف جاء يوم من الخريف الماضى أخذ فيه قبعته ورحل دون وداع ، تاركا المراة وابنها والماضى كله الى غير رجعة ..

قبضة واحدة ، قلب واحد ، لقد جاء بالبعث معه ، بعث الأرض بعد موتها وبعثها هى أيضا ، المراة المعذبة ، بنت المدينة التى جلست فى ماضيها الى موائد باهرة وتحت ثريات الكريستال وهى عارية الكتفين ! هى التى قرات كتبا ودخلت امتحانات وتعلمت علوما ! كانت تبعث جسدا وروحا وينحسر عنها تصلبها العصبى ويسترخى وجودها كله ويتمطى ، على حين تذوب مرارتها وكبرياؤها الصلبة وتلين ...

لكن ساكن الحجرة الداخلية الذى نسيته



او كادت لن يلبث ان يبرز لها وهو يقرض بأسنانه عقد أصابعه او يدفس قبضته فى فمه وهو يدنو منهما على حذر يريد أن يلمس جسمها ، وها هى ، الآن ، والريح الجديدة تضرب فى شراعها الذى كان مطويا ، تنفر منه نفورا صريحا وهى تصيح من كل كيانها المبعوث للحياة :

ــ لا تلمسنى !

تركها خائفا من هذه الصرخة الجديدة الصارمة وارتد مرتعدا الى جحره ..

وسمعت بكاءه فى وحدته ، فى القفص المحكم الذى يحبسونه فيه من الليل الى الليل كما لو كان حيوانا ..

هناك ، فى خياله المحموم المضطرب كان يلعن هذه المرأة الصلبة الارادة ويزعم لنفسه أنها هى التى افسدت حياته واضاعته لأنها لم تحبه ولم تعن به ولم تشجعه على النجاح ، ويتمثل فى محبسه مشهدا للذيذ الوقع فى نفسه ، يربط هو فيه يدى زوجته وراء ظهرها ويؤدبها ... وكانت هذه التصورات المهتاجة تعوضه عن عجزه فى الحقيقة ، وكأنها الشعرة الصغيرة التى لا تزال وحدها تربطه بعالم العقل .

وفى يوم من أيام الصيف دهش « التونن » عندما راى المرأة فى ثوب خفيف لطيف لم تلبس مثله منذ دخل بيتها ، بل كانت تبتسم ، لأول مرة منذ رآها !

وجلست الى جانبه على سلم المخزن تكلمه :

ـ لماذا هجرت بيتك وزوجتك ؟

كم عذبتها رغبتها فى معرفة الجواب عن هذا السؤال !

كانت تريد أن تجعل ماضى هذا الرجل أيضا ملكا لها ، حتى لا يعود يفصلها عنه شىء ينهض فجأة من الماضى ...

ارادت ان يتحرر أمامها من كل هذا الماضى ، فلما تكلم عرفت أن امراته كانت فاجرة تشترى من أى رجل آخر ما لا يستطيع زوجها أن يقدمه لها ، وتشترى بسهولة ... وكل شىء كان له عندها ثمن .. وخانته حتى فى بيته وهو نائم .. وكرهها وكرهته ... ثم عاد يوما من المصنع فوجدها متلبسة على أرضية المطبخ ، وعندما أوشك أن يفتك بها لطمته بأن الطفل ليس ابنه بل ابن رئيس عمال فى المصنع منحها المبلغ اللازم لزواجها من « ألتونن » التعس لتستتر به من كلام الناس ، وكان يجرى على الطفل نفقة شهرية طوال السنوات الثمانى التى عاشها هو فى غفلة ..

عندها لم يضرب ولم يقتل ولم يسأل شيئا ، بل نزع قبعتـه من المسمار ورحل .. صار مجهولا يبحث عن المجهول !

عرفت قصته كاملة وملكت ماضيه كما ملكت حاضره ، وصار له عندها معنى كبير عندما انقذها فى المساء من فتك زوجها الذى هاجمها بوحشية متلذذة عندما رأى الثوب الصيفى والذراعين العاريتين ، فتصدى له « ألتوين » وقاده من عنقه الى محبسه فدفعه فيه واغلق الباب عليه بالمفتاح ، وعاد الى المراة الجاثية على الأرض وهى تدعك ذراعها التى لواها المخبول ، وكان ثوبها قد انشق صدره حتى الحزام ، فتركت أجيرها يسندها بذراعيه وينهضها رائيا لمحنتها ويقودها فى رفق الى نسمة هواء ..

وفى الليل صحا المخبول من نومه على ضحكة لم يسمع فى حيـاته مثلها ، وأراد أن يخرج ليتبين سبب ضحكة المرأة ، لكنه وجد الباب مغلقا بالمفتاح كالعادة ، فركل الباب وهو يناديها فلم يسمع ردا ، فهى اذن ليست فى سريرها .. انها فى مكان آخر ، سعيدة تضحك !

وفى الصباح اختفى بعد أن سرق فى هذه المرة المبلغ البسيط الذى يملكه فلاح المزرعة العجوز الطيب ، وتصـيدته على طريق القرية جماعة من الجنود معها زجاجة ، فسقوه جرعات أخذوا بها كل ما معه من نقود ، ثم اشترطوا عليه عندما توسل فى طلب المزيد من الخمر أن يأكل روث الخيل ، ففعـل .. وعاد فى اليوم التالى دون أن يبحث عنه أحد ، وجسمه ملىء بالكدمات ..

لقد ضحكت امراته فى الليل !

— ٤ —

بشرت الأرض بمحصول طيب وتحرك فى بطن المراة جنين عمره شهران .

ولم يكن عسيرا على المخبول أن يفهم ، وبدأ يفكر فى الانتقام عندما عثر بالمصادفة على بندقية قديمة لم تستعمل منذ عهد بعيد ... أليس من حق الزوج اذا كان مريضا ، فحبسته زوجة لتستمتع خادمها ، أن يقتله وينال عطف الصحف والناس والقاضى ؟

لكنه امام الاقدام على فعل الايجابى كان ينكص ويرتعد ويجبن ......

ان صوت الرصاصة مخيف ! ...

وقد يفشل فى التصويب فيخرج هذا الرجل القوى ولا يصيب منه مقتلا ! ...

وانتهز يوما خروج « ألتونن » ببلطته للاحتطاب من الغابة واقبل يتمحك بامراته ، ولكنها فى هذه المرة لم تتردد فى ضربه على رأسه بكتلة من الخشب المعد للحرق فى المدفأة ، فسقط أمامها وظل ملقى على الأرض بلا حراك حتى صبت فوق رأسـه سطلا من الماء البارد ....

تنبه من غشيته ، ونظر اليها مليـا ، ثم رحف ....

وأخيرا اعتدل واقفا وهو يقذفها بنظرة سيئة معتكرة ، وانطلق خارجا ووجهه مطبوع بفرحة مخبولة ....

انطلق نحو الغابة ووضع فى البندقية خمس رصاصات ، وهداه الى مكان عدوه من الغابة صوت البلطة .....

وتقدم حتى صار على مسافة قريبة وراء ظهره ، ومن مكمنه وراء شجرة اجتهد فى التصويب ماوسعه أن يجتهد ، ثم انطلقت الرصاصة ....

والتفت « التونن » فى دهشة وبلطته لا تزال فى يده ، وصوت الطلقة يتردد صداه من صخرة الى صخرة ، فلمح فوهة البندقية والوجه الشاحب المتقلص خلفها ، ولم يفكر فى الهروب أو الاحتماء ، بل تقدم على مهل ببطلته نحو عدوه ، وقميصه الأبيض يلمع فى ضوء الخريف ...

ومرة أخرى ضغط حامل البندقية على الزناد ، فتفجرت على قميص حامل البلطة فى هذه المرة بقعة من الدم ، ثم تهاوى ، فاندفع الآخر نحوه وبندقيته فى يده ، وسد فمه الذى يئن بكعب حذائه ..

غاص الرأس فى الأرض الرخوة ، وانتفض الذراعان فى محاولة يائسة لانتزاع الحذاء من فمه ، ثم همدت الجثة فترك القاتل بندقيته تسقط من يده وسحب قدمه واستولت عليه رعدة عنيفة ..

وكانت المرأة فى البيت قد تحفزت لسماع صدى الطلقة الأولى الذى أقبل برنينه المتجاوب من فوق سطح المستنقع ، فلما سمعت الطلقة الثانية خرجت تعدو نحو الغابة وهى شاحبة شحوب الموت ، يتبعها عن بعد فلاحها العجوز الذى هد قواه الربو المزمن .. فالتقت المرأة بزوجها عائدا يثب على منحدر الصخور ، وتوقف لحظة كمن يفكر فى الفرار ، لكنها سألته :

ـ أين هو ؟

فأشار بيده الى ما وراءه ، وانطلقت المرأة دون أن تنظر اليه ، واذا به يتبعها كالمسحور دون أن يقوى على مقاومة اللذة التى أحدثتها فى نفسه مرارة اليأس الناطقة فى وجهها ، وما لبثت أن رأت وعرفت وانحنت واخذت الرأس الميت بين ذراعيها واليد الهامدة فى يدها ..

ورأت البلطة والبندقية فوق الأرض ، وبصوت هادىء سألت زوجها الذى كان يقترب وهو يجفف فمه بظهر يده :

ـ أأنت من فعل هذا ؟

وادهشه هذا الهدوء لكنه زايله حذره ودنا منها ومد وجهه المرتعد كمن يمعن التشفى فى تعبير الألم الذى سكن وجهها ، وقال بصوت ينفضه فرح وحشى :

ـ هو ذا ، الآن ، عشيقك !

أراحت المرأة الرأس الميت على الأرض وتناولت البلطة فى يدها ووزنتها فى هدوء كما لو كانت تتعرف الى ثقلها ، ووقفت ..

وجيشت فجأة كل قواها ورفعت البلطة فى ثقة باردة وأهوت بها على ذلك الوجه الشامت فسمعت تحطم الجمجمة الفظيع تحت الضربة ، وعندما هوى وأنفه الى الأرض ضربته مرة أخرى فى صدغه حتى تستوثق من موته ، وعلمت أنها ستندم طوال حياتها على أنها عندما ضربته فى الصباح بالخشبة لم تصرعه ..

ودون أن تلقى عليه نظرة انحنت وأخذت رأس قتيله فى حضنها ، وضمت مياه المستنقع جثة زوجها قبل أن تبعث فلاحها الشيخ الى القرية ليعلن فرار المجنون الخطر بعد أن قتل خادم المزرعة ..

وأراحت الرأس الميت فوق ركبتيها وانتظرت ، هائمة النظرة فى الأرض التى رواها دم حبيبها وكساها بالربيع المفجع ، لكن النظرة كانت فى هذه المرة ميتة .



بعد سنوات

بقلم: ثروت أباظة

في أوروبا الشقراء كان يسير مفتونا بسمرته وبعيونه السود وبقامته الفارعة . وفى سويسرا الباردة كان هو مفتونا بدمائه الفائرة الحارة . وكانت النساء يتهافتن على نظرة منه يعقبها موعد . واحس هو بقيمة نفسه فأصبح يختار فى دقة شديدة وفى بطء واثق مطمئن . الا واحدة لم تكن تحفل به فما انتظرت منه نظرة ولا موعدا . كانت امينة المكتبة فى كلية الحقوق . وكان لابد له ان يذهب كثيرا الى هذه المكتبة فمنها كان يعد الدكتوراه التى فارق مصر من اجلها . وكانت امينة المكتبة فتاة تكبره بعض الشيء ولكنها كانت فى زهرة الشباب الصارخ الأخاذ ، فى عينيها أنشودة حالمة وفى شفتيها قبلة نابضة ، كان يحس كلما نظر اليها انها عرفت الحياة وانها لم يسرها ما عرفته من الحياة فكان يريد أن يسالها ما بك ولكنه لم يكن يستطيع فقد كانت لا تكلمه الا فيما يتصل بما يطلب من كتب . واذا قال صباح الخير كانت اجابتها باهتة محايدة بلا اقبال أو تشجيع . فاذا اراد ان يجعل من موضوع كتاب طريقا له ان يقول شيئا وجدها بارعة فى وضع الجملة المناسبة لتقفل الموضوع نهائيا .

ويضيق بهذا الموقف منها ويوشك أن يعزم فى دخيلة نفسه أن يقطع ما بينه وبينها ولكنه لا يجد شيئا بينها وبينه حتى يقطعه . فتثور نفسه . انه يريد ان يكون بينه وبينها شيء أى شيء .. أيحبها لم يكن يدرى .. أيكرهها .. لعله .. أنه يضيق بأمرها لا شك فى ذلك . ويفكر فيها ويطيل التفكير . ويذهب كل يوم الى المكتبة فيلتقى بجمالها العربيد الصارخ وبهدوئها الذى جعلت منه سياجا من الثلج البارد الباهت . ويأخذ ما يريد من كتب أو يرد ما أخذ فلا حديث بينهما . ويخرج ثائرا لا يستطيع أن يجد لثورته منفرجا .

وفى يوم ذهب الى السينما . وكان وحيدا وفجأة وقعت عليها عيناه . انها هناك ومنذ وقعت عليها عيناه لم يرفعهما عنها . فما هى الا لحظات قلائل حتى مالت على الكرسى بجانبها ونظر الى الكرسى بجانبها فوجد طفلة صغيرة لم يصبر وانما اندفع خارجا من السينما واشترى اشياء للأطفال ، أشياء كثيرة. لم يكن يعى شيئا الا أن يشترى كثيرا بكل ما تتيح له النقود التى بجيبه أن يشترى .. شكولاته وعروس صغيرة تغمض عينيها وتفتحهما وتموء بكلمة ماما ، وقردا يقرع طبلته ويهز راسه .. و .. ونفدت النقود . وعاد الى السينما فوجدها قد أظلمت فقعد فى كرسيه ينتظر الاستراحة وهو لا يعى شيئا مما يرى .. ومر العرض امامه لحظات بطيئة .. بطيئة وهو يتقافز على كرسيه من فرط اللهفة . واضيئت الأنوار بعد لأى . وأمسك هو اللفافة وذهب الى الكرسى بجانب الفتاة الصغيرة وقعد وقال للطفلة :

ــ مساء الخير .

ونظرت اليه الطفلة ثم نظرت الى أمها وكانها تسألها ماذا أفعل فى هذا الغريب ونظرت اليه الأم وابتسمت وقالت وقد داخل صوتها بعض دفء .

ــ مساء الخير .

وكأنما احس ان الجليد يوشك ان يذوب فقال لها فى جد .

ــ يا سيدتى أنا أحيى هـذه الطفلة الجميلة واريدها هى أن تجيب .

ونظرت الفتاة الى ابنتها وابتسمت فابتسمت الطفلة ونظرت الى توفيق .

ــ مساء الخير .

وبدأ توفيق يضع يده فى اللفافة واخرج الشكولاته وقدمها اليها وعادت الطفلة تنظر الى أمها وأومأت الأم لابنتها أن تأخذ الهدية فأخذتها وهى تقول فى صوت طفل اشكرك .

ثم وضع يده فى اللفافة واخرج العروس ولم تنظر الفتاة الى امها وانما مدت يدها فى لهفة وهى تقول :

أعطه لى .

وقالت الأم وقد عاود صوتها البرود .

ــ لا .

وذهلت الفتاة ذهولا حزينا وسارع توفيق قائلا :

ــ وأنت كيف تعرفين انها ليست لها .. أتعتقدين اننى اشتريت هـذه العروس لى أم تراني اشتريتها لك أنت .

ورأى على وجهها مطالع ابتسامة ولكنها قالت :

ــ لا يجوز ان تأخذ اكثر مما اخذت

ــ وانت يا سيدتى ما شأنك .. اننى اقدم لصديقتى الجديدة الهدايا التى ارى من المناسب أن أقدمها وهى حرة ان تقبل ما تشاء أو ترفض ما تشاء .

ــ لا .

وقال توفيق فى جد .

ــ نسألها هى ..

ونظرت الأم الى ابنتها فوجدت اللهفة فى عينيها ولم ينتظر توفيق وانما قال للطفلة :

ــ هيه .. هل تقبلين هديتى .

واختطفت الطفلة عروسها واحتضنتها ونظرت الى أمها نظرة فيها هلع وفيها رجاء وفيها رغبة ورأت الأم فى عينى ابنتها كل هذه المعانى فلم تملك نفسها من ان تبتسم وتقول لها فى عطف .

ــ الا تقولين شكرا على الأقل .

ونظرت الطفلة الى توفيق وهى لا تكاد تصدق اذنيها وراحت تقول :

ــ شكرا .. ألف شكر .

وقال توفيق :

ــ جعبة الحاوى لم تفرغ بعد .

وقالت الأم :

ــ وماذا ايضا .

وقال توفيق .

ــ ياسيدتى ارجو الا تتدخلى فيما لا يعنيك .. هذا أمر بينى وبين هـذه الآنسة .

واخرج القرد من اللفافة . وانبهرت الطفلة ومدت يدها ولكن يدها توقفت فى منتصف الطريق ونظرت الى امها تلك النظرة التى تخلط الهلع بالرجاء بالرغبة وابتسمت الأم واختطفت الطفلة القرد وقالت الأم .

ــ هذا كثير .. كثير جدا .. أنت طيب غاية الطيبة .

ــ وانت لماذا لم تكونى طيبة ابدا ..؟

وضحكت وهى تقول :

ــ تقصد فى عملى .

ــ نعم .

ـ تصور لو أننى أصبحت طيبة مع جميع الشبان الذين يدخلون الى المكتبة.

ـ مع جميع الشبان ؟!

ـ كل شاب منهم يظن نفسه أجمل انسان فى الدنيا ويعتقد أن سحره لا يقاوم وانا لا أطيق الغرور .

ـ لعلك لا تطيقين الشبان .

ـ أبدا ولكن ..

وقبل أن تكمل جملتها أطفئت الأنوار وبدأ العرض وصمتت مادلين وصمت توفيق وراحت فيكى تهز العروس حينا وتداعب القرد حينا آخر وتأكل قطعة من الشكولاته فى حين قالت والأم تحس بالسعادة التى تغمر ابنتها .

وانتهى العرض وقال توفيق فى بساطة .

ـ كنت أحب أن أدعوك أنت وفيكى الى العشاء ولكننى انفقت كل نقودى على صديقتى .

وقالت مادلين :

ـ فأنا أدعوك الى العشاء .

ـ وأنا أقبل .

ـ فى منزلى .

ـ طبعا سأتعرف بزوجك .

وصمتت مادلين لحظات ثم قالت :

ـ وما البأس .

ـ لا بأس .

ـ اذن فهيا بنا .

ـ هيا بنا .

وذهب الى منزلها وتركته يلعب مع فيكى وراحت هى تعد العشاء ولم يطل غيابها فسرعان ما عادت وفى يدها أكل فيكى وأخذت فيكى الى سريرها ثم عادت بعد قليل تحمل الأطباق فقام توفيق يعاونها حتى اذا أعدت المائدة قالت له :

ـ والآن الى العشاء .

ـ ولكن الا ننتظر .

ـ تقصد زوجى .. ؟

ـ نعم .

ـ انه لن يأتى .

ـ هل أنت واثقة .

ـ كل الثقة .

ـ أمرك .

وجلسا وتناولا العشاء وقالت وهى تشعل سيجارة .

ـ أتدرى اننى أحببتك .

ـ لماذا .. الست واحدا من هؤلاء الشبان الذين تكرهين .

ـ لا .. لقد أحضرت لابنتى اللعب وجئت معى الى البيت وانت تظن اننى أعيش مع زوجى . فلم يدفعك الى ما فعلت الا طيبة حقيقية تملأ نفسك انى أحبك .

ـ الا تعيشين مع زوجك .. ؟

ـ افترقنا منذ فيكى فى المهد .

ـ يا له من غبى .

ـ كيف تعرف .

ـ أغبى انسان فى الدنيا .

واصبحت صداقة .. وقليلا ما دامت الصداقة فاذا هى حب .. حب عارم آخذ لا يبقى على شىء .. أحبها بكل دمائه وكل شبابه وكل أماله وكل احلامه .. أحبها كالشباب .. كالآمال .. كالرؤى .. كالنظرة الى الأيام الوردية فى حياة فتى غض نضير الأوقات . وأحبته .. وقال لها يوما .

ـ أتتزوجيننى .

ودون مهل من تفكير أو ريث متؤدة .

– قالت أحبك .

ونسى اباه وماذا هو فاعل ان عرف ، ونسى أمه ، ونسى اخاه ونسى اخته .. او هو قد تذكر هؤلاء جميعا ولكنه يحب .. شاب مخلص وفى تقى ملىء بالصراحة والشباب يحب .. قال لها :

– أنهى دراستى بعد شهرين .. بعد شهرين سأسافر وحدى واترك لك اشيائى هنا وبعد شهرين واسبوع ستجدين منى خطابا اليك ان تلحقى بى انت وفيكى وبعد شهرين وثمانية ايام نصبح زوجين .

ومر الشهران وعاد الى القاهرة .. وعاوده الأريج المصرى .. وكانما كان فى غيبوبة ثم أفاق .. ما مصير زوجته السويسرية هنا . وما مصيره هو معها .. سيعيشان فى غربة سيعتزلان مصر ويقيمان من بيتهما قطعة من سويسرا منفردة وحيدة لا هى مصرية ولا هى سويسرية وانما شىء شاذ فى غير موضعه لم لم يقل لأبيه شيئا ولم يقل شيئا لغير ابيه .. أفاق على اريج مصر وحدها .. وراحت الخطابات تترى من مادلين ومر الأسبوع والأسبوعان .. ثم مر الشهر والشهران والخطابات لا تنقطع وهو يجيب باملاء من عقله .. مكان جديد منه لم تعرفه مادلين فقد عرفته فى قلبه وفى مشاعره ولم تر عقله ابدا .. فهى تراه اليوم فى خطاباته .. ويمر العام وتصبح الخطابات منها وكانها الماء فى المجرى جف ماؤه بعد أن كان جياش الماء صاخبه . ثم تنقطع الخطابات ويجف النبع ويصبح حصى .

وتعرف توفيق بابنة عمه .. كانت فتاة جديدة عليه تركها وهى طفلة فى الثانية عشر ووجدها فتاة فى السابعة عشر .. ودون ان يتكلم خطبها ابوه ودون أن يتكلم وافق على الخطبة . الشىء الوحيد الذى فعله حين أخبره ابوه أنه خطب الهام انه قام الى درج مكتبه واخرج خطابات مادلين ومزقها جميعا واحس انه اصبح خالصا لزوجته بجميعه.. بماضيه وحاضره ومستقبله.

ومرت بهما الأعوام كما تمر بالأزواج السعداء .. قليل من العتاب وقليل من المفاضبة وقليل من الغيرة وقليل من المشاكل وقليل من الأطفال وقليل من المرح وقليل من الأنس وقليل من الاطمئنان وقليل من القلق .. ومرت الأعوام .

وفى يوم جلس الى مكتبه .. لقد مرت به سنوات طويلة لم ينظم الأوراق فيه.. أخرج الأوراق وراح يقلبها ويقلب معها سنين حياته .. ذكريات كثيرة تحملها اوراق مكتبه .. وفجأة وجد خطابا من مادلين ومعه صورة لها ولابنتها .. كان هذا الخطاب قد هرب منه واختفى يوم مزق اخوانه ..

قرأ توفيق الخطاب وحين انتهى منه ونظر الى الصورة وجد عينيه لاتستطيعان الانعام فيها .. كانت هناك دموع .. لعلها فيض من السنين يحول بينه وبين عينيه أن ينعما النظر .. مسح الدمعات ولم يستطع أن يمسح السنين . وعاد الى الخطاب ثم عاد الى الصورة .

وفى صمت طوى الخطاب فى عناية ووضع الصورة فى داخله وبحث عن ظرف وردى واودعه الخطاب والصورة ثم لم يقفل الظرف وانما وضعه فى حنان فى أعماق الدرج وترك الدرج خاليا الا منه .

شجرة الياسمين



بقلم

د. يوسف عزالدين عيسى

كانت احب الأزهار عندى أزهار الياسمين ؛ ولكننى كلما تنسمت الآن عبيرها غمرتنى موجة من الحزن والألم ورجعت بى الذكريات الى عدة سنوات خلت عندماكنا نسكن حدائق القبة بالقاهرة .

كان منزلنا ومنزل جيراننا تضمهماحديقة واحدة متسعة . وكنت أقضى سحابة يومى فى عملى وأعود فى المساءمتعبا ، فأستلقى على الفراش أقرا بعض الصحف ثم أنهض فأتناول عشاءخفيفا واعكف على المطالعة والكتابة حتى ساعة متأخرة من الليل ..

وكنت احيانا عندما امل القراءة ..أفتح نافذة حجرتى التى تطل على ظهر منزل الجيران فأستقبل عبيرامنعشا منبعثا من شجرة ياسمين صغيرة تحبو على حائط منزلهم ..وكنت لا أعلم عن هؤلاء الجيران اكثر من انهم عائلة صغيرة ، رجل وزوجه وطفل فى نحو الخامسة من عمره ، ولا أذكر اننى رايت الزوجة أكثر من مرة اومرتين .. واذكر جيدا أنها كانت فى مقتبل العمر .. نحيلة .. ذات وجه ترتاح العين لرؤياه .. وكان من عادة الزوج ان يرجع الى منزله متأخرا ..فكانت الزوجة تظل مع طفلها فى المنزل حتى اذا نام بقيت هى ساهرة الى ان يعود الزوج ..

وذات مساء عندما كنت مستغرقا فى القراءة سمعت الطفل يبكى بكاء شديدا وينادى امه ، فلم أعره اهتماما فى اول الأمر ، ولكن البكاء لم ينقطع ولم اسمع فى حياتى بكاء يفتت الأكباد كبكاء الطفل فى ذلك اليوم ..

فتحت النافذة وناديت الطفل وسالته ما الذى يبكيه .. فأجابنى وهو يجهش بالبكاء « أمى » فقلت له « مالها ؛ هل ضربتك ؟ » فقال : « كلا .. لقد ماتت ! » فأسرعت انا واخى واختى التى كانت تقيم معى فى ذلك الحين وذهبنا الى منزلهم .. وهناك فى ذلك المنزل رايت منظرا لن أنساه .. امراة جميلة فارقتها الحياة .. ملقاة على أرض الغرفة .. وعلى فمها شبه ابتسامة شاحبة .. وما كاد الطفل يرانى حتى القى بنفسه على وهو يبكى .. لقد توفيت تلك المراة فجاة بسكتة قلبية عاجلتها بينما كانت تداعب طفلها الصغير .. ولم يكن بالمنزل الا هى وهو .

ذهبت لاستدعاء الزوج من المقهى الذى اعتاد الجلوس فيه ، وتعجبت عندما وجدته يستقبل الخبر برباطة جاش غريبة ، وأسرع الى المنزل وقام بالاجراءات اللازمة فى مثل تلك الأحوال ...

وبعد أيام قلائل من ذلك الحادث ، بينما كنت اسير فى احد شوارع القاهرة المزدحمة صدمتنى سيارة كانت مندفعة بسرعة جنونية ، فلم اشعر الا وانا بالمستشفى بين يدى الطبيب واتضح ان العمود الفقرى قد اصيب واستغرق علاجى نحوا من ثلاثة اشهر نسيت من خلالها كل امور الدنيا ... وألهانى ما اصابنى عن التفكير فى اى امر آخر ... ومرت الأشهر الثلاثة بطيئة متثاقلة ، وخرجت من المستشفى فى نهايتها ضعيفا معتلا من أثر تلك الصدمة التى كدت أذهب ضحيتها .

وعندما رجعت الى المنزل كان أول شىء فعلته أن أسرعت آلى نافذة حجرتى افتحها لاستقبل عبير الياسمين وحانت منى التفاتة نحو نافذة منزل الجيران.

فوجدت امراة لم أرها من قبل تطل من نافذة غرفة الطفل ؛ فسالت أختى عن هذه المراة وهل هى ساكنة جديدة حلت محل العائلة الأولى التى كانت تسكن ذلك المنزل فأخبرتنى أختى أن العائلة باقية كما هى لم تغادر المنزل ، وان هذه زوجة جديدة لذلك الرجل الذى فقد زوجته منذ ثلاثة اشهر .. فتالمت عندما علمت ذلك .. وظللت مدة طويلة أتحاشى فتح النافذة التى تطل على منزلهم حتى لا اثير فى ذاكرتى حادث وفاة الزوجة الأولى ..

وعلمت فيما بعد أن تلك الزوجة الجديدة تقسو على الطفل المسكين وترهقه لأتفه الأسباب بعقوبات فوق طاقة سنه ، فكثيرا ما كانت تحبسه فى الحجرة وتترك المنزل هى وزوجها لنزهة طويلة او مشاهدة السينما ، واحيانا كانت تهمل اغلاق نافذة حجرته وهو نائم فى اقس ليالى الشتاء .. فتظل النافذة طول الليل تقذفه بسهام قتالة من البرد القارس ..

رجعت من عملى مبكرا فى احد الأيام وفتحت النافذة فرايت نافذة حجرة الطفل مفتوحة ورايت شجرة الياسمين قد امتدت حتى بلغت النافذة تقريبا ، وبعد قليل شاهدت الطفل مقبلا نحو



النافذة فتواريت حتى لا يرانى وظللت اراقبه خفية .. رأيت على وجهه أثرا واضحا للبكاء ، ثم وجدته يصعد على كرسى ويطل من النافذة ثم يضع رأسه بين يديه ويبكى بكاء حارا حتى ان الدموع كانت تتساقط من عينيه قطرات ..

وعند ذلك رأيت منظرا عجيبا ساظل طول حياتى لا ادرى له تفسيرا .. رأيت قطرة من دموعه تسقط فوق شجرة الياسمين ، فشاهدت الشجرة تنتفض كانها تجهش بالبكاء .. ورايت الياسمين يتساقط منها كما تتساقط الدموع ..

هل اهتزت الشجرة من تلقاء نفسها؟ او هزها ريح قوى فى تلك اللحظة ؟ لست أدرى .. !

ويبدو أن هذا المنظر قد استرعى انتباه الطفل كما جذب اهتمامى لأننى رايته يكف عن البكاء .. ويثبت بصره نحو الشجرة مشدوها .. ومنذ ذلك الحين نشأت بين الطفل وشجرة الياسمين الفة وشبه اتصال روحى ! فكان كلما تألم فزع الى شجرة الياسمين كانه يبثها شكواه .. فذات مرة عند عودتى من خارج المنزل وجدت الطفل جالسا

على أرض الحديقة عند جذع شجرة الياسمين ، وقد لف يديه حول الجذع ، واسند رأسه اليه وكان مستسلما لنوم عميق .. ذهبت نحوه وأيقظته فرأيت فى عينيه آثار الدمع ، فحاولت اقناعه بالذهاب الى المنزل فالشمس قوية والحر لا يطاق ، فلم يقتنع ، وظل جالسا بجوار جذع الشجرة .. لقد كان منظر الشجرة فى ذلك اليوم يحمل معنى غريبا من معانى العطف على ذلك الطفل .. ولكن كيف ظهر لى ذلك ؟ لست أدرى ولكنى شعرت بذلك شعورا قويا ..

ومرت ايام واشهر ، وذلك الاتصال العجيب متمكن بين الطفل وشجرة الياسمين الصغيرة ، فكان كلما مرض الطفل ذبلت أزهار الياسمين وتساقطت واصبح منظر الشجرة يحمل معنى الحزن العميق الذى يشعر به كل من ينظر اليها دون ان يعرف السبب .

واذا تحسنت صحة الطفل انتعشت الشجرة وازدهرت .. حتى انى بدون أن اشعر أصبحت أعرف حالة الطفل بالضبط بمجرد النظر الى شجرة الياسمين ، فان كانت منتعشة مزدهرة فهو فى حالة حسنة وان كانت ذابلة ، فهو فى حالة سيئة ..

وفى صباح أحد الأيام نظرت فاذا الشجرة ذابلة وازهارها منطوية على نفسها ومنكمشة ، فقلقت على صحة الطفل .. سألت عنه فعلمت انه مريض .. ذهبت الى منزله وكان ملازما فراشه ودرجة حرارته مرتفعة واخذ يهذى . وعندما رآنى نظر الى باكيا وقال شجرة الياسمين .. ثم أغمض عينيه ونام ..

وفى اليوم التالى نظرت الى الشجرة فرأيتها ما زالت ذابلة ، بل أكثر ذبولا منها بالأمس .. وهكذا ظلت الشجرة تذبل يوما بعد يوم وكذلك كانت صحة الطفل تسوء يوما فيوما ..

وأصبحت عادة عندى أن ابكر فى القيام واسرع نحو النافذة أفتحها لأرى شجرة الياسمين .. ولكن فى ذلك اليوم قمت كعادتى مبكرا وفتحت النافذة ونظرت فلم أجد أثرا لأزهار الياسمين ، بل كنت لا أجد اثرا لشجرة الياسمين نفسها ، فلقد تركت الشجرة الحائط الذى كانت قد تسلقته والتوت واصبحت كومة ذابلة ملتوية على نفسها وملقاة فوق جذع جاف !

شعرت بالحزن يغمرنى عندما شاهدت هذا المنظر وارسلت من يطمئننى على صحة الطفل فعاد يخبرنى أن الطفل قد فارق الحياة فى منتصف الثالثة صباحا .. فاحسست كأن يدا لطمت قلبى ..

ومنذ ذلك الحين لم أفتح نافذة حجرتى المطلة على منزلهم اذ خيل الى كأن رائحة الحزن والأسى تفوح من حطام شجرة الياسمين ، وتراءى هذا الحطام لعينى كأنه مقبرة موحشة ..

فقير

تأليف : جورج جسنج

ترجمة : أمين روفائيل



القصة القصيرة المنثورة لون حديث من ألـوان الأدب فى الانجليزية ، فهى فى صـيغتها الحاضرة من نتاج القرن التاسع عشر بشكل رئيسى . وقد أسهم فى تطويرها واحكام بنائها فى هذا القرن كتاب ممتازون ممن مارسوا القصـة الطويلة ، ومن هؤلاء جورج جسـنج ، كاتب هذه القصة . ويبرز بين موضوعاته فى قصصه وصف البيئة التى تعيش فيها الطبقات الفقيرة وصـفا واقعيا أليما ، والآثار الوخيمة التى يتركها الفقـر فى أخلاقها ، وما يعانى من عذاب وشـعور بخيبة الرجاء ذوو النفوس الحساسـة وأصحاب المواهب العقلية والفنية الذين يحيون غرباء فى ظروف اجتماعية قاسية تجافى ذوقهم وأهـدافهم ، وتقضى على طموحهم .

المترجم

في حجرة الاستقبال بعد العشاء تهاوت مسز تشارمان البادنة الطيبة النفس في كرسى ، وسألت وهى تتنهد :

« الى أى حد تحبين السيد تمبرلى ؟ » .

« لطيف جدا ، ولكنه غريب بعض الشيء » .

« أوه ، انه غريب ! غريب الأطوار حقا . أردت أن أتحدث اليك في شأنه قبل أن ننزل الدرج ، ولكن الوقت لم يتسع . انه صديق لنا منذ زمن طويل . كان هو وزوجى العزيز فى المدرسة معا ـ رفيقين فى هارو ، وهو من أكثر الناس رقة وحنانا ، وأخشى أن يكون أطيب من أن يعيش فى هذا العالم ، فهو ينظر الى كل شيء بعين الجد . ولن أنسى جزعه لموت زوجى المسكين ـ انى أتحدث الى مسز لورنج عن السيد تمبرلى يا أدا . »

خاطبت بهذه العبارة ابنتها المتزوجة ـ شابة هادئة لها وجه مسز تشارمان الوديع ، وان كان يظهر عليه ما يدل على ذكاء أوفر ـ تأمل رزين من نوع رفيع .

فلاحظت مسز وبر وهى تجيب : « يؤسفنى أن أراه أبعد ما يكون عن أن يبدو بخير » .

« كان دائما شاحب اللون كما تعلمين ، وحياته ... » ثم استأنفت تخاطب مسز لورنج : « ولكن ينبغى أن أخبرك أنه أعزب يعيش عيشة ناعمة وهل تصدقين ـ انه يقيم وحده فى حى من أحياء لندن البائسة . أى حى هو يا أدا ؟ »

« شارع فقير فى اسلنجتون . »

« نعم ، يعيش هناك ، وأخشى أن يكون ذلك فى مسكن زرى ـ ولابد أنه غير صحى ـ كى يلم بحياة الفقراء ويساعدهم . أليس هذا من أعمال البطولة ؟ ويظهر انه وقف حياته كلها على ذلك ، فلم يعد يراه أحد فى أى مكان . وأعتقد انه لا يرى الا فى بيتنا . حياة نبيلة ! وهو لا يتحدث فى ذلك أبدا ، وانى واثقة أن حديثه فى أثناء العشاء لم يكن فيه ما يبين لك عن هذا الأمر . »

فأجابت مسز لورنج فى عجب : « حقا ، فقد كان قليل الكلام الى حد بعيد ـ وقد أدركت أن أهم ما يشغله هو المصنوعات الخشبية والسياسة الخارجية . »

ضحكت مسز وبر : « ذلك هو الرجل ! لقد كان يصنع لى بمنشاره وأنا فتاة صغيرة ألوانا من الأشياء البديعة ، ولما شببت كان يلقى على دروسا فى التوازن الدولى . ومن المحتمل يا أمى أنه يكتب مقالات رئيسية لا تدرى من أمرها شيئا . »

« لا أستبعد شيئا على السيد تمبرلى يا عزيزتى . وأى تغير هذا بعد حياته فى الريف حيث كان له بيت جميل بالقرب من بيتنا فى باركشير ، ولا يسعنى الا أن أعتقد أن موت زوجى هو الذى حمله على ترك هذا البيت ، فقد كان شديد الكلف بالسيد تشارمان ! وبعد أن مات زوجى ، وتركنا باركشير لم نره قط ـ أوه ، خلال عامين . ثم التقيت به مصادفة فى لندن . وتعتقد اذا انه لابد أن هناك علاقة عاطفية كذبت رجاءه . »

فقاطعتها الابنة : « لست أنا التى قلت ذلك ، بل أنت يا أمى العزيزة . »

« أنا ؟ حسنا ، ربما ، فالمرء لا يستطيع الا أن يلحظ أنه عانى شيئا . وقد لا يعدو هذا رثاءه للفقراء الذين وهبهم حياته . رجل رائع ! »

ولما سمعت أصوات رجال عند باب حجرة الاستقبال ، راحت مسز لورنج تتفقد السيد الغريب الأطوار فى شغف . كان آخر من دخل ـ رجل أميل الى الطول ، ولكنه شديد الانحناء عند الكتفين ، نحيل غير رشيق ، يخطو فى غير

ثبات ، ويتسم مسلكه بالحياء . وكانت عيناه بلونهما الرمادى الحائل ، وتعبيرهما الشديد الوداعة ، تتجهان هنا وهنــاك من تحت جبهة طاطــأها فى اضطراب ، وعلى شفتيه ترقرقت ابتسامة يشيع فيها انكار الذات . بدأ شعره يسقط ويغشاه الشيب ، ولكن شــاربه كان كثيفا ، وكان لـكثافته اكثر ملاءمـة لملامح اشد صرامة . وبينما هو يدخل فى الحجــرة ـ او يسترق الخطى اليهــا ـ كانت يداه تنقبضان وتنبسطان على نحو يثير الضحك . وقد ميزه من جماعة الرجال شيء ليس هو الرثاثة تماما ، بل ما كان يعوزه من رونق وصقل . ويتبين من ينعم النظر أن سترته كانت من طراز مر عليه بعض السنين . كان قميصه نظيفا ، ولكنه لم يتحل بمجوهرات من اى نوع ، فلم يكن يرى سوى زر صغير أسود فى الصدر ، وزرين من صنفه البسيط فى الكمين .

اتخذ طريقه الى ركن ، وهناك ود لو انه قبع وحــده فى سلام وان يكن ذلك فى الظاهر ، ولكن سرعان ما انتقلت مسز وير الى مقعد بجانبه .

« آمل الا تبقى فى المدينـــة خلال اغسطس يا سيد تمبرلى ؟ » .

« لا ! ـ أوه لا ! اوه لا ، لا اعتقد ! » .

« ولكن يظهر انك لم تســتقر على رأى . معــــذرة اذا قلت انى واثقة انك فى حاجة الى التغيير . هل تدرى أنك حقـــا لا تبدو بخير . هلا استطيع اقناعك بأن تلقـــانا فى لوسيون . سيسر زوجى جدا ـ سيبتهج بالحديث اليــك فى شـــئون أوربة . أعطنــا أسبوعين ـ افعل ذلك ! » .

« انت العطف بعينه يا عزيزتى مسز وير ! وانى اشعر بأعمق العرفان ، ولست مستطيعا أن أعبر فى يسر عن شعورى بعظيم برك وودك . ولكنى فى الحقيقة أكاد أكون قد ارتبطت بأصدقاء آخرين . حقيقة ، اعتقد انه يمكننى القول بأنى فعلا .. نعم ، حقا ان الأمر كذلك . »

تكلم بصوت رفيع كصوت النــــاى ، وبنطق سليم يقارب نطق قسيس واهن ، وبابتسام كاد فى تعبيره يختلط بالدموع ، وهو يلف ويدور فى ارتباك بعباراته التى كانت تقصر شيئا فشيئا . وجعلت يداه الطويلتان النحيلتـــــان تعتصر احداهما الأخرى حتى أبيض ظهرهما .

« حسنا ، ما دمت تزمع ترك المدينة . ولكن اشد ما أخافه أن يغلبك ضميرك على امرك . وانت تعلم انك لن تنفع احدا اذا عرضت نفسك للعلة . »

« هذا جلى ! ـ ها ، ها ! ـ أؤكد لك أن هذه الحقيقة واضـــحة لى ، فللصحة الاعتبار الأول ، وليس ثمة ما يقلل من فائدة المرء اكثر من ... معتلة . اوه ، هذا أمر محقق ، أمر محقق ! » .

« هنـــاك ما يكلفك اشفاقك على الفقراء من ارهاق ، ولهذا تأثيره فى سلامة الجسم من غير شك . هذا بالاضافة الى جو غير صحى . »

« ولكن اسلنجتون ليست مكانا غير صحى يا عزيزتى مسز وير ! صـــدقينى ان فى الهواء خاصة تبعث القوة فى الجسم فى معظم الأحيان . ويجب أن تتذكرى أننا على مرتفع عال . ولسنا نود الا شيئا واحدا ـ نود لو أمكننا أن نخمد بعض الشيء ذلك الدخان الضار الذى يتصاعد من مداخن البيوت والمصانع ! ـ اوه ، أؤكد لك أن اسلنجتون فيها كل ما يعود على الصحة بالفائدة من مميزات طبيعية . »

وقبيل نهاية الأمســـــية عزفت بعض قطع الموسيقى التى لاح أن السيد تمبرلى استمتع بها

كثيرا ، فترك رأسه يميل الى الخلف ، محملقا الى فوق ، وظل فى هذا الوضع منتشيا بضع لحظات بعد أن توقفت الموسيقى ، ثم أفاق بزفرة آخر الأمر .

وعندما انصرف من المنزل ارتدى معطفا أشد ثقلا مما يتطلبه ذلك الفصل من فصول السنة ، ووضع فى جيبيه حـذاء السهرة . وبقبعة من اللبد الصلب ، عالية الوسـط ، بدأ يمشى ممسكا بمظلة مقفلة فى غير نظام مشية نشيطة كما لو كان متجها الى المحطـة المجاورة . ولكن المحطة لم تكن هدفه ، ولا السيارات العامة . فقد تابع سيره فى الليل العطر بخطوة ثابتة ، خطوة من اعتاد الرياضة مشيا على القدم ـ من نوتنج هل جيت الى ماربل آرش ، ومن ماربل آرش الى شارع اكسفورد الجديد ، ومن هناك اخترق شارع ثيوبولد الى بنتونفيل . واستمر مصعدا حتى بلغ مرتفعات حيـه الصحى . وبعد منتصف الليل بفترة غير قصيرة ، سلك حارة ضيقة تراءت فى ضوء القمر الشاحب لائقة ولكنها غير جـذابة . وبمفتاح معه دخل بيتا صغيرا انبعثت منه رائحة الغراء . أوقد ما تبقى من شمعة وجـدها فى جيبـه ، وصعد فى السلم مجموعتين من الدرج الى حجـرة نوم خلفيـة مساحتها ثمانى أقدام فى سبع ونصف ، وبعد انقضاء دقائق قليلة كان على فراشه وقد أخذه نوم عميق .



استيقظ فى الساعة الثامنة ـ وكان ينبئه بالزمن جرس يدق فى الحى ـ وارتدى ملابسه فى عجلة واضطراب ، ولما فتح باب الحجرة وجد على الأرض فى الخارج صينية عليها أقل قـدر من طعام الافطار : نصف زجاجـة من اللبن ، وخبز وزبد . وفى الساعة التاسعة هبط على السلم ، ونقر باب حجرة الجلوس الأمامية فى أدب ، فأذن له فى الدخول صوت خشن . كان بالحجرة رجل تقـدمت به السن وفتاة يؤديان عمل اليوم ، وهو تجليد الكتب .

قال السيد تمبرلى وهو يحنى رأسه : « سعدت صباحا يا سيدى . سعدت صباحا يا مس سجز . يوم صاف ! مشرق ! كم ينعش المرء مثل هذا اليوم ! » .

وقف يفرك يديه كما يفعل الانسان فى صباح يوم لاذع الصقيع ، وبايماءة جافة حياه المجلد ، معينا له من فوره عملا ، جعل السيد تمبرلى يباشره جادا مجتهدا ، فقد كان يتعلم أوليات الصناعة فى ذلك الفن ، وكان يعمل بصبر وبمظهر من أوتى بعض الميل الطبيعى خلال ساعات العمل فى أثناء النهار .

الى هذه الحال من الضيق انتهى تمبرلى ، ذلك السيد من أهل باركشير ، الذى عاش فى الماضى فى بحبوحة وظروف كريمة لا اسراف فيها ، من استثمار ماله استثمارا مأمون العواقب ، والذى تعلم فى هارو وتخرج فى كمبردج ، وظلت تشغله فكرة اختيار مهنة حتى بان له بوجه عام أن فرصة احتراف أية مهنة قد ضاعت . ولما لم يكن به من حاجة الى مثل هذا العناء أخلد الى حياة الكسل البرىء بالقرب من البيت الريفى الذى اتخذه مسكنا له صديقه السيد تشارمان ، أحد أصحاب النفوذ والثراء . واتجه تفكيره ، والسنين تمضى هادئة ، نحو الزواج مرة أو مرتين ، ولكن تهيبا عميقا حال بينه وبين الشروع فيه . وقد عرف آخر الأمر انه ولد لحياة العزوبة ، وبهذه الحياة قنع . وما كان أسعد حاله لو أنه تبين بمثل هذا الوضوح زيف ضروب أخرى من الاغراء ! ففى لحظة منحوسة استمع للسيد تشارمان الذى اعتاد أن يتحدث فى المضاربات والشركات والأرباح البراقة . ولم يغره هذا كله من أجل نفسه فقد كان لديه أكثر مما يكفيه ، ولكنه فكر فى أخته ، زوج محام اقليمى غير موفق ، وفى أبنائها الستة ، وسره أن يمد لهم يد العون ، كشأن الخال الغنى فى القصص ، حين يبدأون فى الدنيا حياتهم العملية . وثق بالسيد تشارمان ثقة لا يعرف الشك اليها سبيلا ، وكانت عاقبة ذلك أن وجد نفسه ذات صباح يرتجف على حافة الخراب . ثم تأكدت الأخبار ، وفقد ماله .

لم يدر من أمر هذا شيئا سوى السيد تشارمان ، وقد مرض بعد ذلك بأيام قلائل مرض الموت ، وكان نصيبه هينا من الخسارة التى أدت بصديقه الى كارثة فادحة . ولم يفه السيد تمبرلى بكلمة واحدة للأرملة ، وكذلك لم يقل كلمة واحدة لانسان غير المحامى الذى رتب شئونه فى هدوء ، والأخت التى أصبح على أبنائها ألا يعولوا على معونة خالهم . ثم اختفى فى غير ضجة ، فى أثناء غياب جيرانه الأصدقاء ، بعد موت السيد تشارمان .

حينئذ ناهز السيد الفقير الأربعين ، وقد بقى له مقدار من المال لم يجرؤ على انفاقه ، كان استثماره يغل له دخلا لا يكاد يكفل لعامل عيشة الكفاف . ولما كانت لندن المكان الوحيد الذى يستطيع أن يأوى اليه ، لأنها المكان الوحيد المأمون الذى يمكن أن يستتر فيه ، فقد انتقل اليها . ولم يتعلم من فوره فن مكافحة الهلاك جوعا بأقل الموارد . ففى الأيام الأولى لمحنته بلغ منه اليأس أقصاه ، بتأثير الجوع والهوان ، فتناسى شيئا من كبريائه ، وكتب لأحد معارفه يطلب النصيحة والمعونة بنفوذه . ولكن ما من أحد سوى رجل فى موقف السيد تمبرلى يعرف أن النصيحة الطيبة لا تجدى خيرا ، وأن النفوذ الاجتماعى لا يغنى فتيلا . فلو قد استجدى نقودا لتسلم صكا مقرونا بكلمات العطف لا محالة ، ولكنه كان يربأ عن ذلك بنفسه .

التمس الكسب من طريق تسلية كان يلهو بها فى الماضى وهى المصنوعات الخشبية ، واصاب بعض التوفيق ، فحصل على نصف جنيه فى ستة اشهر ، ولكن التطلع الى اضافة جنيه كل عام الى أرباحه الضئيلة لم يثلج صدره كثيرا .

كان يعيش طوال هذا الوقت بطبيعة الحال فى عزلة تامة ، فالفقر أعظم ما يعلم الاعتزال ، الا أن يكون المرء من طبقة نشأت فيه . فحين يجد رجل دقيق الحس أنه لم يعد كفئا لاقرانه الطبيعيين ، ينقطع لنفسه ، ويتبين فى شىء من العجب كيف أن الناس لا يترددون فى أن يغفلوا وجوده . وفى لنــــدن ، تلك البرية التى تغص بالزاهدين الذين يختــارون العزلة أو يضطرون اليها ، ما أكثر ما تبين السيد تمبرلى اخوانا فى الوحدة وهو يجول فى الشوارع والمتنزهات ، أو يقطع الوقت فى المتاحف ومعارض الصور التى لم يكلفه دخولها شيئا : فهم النظرة المسترقة التى لاقت نظرته ، وقرأ الوجه النحيل ، ولاحظ بادراك وعطف الزى الحسن الذى أبلاه الزمن . أولئك البشر المنزوون لا يتبادلون الأسرار ، وهم يودون لو قد تكلموا ، ولـكن كبرياءهم تفرض عليهم التنــائى ، فيمضى كل منهم فى صمت ، بلا صديق ، حتى يجــد نفسه ، اذا أسعده الحظ ، فى مستشفى أو ملجأ للفقراء . وحينئذ ينطلق اللسان من عقاله ، ويصب القلب المكلوم على العالم ما شاء من لوم .

حكمة غريبـة تلك التى يؤتاها رجل فى هذه الظروف . فهو يتعلم اقتصــادا يثير العجب ، ويعجز باعتزاز اذ يكتشف أخيرا أنه ما أقل المال الذى يحتاج اليه المرء ليقيم به أوده . ولو سئل السيد تمبرلى فى الأيام الخوالى لقرر أن عجز مرتب المعاش باقل من دخــــل معـــين أمر بديهى . ولكنه وجد أن الانسان يستطيع أن يحيا فى يومه بقروش زهيدة : عرف أسعار ما يتناول من مآكل ، وتعلم القيمـــة الغذائيــة فى ألوان الطعام ، وبان له وقد أصبح نباتيا برغم أنفه أن الغذاء النباتى نافع لصحته . وكثيرا ما ألقى على نفسه خطبا تفيض بالازدراء لعادات الجماهير من أكلة اللحم . اضطر الى الاقــلاع عن الخمر ، وتمنى أن يؤدى فى الحال شهادته على منصة فى جمع ينادى بالامتناع عنها . فى هــذا كله وجد الرضا ، ووجد تعويضا عن فقد كثير مما يؤدى به حق نفسه عليه .

وحدث ذات يوم وهو فى بنك انجلترا يتسلم ما بقى له من أرباح ضئيلة مثيرة للاشفاق ، تلك التى كان يقبضها كل ثلاثة أشـــهر ، أن رأته سيدة وعرفته : كانت ارملة السيد تشارمان .

« يا للعجب ! ماذا دهاك كل هــــذا الوقت يا سـيد تمبرلى ؟ لماذا لم تصل الى أية أخبار منك ؟ هل كنت حقا ، كما أنبأنى أحد الناس ، تعيش فى الخارج ؟ » .

ضاق صدره لهــذا أشد الضيق ، حتى أنه ردد بطريقة آليـــة آخر كلمة قالتها السيدة :

« فى الخارج » .

لم تتح له الوقت ليزيد على هذا ، فقد استمرت تقول : « ولكن لماذا لم تكتب لنا ؟ ما أقساك ؟ لماذا سافرت دون أن تقول كلمة ؟ تقول ابنتى اننا لابد أن تكون قد أسأنا اليك على نحو ما من حيث لا ندرى . فسر ذلك ! حقـــا لم يكن هناك ما — » .

« أنا وحدى الذى يستحق اللوم يا عزيزتى مسز تشــارمان . انى ... التفسير عسير ، لكثرة ما يكتنفه من تفصيلات . أتوسل اليك أن تفسرى سلوكى الذى لا مسوغ له على أنه — مجرد شذوذ . »

« آوه ، يجب أن تحضر لزيارتى . هل تعلم ان آدا قد تزوجت . نعم ، تزوجت منذ قرابة عام . وستبتهج جـدا برؤيتك ثانية ، فطالما تحدثت عنك . متى تستطيع أن تتعشى معنا ؟ غـدا ؟ » .

« هذا يسعدنى ـ يسعدنى جدا . »

« جميل ! »

اعطته عنوانها وافترقا .

لم ييأس السيد تمبرلى من استعادة مكانته فى عالمه الذى ولد فيه ، ودليل ذلك أنه احتفظ بعناية بحلة السهرة والحذاء اللامع الملائم لها . تلك الأشياء التى بدت له من أمارات الترف ، كثيرا ما راودته نفسه بصورة أليمة أن يبيعها . وقد ارتهن الحلة غير مرة نظير بضع شلنات قبيل آخر الأشهر الثلاثة بما كان يلقى فيها من حرمان ، ولكن فراقه لها ، وهى رمز العزة السامى ، كان يعنى اليأس ـ وهو حالة نفسية بعيـدة عن قدرته على التجلد السلبى . ذهبت مجوهراته ، حتى الساعة والسلسلة ، منـذ عهد بعيد ، فمثل وسائل الزينة هذه ليس مما لا يستغنى عنه سيد فى زيه . وقد اغتبط الآن لبعـد نظره لان لقاءه لمسز تشارمان سره بقدر ما بلبل خاطره . ملأ قلبه فرحا التطلع الى قضاء أمسية فى المجتمع ، فاسرع الى بيته ، وفحص حلة الحفلات فى شغف وتدقيق ، فلم يجد فيها عيبا جسيما . ومع ذلك كان لابد من شراء قميص وبنيقة ورباط للرقبة ، ولحسن الحظ كان لديه ما ينفقـه فى هـذا السبيل . ولـكن كيف يفسر سـلوكه ؟ هل يستطيع أن يعترف بمكان سكنه وبفقره المدقع ؟ لو فعـل لكان ذلك بمثابة استعطاف لأصدقائه القدماء ، ومن هذا انكمش مشمئزا ، فليس مما يطيقه رجل مهذب ان يكشف القناع عن ظروف قد تبعث الألم ، اذا كان فى وسعه أن يتجنب ذلك . هل كان عليه اذن ان يقول كذبا او ما ينطوى على الكذب ؟ فقول الصدق كله يتضمن توجيه اللوم لزوج مسز تشـارمان ـ وذلك ما لم يكن يحتمل التفكير فيه .

وفى مساء الغد كانت تلك المشكلة ما زالت تقلقه ، وقد وصل الى بيت مسز تشارمان دون أن يتخذ قرارا . وفى حجرة الاستقبال وجـد ثلاثة أشخاص ينتظرونه : المضيفة مع الابنة مسز وير ، وزوجها السيد وير . كادت دموعه تسيل لحرارة اللقاء ، واضطربت فى نفسـه مشاعر كثيرة أشد الاضطراب ، ففقد رشده ، وراح يخبط فى حديثه خبط عشـواء . وكانت نتيجة ذلك قصة غريبة كل الغرابة الى حد أنه ما رواها حتى ملكه الذهول من أمره .

جاءت تلك القصـة جوابا عن السؤال الطبيعى : أين كان مسكنه .

ابتسم ببلاهة وقال : « الآن اسكن حجرة للجلوس والنوم فى شارع صغير فى اسلنجتون . »

ساد الصمت بعد ذلك ، وتركزت عليه عيون دهشة ومن يدرى ماذا كان عساه أن يقول لولا تلك العيون ؟ على كل حال ..

« قلت يا مسز تشـارمان انه كان على أن أعترف بشذوذ فى أخلاقى ، وآمل الا يصدمك هذا . وجملة القول أنى وهبت نشاطى الضعيف للخدمة الاجتماعية ، فأنا أعيش بين الفقراء ، وكأنى واحد منهم ، لأحصـل على ما يستحيل الحصول عليه بطريقة أخرى من المعرفة .

فصاحت المضيفة : « أوه ، ما أنبلك ! » .

وخز السيد الفقير ضميره وخزا شديدا ، فانعقد لسانه . وقد انتقل أصدقاؤه بالحديث الى موضوع آخر كيلا يؤذوه فى شعوره ، ولم يعن لهم حينئذ أو بعد ذلك أن يرتابوا فى حقيقة ما قال . فقـد رأته مسز تشارمان يباشر أعماله



فى بنــك انجلترا ، وهو مكان لا يوحى بالفقر ، وفضلا عن ذلك عرف الرجل دائما بعض الشذوذ فى آرائه وسلوكه . وهكذا اقترف السيد تمبرلى خدعة غريبة ، وغشا يتعذر اكتشافه فى سهولة ، ولا يسيىء الا لمن اقترفه دون سواه .

مضى نحو العام منذ ذلك الوقت ، وقد لقى فيه السيد تمبرلى أصدقاءه بين حين وحين ، ولم يكن يعكر صفو استمتاعه القوى البــاعث على الاشفاق بصحبتهم الا ايسر اشارة الى اسلوب حياته . ولكنه وقد اصبح معروفا بانه اتخذ عمل الخير فى خفية مبدءا له ، كان يندر أن يعمد الى العودة الى الكذب . صحيح انه لم ينقطع عن الندم على أكذوبته الاولى ، فاكبر الظن ان مسز وير ، وهى امراة ثرية ، ربما هدته الى سبيل كريم يكسب منه رزقه . ومهما يكن من شيء فقد استقر رايه على ان يكون مجلدا للكتب ، وهى حرفة تلائم ذوقه . وقد واتته الشجاعة ذات يوم بعد ان أقام بضعة أشهر فى بيت مجلد الكتب ، فاتفق معه على أن يجزيه على تعليمه الحرفة بان يعمل له ، حين يحــذقها ، فترة دون اجر . وقد اقبل الآن على تلك المرحلة ، واحس بوجه عام انه اسعد حالا مما كان فى فترة الخمول بما كان يغشاها من خواطر حزينـة . وجعل يتطلع الى اليوم الذى تزداد فيه النقود قليلا فى جيبه ، ولا يعود يخاف ، خــلال آخر اسبوعين من كل ثلاثة اشهر ، تلك الليــالى التى كان يقضيها بغير عشاء .

كلفته دعوة مسز وير الى لوسيون الما ممضا . لوسيون ؟ حقا ان اعتباره الاجازات المتعة امرا طبيعيا ، كان فى حياة سابقة . تمثل كثيرا من أمكنة جميلة عرفها ، ومناظر طبيعية ساحرة كتلك التى ترى فى حلم ، وقد جعلتها الآن شوارع لندن تبدو نائيــة فى اقاصى الارض ، بعيدة عن عالم الحقيقة كل البعـد . وبدت له سنوات البؤس والشدة الثــلاث ، اطول من كل حياة القناعة الوادعة التى سبقتها . لوسـيرن ! لو ان رجلا اعنف مزاجا خطرت له فكرتها لجن جنونه ، ولكن السيد تمبرلى ظل يحنو عليها طوال النهار ، ولم يعبر عن مشــاعره باكثر من زفرة خافتة او ابتسامة مشوقة حزينة .

شعر بان واجبــه ، وقد تعشى فى الليلة السابقة عشاء طيبا ، ان ينفق اقل مما اعتاد فى وجبات يومه . وفى نحو الســاعة الثامنة من المساء ، بعد مشية فى الهواء استسلم خلالهـا للتامل ، مشية كان يثنى عليهــا اكبر الثناء ، دخل الحانوت الذى الف أن يشترى منه حاجاته

المتواضعة . ومن وراء الخوان أومأت له فى غير كلفة امرأة ممتلئة ، وشفتاها تنفرجان فى غضب لعميل آخر . انحنى السيد تمبرلى على عادته المهذبة ، ثم قال :

« اسدى الى معروفا باعطائى بيضة طازجة وخسة صغيرة غضة . »

فقالت المرأة : « واحدة فقط هذه الليلة ؟ » .

فاجاب وكأنه يتكلم فى حجرة استقبال : « أشكرك » ، واحدة فقط ، واغفرى لى اذا عبرت عن املى أن تكون بيضة وضعت حديثا بالمعنى الدقيق . فانه يخيل الى أن آخر بيضة دخلت هذا الصندوق خطأ ، وهى غلطة يمكن اغتفارها لزحمة العمل . »

فقالت صاحبة الحانوت الممتلئة : « ان البيض كله سواء ، ولسنا نتورط فى مثل هذا الخطأ . »

« آه ، سامحينى ! ربما تصورت . »

وضعت البيضة والخسة بعناية فى جعبة صغيرة كان يحملها ، وعاد الى بيته . وحين فرغ من وجبته بعد ساعة ، وجلس وقت الغروب مستغرقا فى التفكير على مقعد قائم الظهر ، سمع نقر على بابه ، وسلمت اليه رسالة . ارتعدت يده وهو يتفحص الغلاف ، فقلما كانت تصل اليه رسائل . وقد زاد من انفعاله أنه عند فض الغلاف كان أول ما رأى صكا . فتح الورقة المكتوبة ووجد أن مسز وير هى التى بعثت بها اليه ، وهذا نصها :

« عزيزى السيد تمبرلى – لم أطق بعد حديثنا فى المساء السابق الا أن افكر فيك وفى حياة التضحية الجميلة التى تحياها ، وقد وازنت بين ما قدر لهؤلاء الفقراء وبين حياتى التى لا يملك أحد الا ان يشعر بأنها ملأى بألوان المتاع ، وبأسباب السعادة التى لست جديرة بها . وبهذا التفكير أحس حافزا يدفعنى أن أرسل لك هبة صغيرة اسهم بها فى عملك الخير – أرسلها قربان شكر وأنا على وشك الرحيل لقضاء اجازة هانئة . تفضل بتقسيم النقود بين اثنين أو ثلاثة ممن يشكون أشد الحاجة بين من تتصدق عليهم ، أو أعطها كلها لشخص واحد اذا رأيت ذلك ملائما . وان أملى لوطيد أن نراك فى لوسيرن – وتقبل أطيب تمنياتى . »

كان الصك بخمسة جنيهات . رفعه السيد تمبرلى الى النافذة وانعم النظر فيه ، وبدت له الجنيهات الخمسة مقدارا ضخما من المال بالقياس الى مستواه الحاضر . تصور ما يستطيع المرء أن يصنع به ! لم يكن حذاؤه الذى اصلحه مرتين ليبقى لائقا للاستعمال طويلا . وقد بلغ سرواله آخر مرحلة يمكن أن يظهر به فيها . والقبعة التى يلبسها – وكم كان يتعهدها بالعناية ! – كانت هى بعينها التى أقبل بها منذ ثلاث سنوات الى لندن . حقا أنه كان فى حاجة الى ملابس جديدة من الرأس الى القدم . وفى اسلنجتون كانت خمسة جنيهات اكثر مما يحتاج الى انفاقه فى هذا السبيل . متى ، خبرنى أتوسل اليك ، يحتمل ان يكون فى حوزته مثل هذا المبلغ ليتصرف فيه كما يشاء ؟ .

تنهد تنهدا عميقا وحملق فى العتمة من حوله .

كان الصك من النوع الذى لا يصرف الا لصاحب رصيد فى مصرف ، وقد تبين السيد تمبرلى لأول مرة فى حياته أن مثل هذا الصك قد يكون مصدر متاعب كثيرة لمن يتسلمه . كيف كان له أن يصرفه ؟ عرف أن صاحب بيته رجل فظ موسوس ، وأيقن أن رفضه أداء هذا الصنيع له ، بتلك النظرة التى يعرف كيف يوجهها ، سيعرضه لشعور أليم بالهوان . لمن اذن يستطيع أن يلجأ ؟ لم يكن فى لندن أحد قط يستطيع ان يلجأ اليه .

مهما يكن من أمره ، فاول ما كان ينبغى أن يفعل هو أن يجيب عن رسالة مسز وير . أضاء مصباحه وجلس الى المنضدة البالية الصغيرة

المصنوعة من خشب الصنوبر ، ولكن قلمه انغمس فى المداد غير مرة قبل ان يجد نفسه قادرا على الكتابة .

« عزيزتى مسز وير » .

ثم طالت وقفته حتى بدا ان النوم قد غلبه . ثم انتفض وعاد فانحنى يؤدى عمله .

« انبئك بعرفان صادق للجميل بتسلم هبتك البارة الكريمة . النقود .. » ومرة اخرى توقفت يده بضع دقائق .

« ستستخدم وفقا لرغبتك . وسأقدم لك حسابا مفصلا للمنتفعين بها . »

لم يجد الانشاء بهذا العسر من قبل ، وأحس انه عبر عن أفكاره أسوأ تعبير ، وأن عقله كان ينوء تحت عبء ثقيل ، وأن انجاز الرسالة كلفه جهدا جسديا . وحين فرغ منها خرج واشترى طابع بريد من حانوت تبغ وأسقط الرسالة فى فى صندوق البريد .

كان حظه من النوم فى تلك الليلة قليلا . فعندما استلقى فى فراشه ، بدأ يتأمل أين يجد أولئك الفقراء الذين يحق لهم المشاركة فى هذا الاحسان . لم يعرف فى حقيقة الأمر تلك الطبقة التى دارت بخلد مسز وير . كانت كل الأسر من حوله فقيرة فى معنى من المعانى ؟ ولكنه تساءل أكان معنى الفقر عندها معناه عنده ؟ هل من الحق أن يدعى رجل أو امرأة فى ذلك الشارع القذر فقيرا اذا قورن هو به ... وقد رجح فيما تصور أنه كان فى ذلك الشارع الرجل الوحيد الذى يحس الفقر ويعانى منه .

استيقظ من نعاس مزعج بفكرة واضحة ـ ذكرى احس أنها تستبد بعقله : من الذى سبب سقطته من حياة الميسورين الكريمة ، وألوان البؤس التى طالما عاناها ؟ والد مسز وير . ومن وجهة النظر هذه ألا يمكن اعتبار صك الجنيهات الخمسة تعويضا عما لحقه من أذى ؟ الا يجوز له انفاقها فى قضاء حاجاته العاجلة دون سواه ؟

ثم أفضت اغفاءة قصيرة أخرى الى فكرة غريبة ثانية : لم لا تكون مسز وير ـ وهى امرأة حصيفة ـ قد شكت فى حقيقة أمره ، بل اكتشفتها ؟ لم لا تكون قد قصدت سرا ان تكون النقود له ؟ .

بددت طلائع النهار تلك الفكرة ، ولكنها قوت من جهة أخرى ما تذكر من أن السيد تشارمان كان فى حقيقة الأمر مدينا له . قفز من فراشه ليصل الى الصك ، وظل مستلقيا ساعة ممسكا به فى يده ، ثم نهض وبطريقة آلية ارتدى ملابسه .

ولما فرغ من عمل اليوم جعل يمشى مشيا هينا فى شارع به حوانيت كبيرة ، واسترعى انتباهه حانوت احذية ، فأطال الوقوف امام معروضاته ، يقلب فى جيبه جنيها كان جزءا غير يسير مما بقى له من مال للنهوض بأعباء العيش حتى يحل يوم الارباح . ثم تخطى العتبة .

لم يرتكب امرؤ حماقة اكبر من تلك الحماقة التى ارتكبها فى شراء زوج من الأحذية . تم شراؤه له فى حلم ، فكان يتكلم ولا يسمع ما يقول ، ويحملق فى الأشياء ولا يراها . وقد ترتب على ذلك أنه لم يتنبه الى أن الحذاء الجديد يؤلمه أشد الألم الا حين بلغ بيته يحمل تحت ابطه حذاءه القديم المريح . وكان يئن أيضا : يا للسماء ! ما كان أشد أزيزه ! لا شك أن ذلك من عيوب الأحذية الجديدة كلها . ولكنه نسى ، فهو لم يشتر حذاء منذ وقت طويل . وفى الحق انه كان مكدودا خائر القوى ، فأوى الى مضجعه بعد عشاء سريع ضئيل .

نشبت بينه وبين حذائه الجديد حرب طول الليـــل ، فبقـــدمين مجروحتين راح يظلع فى الشوارع فى مدينة أشباح ، بدا له فيها شخص يتربص به فى كل منعطف ، ولم يكن هـــذا العدو الذى استخفى كل مرة فى طريقـــه سوى مسز وير :كانت تنعم النظر فيهبعينين مزدريتين ، وتدعه يمر بها متعثرا . وكان أزيز الحذاء صوتا يتكلم ، صوتا يصرخ فى وجهه باسم مخيف . انكمش وارتعد وتأوه ، ولكنه واصل سيره ، لأنه يحمل فى يده ذلك الصك الصغير الذى طلب اليه ان يصرفه ، وما من احد يصرفه له . يا لها من ليلة ! .

ولما استيقظ كان عقله ثقيلا ثقل الرصاص ، واما تفكيره فكان واضحا كل الوضوح . ولكن ، خبرنى ، ما الذى عناه بذلك الجنون حين أنفق مالا لم يكن ليسعه انفـــاقه على زوج جديد ـ بغيض ـ من الأحذية ؟ كان يمكن ان يحتمل القديم على كل حال حتى أول الشتاء . ماذا دار فى رأسه حين دخل الحانوت ؟ هل قصد .. ؟ وارحمتاه ! .

لم يكن السـيد تمبرلى يتعمق فى دراسة النفس البشرية ، ولكنه رأى فى الحال بوضوح مخيف تلك الأزمة الأخلاقية التى كان يجتازها ، ولقد علمته حقيقة جديدة فى موضوع الفقر .

هبط فى السلم بعد الافطار مباشرة ، ونقر باب الحجرة التى كان يشغلها السيد سجز .

فسأل مجلد الكتب الذى كان يأكل شريحة اللحم الكبيرة الرابعـــة ، بفم ممتلىء :ـ « ما الأمر ؟ » .

« أرجو أن تأذن لى يا ســـيدى فى التغيب ساعة أو ساعتين هذا الصباح ، فان امرا ذا بال يتطلب أن أعنى به . »

فأجاب السـيد سجز بالكياسة الطبيعية فى طبقته : « أظنــك تستطيع أن تفعل ما تشاء ، ولكنى لن أدفع أجرا . »

انحنى السيد تمبرلى وانصرف .

انقضى يومان ، ثم أنشأ رسالة اخرى لمسز وير ، هذا ما ورد فيها :

« قسمت الآن النقود التى تفضلت بارسالها ، والتى انبـأتك بتسلمها . ولـكى استوثق من استخدامها استخداما سليما ، اعطيت الصك مقرونا باوامر واضحة لقسيس فى هذا الحى ، وقد تكرم بأن سجل فى الورقة المرافقـة مذكرة بالمنتفعين ، آمل أن ترضيك وتطيب بهـــا نفسك . »

ولعلك ستتساءلين لماذا لجأت الى قسيس ، ولماذا لم أفد من خبرتى واحظ بسرور مساعدة الفقراء الذين أهتم بأمرهم اهتماما شخصيا . أنا الذى وهبت حيـــاتى لرســالة الرحمة هذه ؟ .

الجواب بسـيط وواضح . لقـد كذبت عليك .

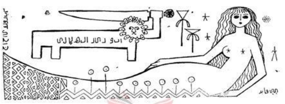
فأنا لا أقيم فى هـــذا المكان مختارا ، ولم أنصرف الى عمل الخير . فلست ـ لا ، لا ، لم أكن ـ الا سيدا فقيرا وجد يوما أنه فقد ماله فى مضـــاربة خرقاء ، وفى خجله أن يسر الى أصدقائه بذات نفسه ، توارى عن الأنظار ليحيا حيـــاة بائسة . ترين أنى أضفت العـار الى الكارثة . ولن أخبرك كم كنت قريبـا من فعل ما هو أسوأ .

وانى منذ حين أتعلم حرفة ستمكننى من غير شك ان أضيف شيئا الى مواردى الزهيدة ، وأصبح أحسن حالا مما كنت حتى الآن . أضرع اليك ان تغفرى لى اذا استطعت ، وأن تنسى منذ الآن .

من هو غير خليق بصداقتك
س . ف . تمبرلى .

مِن أقاصيص الأولين

عرض : د. محمد أحمد خلف الله



•• قالت جميلة : ـ حدثتنى بثينة ، وكانت صدوقة اللسان جميلة الوجه حسنة البيان عفيفة البطن والفرج .

قالت : ـ والله ما أرادنى جميل وحمشة الله عليه بريبة قط ، ولا حدثت أنا نفسى بذلك منه . وان الحى انتجعوا موضعا ، وانى لفى هودج لى أسير اذا أنا بهاتف ينشد أبياتا ، فلم أتمالك أن رسيت بنفسى وأهل الحى ينظرون ، فبقيت أطلب المنشد فلم أقف عليه ، فناديت : أيها الهاتف بشعر جميل ما وراءك منه ؟ وانا أحسبه قد مضى نحبه ومضى لسبيله ، فلم يجبنى مجيب ، فناديت ثلاثا ، وفى كل ذلك لا يرد على احد شيئا .

فقال صواحباتى : ـ اصابك يا بثينة طائف من الشيطان ؟ .

فقلت : ـ كلا ، لقد سمعت قائلا يقول .

قلن : ـ نحن معك ولم نسمع .

فرجعت فركبت مطيتى وانا حيرى والهة العقل كاسفة البال ، ثم سرنا . فلما كان فى الليل اذا ذلك الهاتف يهتف بشعر جميل . ذلك الشعر بعينه ، فرميت بنفسى وسعيت الى الصوت ، فلما قربت منه انقطع .

فقلت : ـ أيها الهاتف ، ارحم حيرتى وسكن عبرتى بخبر هذه الابيات ، فان لها شأنا ، فلم يرد على شيئا . فرجعت الى رحلى فركبت وسرت وانا ذاهبة العقل ، وفى كل ذلك لا يخبرنى صواحباتى انهن سمعن شيئا .

فلما كانت الليلة القابلة نزلنا واخذ الحى مضاجعهم ونامت كل عينى ، فاذا الهاتف يهتف بى ويقول : ـ

يا بثينة ، اقبلى الى انبئك عما تريدين .

فاقبلت نحو الصوت ، فاذا شيخ كأن من رجال الحى ، فسألته عن اسمه وبيته .

فقال : ــ دعى هذا وخذى فيما هو اهم عليك .

فقلت له : ــ وان هذا لما يهمنى .

قال : ــ اقنعى بما قلت لك .

قلت له : انت المنشد الابيات ؟ .

قال : نعم .

قلت : ــ فما خبر جميل ؟ .

قال : ــ نعم فارقته وقد قضى نحبه وصار الى حفرته رحمة الله عليه .

فصرخت صرخة آذنت منها الحى ، وسقطت لوجهى فأغمى على ، فكأن صوتى لم يسمعه أحد ، وبقيت سائر ليلتى ، ثم افقت عند طلوع الفجر وأهلى يطلبوننى فلا يقفون على موضعى ، ورفعت صوتى بالعويل والبكاء ورجعت الى مكانى .

فقال لى اهلى : ــ ما خبرك ، وما شأنك ؟

فقصصت عليهم القصة .

فقالوا : ــ يرحم الله جميلا .

واجتمع نساء الحى وانشدتهن الابيات فأسعدننى بالبكاء ، فأقمن كذلك لا يفارقننى ثلاثا ، وتخزن الرجال أيضا وبكوا ورثوه وقالوا كلهم : يرحمه الله فانه كان عفيفا صدوقا .

فلم اكتحل بعده بالمد ، ولا فرقت رأسى بمشط ، ولا دهنته الا من صداع خفت على بصرى منه ، ولا لبست خمارا مصبوغا ولا ازارا ، ولا ازال ابكيه الى الممات .

•• لما بلغ الوليد بن يزيد بن عبد الملك أن ابن عمه يزيد بن الوليد بن عبد الملك قد أوغر عليه الصدور ، وشرد عنه القلوب ، ونازعه رداء ملكه ساعيا فى هلكه ، استوحش من بطانته واحتجب من سماره .

وفى عشية من عشايا وحشته دعا خادما له ، وقال له : ــ

انطلق متنكرا فقف ببعض الطرق وتأمل من يمر بك من الناس ، فاذا رأيت كهلا رث الهيئة والملبس يمشى مشيا هونا وهو مطرق فسلم عليه ، وقل فى اذنه : ان امير المؤمنين يدعوك . فان أسرع الاجابة فأتنى به ، وان تلكأ او عارض واستراب قدعه واطلب غيره حتى تأتينى برجل على هذا الشرط الذى ذكرت لك .

فانطلق الخادم فأتاه برجل تنطبق عليه جميع هذه الشروط . فلما دخل الكهل على الوليد ابن يزيد حياه بتحية الخلافة وقام ، فأمره الوليد بالدنو والجلوس ، وامهله الى أن ذهبت روعته وسكن جأشه ثم اقبل عليه فقال له : ــ

أتحسن مسامرة الخلفاء ؟ .

فقال الكهل : ـ نعم أحسنها يا أمير المؤمنين .

فقال له الوليد : ـ ان كنت تحسن المسامرة فأخبرنا عنها ما هى ؟ .

فقال الكهل : ـ المسامرة أخبار لمنصت ، وانصات لمخبر ، ومفاوضة فيما يعجب ويليق .

فقال له الوليد : ـ أحسنت أيها الرجل لا أزيدك امتحانا ، فقل ننصت لقولك .

فقال الكهل : ـ يا أمير المؤمنين . ان المسامرة صنفان لا ثالث لهما . أحدهما اخبار بما يوافق خبرا مسموعا ، والثانى اخبار بما يوافق خبرا مقترحا . وانى لم أسمع بحضرة أمير المؤمنين حديثا فأحذوا على مثاله ، ولا اقترح على أمير المؤمنين سلوك طريقة فأنحو نحوها والزم أسلوبها .

فقال له الوليد : ـ صدقت وها نحن نقترح عليك ونرسم لك رسما لتقتفيه . انا قد بلغنا ان رجلا من رعيتنـــا سعى فيما يصم ملكنا فأثر سعيه وشق ذلك علينا وبلغ منا ، فهل نمى ذلك الى علمـــك ؟ .

فقال الكهل : نعم .

فقال الوليـــد : ـ قل الآن على حسب ما نمى اليـــك منـــه ، وعلى حسب ما ترضى من من التدبير فيــه .

فقال الكهل : ـ يا أمير المؤمنين انه بلغنى أن أمير المؤمنين عبـــد الملك بن مروان لما ندب الناس لقتال عبد الله بن الزبير ، وخرج بهم متوجهـا الى مكة حرسها الله تعالى ، استصحب عمرو بن سعيد ابن العاص وكان عمرو بن سعيد قد انطوى على دغل نية ، وفساد طوية ، وطماعية فى نيل الخلافة . وكان أمير المؤمنين عبـــد الملك بن مروان قد فطن لذلك الا انه كان يبقى عليـــه لتأكد حرمتـــه وأواصر رحمـــه .

فلما فصل أمير المؤمنين عن دمشق وسار عنها أياما واستمر به السير ، تمارض عمرو بن سعيد واستأذن أمير المؤمنين عبد الملك فى العود الى دمشق فأذن له .

فلما دخل عمرو بن ســـعيد دمشق صعد المنبر فخطب النـــاس خطبة نال فيها من الخليفـــة ودعا النـــاس الى خلعه ، فأجابوه الى ذلك وبايعوه ، فاستولى على دمشق وحصن سورها وحمى عورتها وسد ثغورها وبذل الرغائب .

بلغ ذلك عبد الملك بن مروان وهو متوجه الى ابن الزبير ، وبلغـــه مع ذلك أن والى حمص قد نزع يده من الطاعة ، وأن الثغور قد تشوفوا للخلاف عليه ، فخرج على وزرائه وبيده مخصرة يضرب بها عطفه ، فأطلعهم على ما بلغه وقال لهم : ـ

هـــذه دمشق دار ملكنا قد استولى عليها عمرو بن سعيد . وهذا عبد الله بن الزبير قد استولى على الحجاز والعراق ومصر واليمن وخراسان . وهذا النعمان بن بشير أمير حمص ، وزفر بن الحارث أمير نسرين ، ونائل بن قيس أمير فلسطين ، قد نزعوا أيديهم من الطاعة وبايعوا الناس لابن الزبير ، وقد تشوف أهل الثغور للخلاف . وهذه المضربة سيوفها على عواتقها تطالبنا بقتلى المرج .

فلما سمع وزراؤه مقالته ذهلت عقولهم وعلموا ان لا مفر فنكسوا رؤوسهم ولم ينطقوا .

فقال لهم عبد الملك : ـ لم لا تنطقون ؟ أحضروا غناءكم فهذا وقت الحاجة اليكم .

فقال له أفضلهم : ـ أى غنـاء عندنا فى هذا . وددت والله أنى كنت حرباء على عود من أشجار تهامه حتى تنقضى هذه الفتن .

قال الكهل : ــ فلما سمع عبد الملك مقالة صاحبه علم ان لا غنى عند وزرائه ، فقام عنهم ، وامرهم بلزوم موضعهم ، وركب من فوره منفردا ، وامر جماعة كثيفة من شجعان قومه وفرسانهم ان يركبوا فى السلاح ويتبعوه ميتعدين منه بحيث يرون اشارته ان اشار لهم .

سار عبد الملك واتبعه القوم على ما رسم لهم ، فلم يزل سائرا حتى انتهى الى شيخ كبير السن ضعيف الجسم سيىء الحال وهو يجمع السماق . فسلم عليه عبد الملك وآنسه بحديث خفيف ثم قال له : ــ

ايها الشيخ . الك علم بمنزل هذا العسكر ؟ .

فقال الشيخ : ــ بلغنى انهم نزلوا بموضع كذا .

فقال عبد الملك : ــ هل سمعت شيئا مما يقول الناس فى أمره ؟ .

فقال الشيخ : ــ ما سؤالك عنه ؟ .

فقال عبد الملك : ــ انى أردت اللحاق به والدخول فى أصحابه والتعرض للحظوة عنده .

فقال الشيخ : ــ انى أراك اريبا وضيا ، وأحسبك حسيبا سريا ، فهل تحب ان أنصح لك فيما أنت قاصده ؟ .

فقال عبد الملك : ــ ما أحوجنى الى ما تقول .

فقال الشيخ : ــ انه ينبغى لك ان تصرف نفسك عن هذا الأمر الذى ترغب اليه فان الامير الذى انت قاصده قد انحلت عرى ملكه وتابذه أتباعه واضطربت أموره ، وان السلطان فى حال اضطراب اموره كالبحر فى حال هيجانه لا ينبغى أن يقرب .

فقال عبد الملك : ــ ايها الشيخ . ان الحنكة لم تبلغ بى مغالبة نفسى فى كل ما ترغب اليه ، وانى اجدها تنزع الى صحبة هذا الأمير نزاعا شديدا ، ولابد لى من ذلك ، فهل لك أن تحسن الى فتخبرنى بما تراه من الراى لهذا الأمير فى تدبير هذه الخطوب التى دهمته لاعرض ذلك الراى عليه ، وانفق به عنده ، فلعله أن يكون سببا لقربى منه .

فقال الشيخ : ان حكمة الله وعزته ليقضيان بحجب العقول والآراء عن النفوذ فى بعض النوازل التى لا تنفذ فيها العقول ولا يهتدى الى صواب تدبيرها الراى ، وانى اكره ان ارد مسألتك بالخيبة فها انا اقول فيما سألتنى قولا اقضى به حق رغبتك وان كنت لا اثق بنفسى فيه لأن الخطب عظيم جدا ، والخطر فيه يضاهى عظمه .

فقال له عبد الملك : ــ قل جزاك الله خيرا فانى لارجو ان يسردك الله ، ويرشدنى بك الى الصلاح .

فقال الشيخ : ــ ان هذا الخليفة خرج لمحاربة عدوه فظهر من مشيئة الله سبحانه أنه لا يريد ما قصده . والدليل على ان الله لم يرد قصده لمحاربة ابن الزبير انه قطعه عن التمادى بما أحدثه فى دار ملكه من وثوب عمرو بن سعيد على منبره ، واستفساده لرعيته ، واستيلائه على بيوت أمواله وسرير خلافته . وانى مشير عليك بتفقد حال هذا الأمير وانتظار ما يكون منه فان رأيته قد تمادى فيما خرج له واصر على قصد ابن الزبير فأعلم انه مخذول فاجتنبه ــ وانما كان مخذولا لأن الله سبحانه وتعالى قد اظهر فى حكمه امرا يقطعه من التمادى لما خرج له ، فأبى الا لجاجه . وان رأيته قد رجع من حيث جاء ، وترك ما كان قصد له وخرج فى طلبه ، فارج له السلامة لانه مستقبل ــ والله سبحانه اهل ان يقبل من استقاله ويرحم من يرجع اليه .

فقال له عبد الملك : ــ يا شيخ . وهل رجوعه الى دمشق الا كمسيره الى ابن الزبير ؟ اذ كان قد ظهر من حكمة الله تعالى ومشيئته ان قبض عنه قلوب رعيته الذين بدمشق عن موالاته ، وبسط ايديهم بالبيعة لغيره ، فمصيره الى ابن الزبير كرجوعه الى عمرو بن سعيد لأن كل واحد منهما حاصل على مملكة منيعة ، ورعية مطيعة ؟ ..

فقال الشيخ : ـ ان الذى اشكل عليك لواضح بين ، وها انا أزيل اللبس عنك . ان عبد الملك اذا قصـد ابن الزبير كان فى صـورة ظالم لان ابن الزبير لم يعطه طاعة قط ، ولا وثب له على مملكة . وهو اذا قصد عمرو بن سعيد كان فى صورة مظلوم لان عمرو بن سعيد نكث ببيعته وخان أمانته وافسد رعيته وحملهم على النكث والغدر ، ووثب على دار ملك لم يكن له ولا لابيه بل كان لعبد الملك ولابيه من قبله . وعمرو بن سعيد عليه معتد وله مغتصب ـ وانه كان يقال سمين الغصب مهزول ، ووالى الغـدر معزول .

وقد كان عبد الملك فى مخرجه الى محاربة ابن الزبير عاملا فيما يريد به عز عمرو بن سعيد ، وبقاء الملك فى أهل بيتـه . فلما سمع ما ضربه الشيخ من المثل ، واستبصر فيما أودعه من الحكم سر بذلك سرورا شديدا ثم اقبل على الشيخ فقال : ـ

جزيت خيرا فقـد عظمت يدك عندى وانى لاوثر ان تجعل بينى وبينك موعدا وتذكر مكانك لالقاك به بعد يومى هـذا .

فقال الشيخ : ـ فما الذى تريد بذلك .

فقال عبد الملك : ـ انى اؤمل ان انتفع برايك عند الامير واكافئك على ما كان منك .

فقال الشيخ : ـ انى اعطيت الله تعالى عهدا الا اتحمل منة لبخيل .

فقال له عبد الملك : ـ ومن اين علمت بخلى ؟ .

فقال الشيخ : ـ كيف لا اعلم بخلك وقد ارجأت صـلتى ومكافأتى مع القدرة على تعجيلها . فما عليك لو وصلتنى ببعض ما أرى عليك من السلاح والبزة السنية ؟ .

فقال له عبد الملك : ـ اقسم بالله لقد ذهلت . ثم نزع سيفه فقال : اقبل منى سيفى هـذا ولا تخدع عنه فان قيمته عشرون ألف درهم .

فقال الشيخ : ـ انى لا اقبل صلة ذاهل . فدعنى وربى الذى لا يبخل ولا يذهل فهو حسبى .

فلما سمع عبد الملك مقالته علم فضله فى دينه وقال له : ـ

انى انا عبد الملك فاعتمدنى وارفع الى حوائجك .

فقال الشيخ : ـ وانا عبد الملك فهلم نرفع حوائجنا الى من انا وانت له عبدان .

فانطلق عبد الملك فعمل براى الشيخ فأنجح .

فلما سمع الوليد ما اخبره به ذلك الكهل استرجع عقله واستظرف ادبه وساله عن نفسه . فتسمى له وانتسب . فلم يعرفه الوليد واستحيا منه .

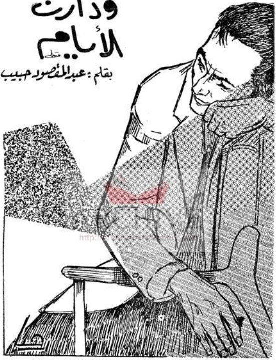
ثم قال الوليد : ـ ان من جهل مثلك من رعيته لمضيع

فقال له الكهل : ـ يا امير المؤمنين . ان الملوك لا تعرف الا من تعرف اليها ، ولزم ابوابها .

فقال الوليـد : ـ كلا والله فلا توسـعنا عذرا لا نستحقه . فأمر له بصلة معجلة ، وعهد اليه فى ملازمة بابه عهدا . فكان يسمع من أدبه وحكمته الى أن كان من أمر الوليد ما هو مشهور .

ودارت الأيام

بقلم : عبد المقصود حبيب



كنت محررا فى مجلة العصافير ..مغمورا .. تائها بين عدد من صغار المحررين الكسالى الذين لا يعملون ولا يجدون ما يمكن ان يفعلوه .. كل همهم الجلوس على المكاتب بملابسهم الرثة وشكلهم المهمل يدخنون السجاير ويشربون القهوة وينكتون والغرور يبدو من عيونهم الغرور الأجوف .. وعملهم

الوحيد خلاف هذا أن يصغروا أي كاتب غيرهم ويرمونه بالجهل والسرقة ويعتبرون أنفسهم في فرصة لا يتيحها لهم رئيس التحرير والمتسلط الدكتاتور على حد قولهم ويتعالى أحدهم على هذا الوضع فيقول :

ــ سوف استقيل .

ويردد آخر في شكل المتفضلين .

ــ يا أخي دعهم يأكلون عيشا .

ويؤمن ثالث على ذلك .

ــ على رأيك . فنحن أيضا نأكل بلا تعب .

وأنا في وسطهم صامت يفور الطموح في صدري وأقول لنفسي كلما رأيتهم على حالتهم تلك ــ انها مصيبة لو صرت مثلهم كسولا متوهما أني كاتب عظيم لمجرد أني محرر في هذه المجلة ودفعني هذا الطموح الى أن استأذن في مقابلة رئيس التحرير لثاني مرة منذ أن اشتغلت في مجلته لكي أعطيه صورة صادقة عن هذا العدد من المحررين العاطلين الذين صدأت عقولهم وتبلدت أفكارهم من عدم العمل .

وأول ما استقبلني سألني .

ــ أنت في الحجرة اليمنى أم اليسرى؟

ولعلمك أن محرري المجلة كانوا قسمين أحدهما وهو العامل النشيط يحتل الحجرة اليمنى بالنسبة لحجرة رئيس التحرير ، والقسم الثاني الذي وضعت أنا فيه كان يحتل الحجرة اليسرى .

وأجبته على سؤاله .

ــ في الحجرة اليسرى .

فخلع نظارته السميكة ووضعها على المكتب وقال في استهزاء .

ــ آه .. مع المرتزقة .. مع العبء الذي يفرضه على الحزب .

وحزت في نفسي تلك الكلمات وقلت محتدا بعض الشيء .

ــ أنا لست منهم .

ــ اذن ممن .

ــ يا سيدي لقد وضعتوني خطأ بينهم .

ــ وأين نضعك .. تأتي مكاني ؟

ــ لم أقصد هذا .

ــ ماذا تقصد .. أليس الحزب هو الذي فرضك أنت الآخر ؟

ــ صحيح أن الحزب مكنني من ذلك ولكني لا أريد أن أكون مثل هؤلاء .

ــ وماذا أفعل كي لا تكون مثلهم ؟

ــ أعطني فرصة .

ــ وبعد أن أعطيك الفرصة .

ــ سوف ترى عملا كثيرا .

ــ إني منتظر .

وخرجت من عنده .. وذهبت الى بيتي وأنا جذلان يعلو بي السرور في أجواز الفضاء .. لم أحس أني أسير على الأرض ولم أحس أني من الناس .. بل من طينة أخرى .

ولما وصلت أغلقت حجرتي ورائي بالمفتاح وأخرجت أوراقي لأكتب في هوايتي المفضلة وهي القصص .. وبيضت قصتين .

وفى الصباح .. استاذنت على رئيس التحرير فناولته القصتين .

ومرت الأيام .

ومرت أيام ولم أقرأ ايهما فى صفحات المجلة .. وقلقت .. واستدعانى الرجل فذهبت اليه وكلى آمال تتضارب بين النجاح والاخفاق وأول ما دخلت عليه قال لى :

ـ ان محاولتك فى كتابة القصة تريد المزيد كى تصقل .

خرجت أعمل بالنصيحة ومددت يدى الى كتب كثيرة فى فن كتابة القصة وقراتها وكتبت محاولات أخرى رايت أنها قد تكون ناجحة .. وارتديت ثوبا على وجهى لا يمت للحياء بصلة وقابلت رئيس التحرير ودفعت اليه بمحاولاتى الجديدة .

وبعد أيام استدعانى وقال لى :

ـ ان هذه المحاولات لم تقدم منك شيئا أكثر من محاولتك السابقة .

ـ كيف وقد قرات كثيرا ! .

فقال لى :

ـ اقرات للأستاذ عبد الجواد .

ـ لا .

ـ ولماذا والمجلة تنشر له باستمرار .

ـ ولكنه لم يكتب فى فن القصة .

ـ ولكنه يكتب القصص .

ـ وماذا يزيد فيها عما أكتب .. قصص بتخيلها كما اتخيلها أنا الآخر .

ـ والفرق انه يكتب بفن وبروح .. ولا يرص الطوب مثلك .

ولم ارد .. بل بلعت الم هذا السوط وانا صامت واحسست ببذرة كراهية للأستاذ عبد الجواد الذى لم اكن رايته حتى ذلك الوقت .

وناولنى رئيس التحرير كتابين للأستاذ عبد الجواد هما مجموعتان من القصص القصيرة والعدد الصادر يومها من مجلتنا وقال لى :

ـ اعمل بالنصيحة اذا أردت النجاح فى هذا الميدان .

فقلت وكنت إقد نسيت كل ما قال .

ـ أى نصيحة تريد سيادتك .

وكان قد خرج من وراء مكتبه واقترب منى ليربت على كتفى وهو يعيد القول على .

ـ ان تقرا للأستاذ عبد الجواد كثيرا .. تقرأ كتاباته مرات ومرات حتى لن يضيرك أن تحفظ كتاباته عن ظهر قلب .

قرات الكتابين واحسست بعد قراءتهما أنى فى الحضيض واعدت القراءة مرات كثيرة كنصيحة رئيس التحرير .. حتى بان لى بريق من أمل أنى من الممكن ان أجارى الأستاذ عبد الجواد فى فنه .. وكتبت قصة وقصة وقصة ..

وملأ الاعجاب نفسى بهذه القصص .. وعانيت السهر ليلتين .. ابيض فيهم على ورق فاخر لا شطب فيه ولا كشط .. واوصلتهم لرئيس التحرير وسرعان ما قراهم وردهم الى معتذرا ومنبها اياى أن ابحث لكتابتى عن ميدان آخر



غير القصص .. فلا روح فيما اكتب ولا فن ولا يحس من يقرأ لى انى اكتب شـيئا .

ولم أقبل هذا القول .. بل رددت على الرجل وقد امتلأت نفسى بالغيظ والغرور .

ــ وهل اقل عن عبد الجواد ؟

ــ يا بنى فرق كبير .

ــ لا فرق ولا اى شىء انها حظوظ .

ــ انت مخطىء .. ان القصة بالذات فى مجلتى لها معيار دقيق ولا يمكن ان اخضعها الا للفن والصدق والاحساس ..

تنحيت عن كتابة القصة واخترعت بابا فى المجلة ساعدنى على تثبيته فيها احد الشخصيات البارزة فى الحـــزب وهذا الباب كان عبارة عن لقطات اخبارية عن نواحى شخصية لرجالات المجتمع ونسائه ، عبارة عن اعـــلان .. يرضى غرور النفس كالتحدث عن تبرع أو عمل طيب او جمال أو تصرف حسن ... باب للنفاق والتزلف .

ونفعنى هذا الباب أكثر مما لو كانت القصص قد نفعتنى .. فقـــد قربنى لمجموعة ضخمة من كبار الرجال وكبريات النساء فى المجتمع .. واصبح تليفونى يرن لأرفع السماعة فلا أجد على الطرف الآخر الا فلان باشا أو فلان بك أو فلانة هانم أو صاحبة العصمة .. ومن هؤلاء المعارف صدرت أوامر لرئيس التحرير ان أكون فى حجرة وحدى تؤثث أثاثا فاخرا يليق باستقبالهم .

ولكن لم يملأ كل ذلك بئر رضـــاى فكنت كلما خلوت الى نفسى أعتقد أنى بعيد عن ميدانى الأصـــلى وهو كتابة القصص وكثيرا ما أراقنى هذا الاعتقاد .

ومن الطبيعى عنـــدما يملأنى هـــذا التوهم ان اتذكر الاستاذ عبد الجـــواد الذى ينشر له رئيس التحرير وينصحنى ان اقرأ انتاجه .. بل وجعل انتـــاجى بجانبه كالطوب عندما نرصه فوق بعضه بلا حياة ولا حس .. مجرد كوم .

وتكونت عندى العقدة الكبيرة ـ عقدة « عبد الجواد » كلما أجد اسمه فى عدد من اعداد المجلة يزداد حنقى عليه وحنقى على رئيس التحرير ، ويزداد كرهى لهما فالقى بالمجلة كما يقول المثل ـ على طول ذراعى ـ ولا اقرأ شيئا منها طالما فيها اقصة عبد الجواد .

وباللنار التى كانت تتأجج فى صدرى عالية الأوار حامية اللهب عندما أجد الخطابات بالمئات والآلاف كلها استحسان واعجاب بقصة عبد الجواد وطلب المزيد من كتاباته .. خيل الى انه الشىء الذى يجثم على انفاسى وانفاس كل من فى المجلة .. واصبحت لا اطيق أن ارى اسمه وسعيت الى أن لا يكتب على صفحاتها فظللت أقنع رئيس التحرير بطريقة خبيثة ظاهرها أننا نختبر احساس القراء نحو كتابهم وباطنها أن ارضى عقدة فى نفسى ومضمونها أن ننشر قصة لعبد الجواد دون أن نمهرها باسمه ورضى رئيس التحرير بذلك .. وقلت فى داخلى .

ـ انها خطوة اولى لبتر هذا الاسم من صفحات المجلة .

وبعد فترة صمت استطردت فى حديثى لنفسى الكارهة لعبد الجواد .

ـ ومرة بعد مرة سيزول هذا الشبح وافقده هذا الهيلمان وانزله من فوق عرش هذه القلوب المحبة ونفذت الخطة ..

واذا بخطابات القراء كلها تجمع على أن عبد الجواد هو كاتب القصة التى من غير توقيع .. ويدللون على ذلك باحساسهم بقلمه وبالرابطة والالفة بينهوبينهم وبأنهم يلمسون روحه الجميلة تسرى بين سطوره مع كلماته العذبة الجميلة ..

وتحدث معى رئيس التحرير فى ذلك .

ـ الم اقل لك ان احساس القراء فى منتهى الصدق .

فقلت وانا اداري الغيظ الفظيع .

معقول .

وصممت على أنشر قصة لأرضى غرورى واظهر نفسى منتصرا فى معركة لم اكن رايت طرفها الثانى بعد .

ولكن كيف أنشر ورئيس التحرير لا يعترف بى كاتبا قصصيا ولا يزال عند رايه انى اكتب بدلا من الكلمات حجارة .. لا فى القصص فقط بل فى كل شىء .

انها طريقة وحيدة .. كما سبق أن فرض بابى عليه .. فلأفرض قصتى ايضا .. وظل معارفى من كبار الناس يلحون عليه وهو يمانع .. ويلحفون فى الالحاح حتى رضى اخيرا على ان يكون رأى القراء هو الفيصل .

ورضيت .. وقلت فى نفسى .

ـ سوف اكون أول منافس يأخذ الصولجان من يد عبد الجواد .. وليقابلنى بعد ذلك .. فسوف اكون فارس الميدان فى هذه المجلة .. وعندئذ لن أدع حرفا من كتابته يدخلها حتى لو عمل القراء مظاهرات من أجله .

وفى يوم صدور المجلة بأول قصصى

على صفحاتها وجدت رئيس التحرير يقدمني الى القـراء فى برواز بكلماته « أقدم لكم كاتبا طالما اقرأتم له فى باب « الورود والأزهار » وطالما كتب أخبار عظماء الرجال والسيدات فى طبقـات المجتمع العالية .. أقدمه اليكم كاتبـا قصصيا والحكم لكم فى أول الأمـر وآخره » .

ولا أخـفى انى احسست برهبـة وسرت فى بدنى قشعريرة عنـد قراءة هذه الكلمات ورأيت انى وجها لوجه مع القراء .. ولن يحميني منهم احد .

وتذرعت بالشجاعة وبالظهـر الذى يحميني عندما تقف أمامى العقبـات ويحوم حولى الاخفاق .

وبعد يوم من صدور العدد .. توالت الخطابات وراقبتها وبدى على قلبى .. واذا بى أرى رئيس التحـرير وكأنه يتلقى برقيات تعازى فقد كانت الخطابات تنعى عليه اسفافه فى الاختيار ويصفونه بتخريف آخر العمر وهى الشـيخوخة وعجزها عن الحكم السليم .

وواجهنى بذلك ..

ولم اقتنع بالهزيمة بهذا الشكل .. وما أسرع ما اتصلت بسندى ليقول له ان القراء جهـلاء لا يعرفون المدح من القدح .. ولا ذكاء عندهم يعـرفون به الحلو من غـيره أو يفـرقون به بين الاحساس بالحياة أو الجمود .

ومال الاقتناع والضغط برأى الرجل فمنحنى فرصة ثانية مستميحا القـراء العذر فى أن القصة الماضية كانت فلتة .

ولم تكن النتيجـة بأحسن من المرة الماضية .. بل كان فيها انذار للمجـلة بمقاطعتها اذا هى استمرت فى تقديمى ..

امتحان رهيب وضعنى فيه الحقد والكراهية .. وسـألت عن عمـر عبد الجواد فقالوا انه شاب لا يزيد عن عمرى على الأكثر .. وعن ثقافته فقالوا انه حاصل على الابتدائية فقط ..

ــ يا للمصيبة .. ويكتب بهـــذا الشكل ؟

اعتبرت موهبته مصيبة ــ وهـــذا طبيعى بالنســبة لى ــ ولم يعتبره الآخرون كذلك بل قال واحد .

ــ انها موهبة وتغــذية لها بلا ملل ولا استعلاء .

وأمن الجميع على اقواله .. وسألت أنا ..

ــ وأين هو لا يحضر الى المجلة ابدا .

ــ انه شاب معتكف يقول ان عمـله يقدمه .

وقال آخر .

ــ انه لم يتقابل مع رئيس التحرير الا مرة واحدة ذهب اليــه فى منزله يهنئه على محبة الناس لقلمـه ويطلب منه مضاعفة الجهد فى الكتابة كى يسد طلب الجمهور على صفحات المجلة .

قلت فى نفسى .

ــ يا للعجب .

وقمت والصمت يلفنى والنار تغلى فى قلبى تتمنى اليوم الذى انتصر فيه على هذا العبد للجواد الذى يهزمنى .. لا بيده ولكن بروحه وبمادته الفنيــة



الكاملة ولا بحب الناس له .. يهزمنى دون ان يدرى أو يسعى لذلك .

ومات رئيس التحرير ..

وهرعت الى سنديكى أتولى الأمر.. وكان .

وفى أول يوم لرئاستى تحرير « مجلة العصافير » لم يكن عندى من هدف محدد الا ان اقتل قلم الأستاذ عبد الجواد .. فتشت ادراج سلفى واستخرجت كل ما كان لغريمى ووضعته فى جيبى وأنا احس انى امسك أسيرا لن تفديه من يدى فدية مهما كبرت .. وفى البيت أحرقته فى المدفأة .

وبعد هذا الاحراق اطمأنت نفسى واثلج صدرى وقلت :

ـ فليقابلنى بعد الآن

ـ انا صاحب المجلة .

ـ لا احد يكتب القصة فيها غيرى .

ـ انا موهوب غير أن سلفى كان جاهلا لا يقدر موهبتى ولا يريد لها أن تظهر حقدا على نجاحى الذى نلته غصبا عنه وحسدا على معارفى من كبراء القوم.

وبعد أسابيع .. دق التليفون فى مكتبى .. واذا بالأستاذ عبد الجواد هو المتحدث احسست بالقلق ينطق فى أسلاك التليفون واحسست انى اطبق بيدى على رقبة عدوى ولابد لى من ان ازيد الضغط عليها .

قال لى :

ـ عندكم قصص لى لم تنشروها من زمن .

فقلت فى منتهى الجفاء .

ـ انها لا تصلح .

ـ وكيف لا تصلح .

ـ انا رئيس التحرير .. وأقول لك انها مثل قذف الطوب .

نفس الكلمات التى رمانى بها رئيس التحرير السابق كلما عرضت عليه ما اكتبه من قصص .

وكان اقويا فقال :

ـ لم يكن هذا راى سلفك .

ـ رايه شيء ورايى شيء آخر .

ـ ولكنه دفع لى ثمن خمس قصص عندكم قبل موته ولم ينشروا بعد .

ـ ولو .. وأرجوك ان تقرا كثيرا كى تعرف كيف تكتب .. ولا تضيع وقتنا بتفاهاتك .

ومن قوته التى لم يفارقنى الاحساس بها .. اغلق التليفون فى وجهى دون أن يعارضنى الراى .. تجاهل قولى واعتبره هراء .. اعتبره لغو جاهل وحقد حاقد .

ولكنى لم اكن لأضعف أمام مثل هذا الرجل .. فقد كانت مجلتى هى الوحيدة التى تفرد بابا للقصص وكذلك من الصعب أن يجد كاتب احدى المجلات مكانا فى مجلة اخرى .. فلكل مجلة اشخاصها المعينون الذين لا يتغيرون بسهولة .

ووجدت فى ذلك فرصة لأزيد من تضييق الخناق على عبد الجواد واتصلت بزملائى رؤساء التحرير شاكيا لهم ـ اختلاقا ـ عدم عرفانه بالجميل وذمه لى فى خطابات بخط يده ومهاجمته لى بلا وجه حق .. واستملتهم نحوى ضده .. وقفوا معى سدا منيعا فى وجهه ولم يستطع قلمه النفاذ من هذا السد وخصوصا لم يكن له نصير من كبريات الرجال أو النساء .. كان معتمدا على قلمه فى كل شيء .. فى شهرته وفى حب الناس له وفى طعامه أيضا ..

ووضعت خطا تحت اعتماده على قلمه فى طعامه .. وقلت هذا مقوده الى مزلته ومجيئه معترفا بالهزيمة يفرش الطريق أمامى بالرجاء والضراعة وبالاعتراف انى استاذه ..

ولكن شيئا من هذا لم يكن .. بل ظل فى قوته .. تاتى الخطابات بالآلاف الى المجلة تطلب قصصه وتطالبنى بامتناعى عن الكتابة فلم يعد فى مرارتهم احتمال كتابتى اكثر من هذا .

ويجول الفيظ فى نفسى بركانا ثائرا يملأ أعماقى بالنقار .. فابحث عن طريقة تجر هذا الرجل كى اضع يدى على رأسه متعاظما امسح الجوع عنه وكانى المسيح يمسح الكساح والبرص عمن لا حول لهم ولا طول غير رحمته ومعجزاته .

فبعثت اليه أحد رجالى يحدثه ناصحا له مخفيا أنه رسول من قبلى .. وكان رد عبد الجواد فى نفس قوته .. لا يزال كما هو انى لا اعرف معنى الفن .. والظروف غير الطبيعية هى التى جعلتنى فى هذا المكان .. وكل بناء بلا أساس لا يمكن ان يدوم قائما .

نقل الرسول الى هذا القول وهو لا يدرى اى نار قد ارثها فى نفسى التى ارهقها الاحتراق .

وسالته عن أوصافه فقال لى :

ـ رجل رقيق البسمة دقيق النظرة

كله الروح الجميل والقصد النبيل والاعتزاز بالنفس وبالفن والترفع بهما عن أى تزلف ونفاق .

ــ واحواله المعيشية ؟

ــ على غير ما يرام .. يبدو الفقر جليا فى حاله .

ابتسمت لهذا القول وسررت أيما سرور .. وقلت لرسولى .

ــ انه مغرور .

ولم يرد .. رغم أنى قرات ردا كتمه عنى .. قرأته فى تعبيرات وجهه فقد كان احد المنافقين الذين يعرفون كيف يشبعون غرور محدثيهم خصوصا اذا كان يرجى منهم النفع .

وبعد ذلك بشهور وصلتنى رسالة بها قصة من عبد الجواد .. ورددتها كالسهم المسموم اليه مذيلة بأنها غير صالحة بالمرة ولا تخرج عن كونها لعب عيال .

وكانت الأخيرة فلم يصلنى منه شىء بعد ذلك .. وبدات خطابات القراء فى شانه تقل رويدا رويدا ويزحف النسيان على اسمه فى خاطرى شيئا فشيئا حتى نسيت .

ولم أظل راكبا كما درج القول عند الناس .. بل انقلبت الدنيا رأسا على عقب .. وزال من وراء ظهرى السند .. ووقفت عاريا وسط رياح لا تقوى عليها رئتاى المريضتان .. وبجرة قلم حر تبعث الصحف والمجلات حكومة تصونها من عبث العابثين بمقدرات الناس وافهامهم ..

ورجوت كى اظل فى مكانى .. فقالوا :

ــ لا .. بعدك .

وبكيت .. فرقوا ورحموا والرحمة اولى صفاتهم وقالوا :

ــ ممكن ان تظل تأكل عيشا انت واسرتك .. لكن رئاسة .. فلا .

ــ ومن سيأخذ مكانى ؟

ــ لم يكن مكانك حتى يأخذه احد .. ولكن سوف تصحح الأوضاع ويجلس فيه من يملؤه ..

وذهبوا بى الى مجلة « سنيورة الأدب » .. ومرت سنة يتولى الرئاسة فيها مجلس من محررى المجلة حتى فوجئت من أسبوع باسم الأستاذ عبد الجواد يدور بين الشفاه المتهامسة بانه أنظف رجل وأكفأ من يتولى هذا المنصب وليس هذا فقط .. بل بأن معه تفويضا بالتغيير واخراج العناصر غير الصالحة والتى لا تزال تحيا فى الظلال القديمة .

فارتعدت واصابنى الاهتزاز بصورة اشد وقلت لنفسى :

ــ يا خبر اسود .. الا يزال حيا ؟

وعقب شيطان الشر فى اعماقى .

ــ والأدهى من هذا سيكون رئيسك .

ــ وماذا افعل .. انها والله ولا القتل .

ــ استقيل .

ــ وأولادى .. من اين يأكلون .

ــ معقول .

ولم أجد حلا .. بل وجدت ان كلمته يوم ارسلت له احد رجالى كانت حكمة .. حكمة خالدة بالفة وخالدة ابد الزمن .. كل بناء بلا أساس لا يمكن ان يدوم قائما .

وشغلتنى الهواجس اياما .. وتراءت لى نهايتى تقترب فهو سوف يأخذ



بالثأر منى .. ولم لا والفرصة فى يده والأمر له وهو آت للاصلاح .. اصلاح ما أفسده من كان مثلى.

واعتقدت ان طبعه لن يختلف عن طبع الناس عندما يملك الواحد منا فرصة فى احد اعدائه لا يتركها تفلت من يده.. مثل ما فعلت انا عندما كنت أكرهه من كل قلبى واكتفى بالكراهية حيث لم يكن فى يدى شىء أفعله تجاهه .. ولما ملكت زمام الأمر مرمطت فيه واوردت ان اسقيه مرارة الهزيمة التى احرقت صدرى اياما طويلة ..

وها هو قادم الينا وتخايلت امامى صورته وهو يمزقنى بكلماته القاسية وباعادة ما فعلته فيه .. أعادته على فى زمن عز فيه نصيرى الذى كان يقف بجانبى فى كل رغباتى مهما كانت غير سليمة هاهو قادم ليحاربنى بالسلاح الوحيد الذى لم املكه يوما ولن املكه ابدا ..

سيقول لى : اكتب وانت تبقى .. اكتب شيئا يقرا وتتفاعل معه الجماهير وترضى به النفوس النظيفة .

وفى هذه الحالة لن أقف .. بل سينهار ما بقى من قواى ولن استطيع الكتابة كما يقول .. فقد حاولت كثيرا فى ميدان منافسته وكانت النتيجة ان قل توزيع المجلة بشكل رهيب جعلنى امتنع فعلا عن الكتابة حتى تعود نسبة التوزيع الى ماكانت عليه مع اصرارى فى نفس الوقت على عدم نشر اى شىء له.

ما هى الأيام دارت .. وجاءنى من لم أقدم عنـــدة شيئا يذكرنى به فى الخير ..

لم ترحمنى الهواجس ولم يفارقنى الخوف لحظة بل لازمنى ملازمة الفكر.. ليلا ونهارا حتى فى ساعات نومى القليلة كان الخوف يجثم على صدرى بأحلام مزعجة .. لم يدعنى ذلك الخوف أهنأ بدقيقة من الاطمئنان على المصير .

وبان القلق فى عينى لكل من يرانى حتى جاء فعلا الأستاذ عبد الجـــواد وتسلم العمل ولم أرض لنفسى أن أكون أول المهرولين للقائه .. فضلت أن أكون آخر من يذهب إليه وكلى الحرص على أن تكون فى هذا اللقاء وحيدين لا يسمع حديثنا أحـد .

ودخلت عليه .. فوجدته كما قال الرجل .. رقة فى الاحساس ونبـلا فى القصد ووداعة فى الخلق وطـــلاوة فى الكلمة ونورا فى النفس يشع من نظرات العينين ابتساما .

وقدمت نفسى إليه ـ أول مرة يرى أينا وجه الآخر .

ـ محمود سعيد .

فقطب عن جبينه ثم بسطه بعد أن تذكرنى ومد يده .

ـ أهلا وسهلا .

لم أتبين من ملامحــــه أى شر .. فاستبشرت الخير وزوال الخواطر غير الطيبـــة .. ولكنه استطرد قائلا يؤكد معرفته لى .

ـ دار بيننا الحديث يوما .

فنبلة ألقاها على .. بدد ظلال الأمان التى بدأت تتسرب إلى نفسى الواجفة .

وقلت أحاول أن أعتذر .

ـ كانت ظروف .

وقطع على حبل الاسترسال بقوله :

ـ لا تهتم .. لا تهتم .

فصمت وأنا الوذ بالحذر متوقعا أن يذكرنى بين لحظة وأخـــرى بما كان بيننا ..

وطال انتظارى ولم يحدث شىء .. فأدركت أنه فوق هذا المستوى .. وأن عنده فعلا مقومات القوة التى تهزم ضعفاء النفوس .

وبعد برهة من الصمت قال :

ـ ألا تزال تكتب القصص .

ـ لا .. ليس ميدانى واللواء لكم .

فقال الرجل باعتزازه القديم .

ـ العمل الجيـــد لابد أن يصل إلى الناس .

قلت فى منتهى الرضا الذى أحسست به يملأ كيانى لأول مرة فى حياتى .

ـ معقول يا أستاذ عبد الجواد .

ـ مهما طال عليه الزمن

وغادرت حجرته وهو يدعو لى ـ من طيبة قلبه وارتفـــاعه فـــوق المطلب الشخصى ـ أن يوفقنى الله ويدعونى إلى أن أكون راضيا عن رئاسته ..

وأنا أيضا أدعو له بالتوفيق ولى بأن أعرف دائما أن الأيام تدور ولابد للأحياء من لقـــاء .



إكسير الحياة

تأليف : ريتشارد جرانيت
ترجمة : صبحى الجيار

كان الفيلسوف العجوز « ابونيل » يعيش فى قلعة عالية فى مدينة « يالخ » ، حيث كرس نفسه لدراسة الكيمياء والعلوم الغامضة .. ولم يكن يدعو احدا الى معمله . ولا يعنى هذا انه كان يتجنب الآدميين تماما ، بل على العكس، فقد كان له سبعة تلاميذ من الشبان الذين ينتمون الى انبل العائلات فى المدينة ، كان يزودهم — فى أوقات معينة — بالفلسفة وكل المعلومات القانونية المشروعة ، محتفظا لنفسه بالعلوم والحكمة غير المباحة ، وهى التى تتعلق بالسحر والكيمياء الخرافية التى تبحث فى تحويل المعادن الى ذهب .

وذات يوم استدعى تلاميذه السبعة الى صومعته السرية فدلفوا اليها فى

رهبة وفضول . لكنهم لم يلحظوا شيئا، بل رأوا أستاذهم الحكيم واقفا خلف منضدة ، كان فوقها سبع قارورات بللورية ، مملوءة بسائل صاف شفاف كالماء .

وبدأ الحكيم يتكلم :

ـ أنتم تعلمون يا ابنائى كم اكافح واجاهد بحماس لأكتشف اسرار الطبيعة الغامضة ، وكى أحل المعضلات التى اغرت وحيرت العلماء على مر العصور. لقد كانت هذه المسالة هى هدفى دائما. ولكنى ـ حتى امس ـ لم يكن حظى بافضل من هؤلاء الذين سبقونى . ان القدر الضئيل الذى أمكننى انجازه يبدو تافها اذا قورن بالقدر الذى اضطررت الى تركه غير كامل . وحتى الآن يعتبر نجاحى نسبيا ، فأنا لم أستطع ان اعرف كيف أصنع الذهب ، وليست لى حكمة سليمان ، ولا أستطيع ان اعيد جوهر الحياة الى الموتى ، ولا انفث الحياة فى الجماد . ولكنى اذا لم اكن اقدر أن اخلق الحياة فان فى استطاعتى أن أحافظ عليها وابقيها ، فقد اكتشفت أكسير الحياة .

صمت الحكيم لحظة ليختبر ملامح تلاميذه ، فألفاها مكتسية بدهشة بالغة، من أمل وايمان لاشك فيه بصحة ما قاله استاذهم . وقد اشرقت عيونهم بوميض من أمل خجول فى أنهم قد يشاركونه فى هذا الأكتشاف العظيم الذى صارحهم به . وعندما أدرك الحكيم مشاعرهم هذه ، استطرد يقول :

ـ انى أرغب فى اطلاعكم على هذا السر اذا شئتم ..

فانطلقت منهم صيحة جماعية ، أكدت له أن لا داعى لتشككه فى رغبتهم . وعاد يقول :

ـ ولكن تذكروا .. ان هذه المعلومات ـ كأى معلومات اخرى ـ لها مضارها وعواقبها .. ان لكل شيء ثمن .. وعندما اتيتم هنا لتتلقوا هذا العلم فمن المحتمل انه تبدى لكم جم الصعوبة .. وأود ان تفهموا ان الشروط التى سأعرضها عليكم ليست من عندى . ان هذا السر قد اتى الى عن طريق الأرواح .. ولم اصل اليه عن طريق المنحة .. بل حصلت على هذا السر تحت شروط حاسمة اضطررت ان امتثل اليها . واحب ان تفهموا أيضا انه لا يعنينى أن استخدم هذه المعلومات لمصلحتى الخاصة .. فان السنوات الثمانين التى قطعتها من عمرى قد جعلتنى أكثر حرصا والتماسا لهذه الوسائل التى تختصر الحياة أكثر مما تطيلها . وقد يكون من المفيد لكم اذا استطاعت خبرة السنوات العشرين من عمركم ان تؤدى بكم الى نفس النتيجة.

لم يبد اى اعتراض على احد من الشبان ، بل اسرعوا بالموافقة فى حماس، مدفوعين بما يكتنف حياتهم من فراغ وغرور ، وتذمر . وكذلك من اجل مبادىء معلمهم المبجل ، الذى كان راضيا عن تصرفاتهم وطباعهم ، الا أنه كان محتاجا لمن يقنعه بالهوة السحيقة بين النظرية وتطبيقها ، وبضعف الاقتناع العقلى بجانب الغريزة الفطرية .

وفى صوت واحد أبدوا جميعا استعدادهم لتحمل اى مخاطرة معقولة،

وتطوعوا لاجراء اية تجربة ، راضين بهذاالشرط الذى يؤهلهم للاشتراك فى السر العظيم الذى اكتشفه استاذهم .

وعاد الحكيم يقول :

ــ وهو كذلك .. والآن انصتوا الى الشروط .. على كل منكم ان يختار احدى هذه القوارير السبعة بطريقةعفوية .. ثم يتجرعها فى الحال . ان واحدة منها فقط تحوى اكسير الحياة .. أما القوارير الاخرى فتختلف محتوياتها تماما عن قارورة الاكسير ..انها تحوى ستة انواع من السم المميت .. وهى اقوى سموم استطاعت مهارتى ان تمكننى من تحضيرها .. ولم يعرف العلم حتى الآن ترياقا لهذه السموم . فالنوع الاول يلسع الاحشاء كجمرة من نار . والثانى يقتل ضحيته بتجميد جميع أوعيتها الدموية .. ويشل كل اعصابها .. والسم الثالث يقضى على الانسان بانتفاضات مجنونة مهلكة .. أما الرابع فان من يتجرعه سيكون أسعد حالا نسبيا .. لأنه سيسقط على الأرض فى الحال فاقد الحياة .. كأن البرق قد صعقه .. لكنى لا اشفق كثيرا على الخامس الذى سيقع فى غيبوبة على الفور .. ثم يقضى نحبه فى غفوة خالية من الألم . ولكن ما أتعس الذى سيختار القارورة السادسة فان شعره سيسقط عن راسه .. وينفصل جلده عن جسده .. ويظل طويلا على قيد الحياة يعانى من عذاب مبرح .. يتمنى معه الموت . اما القارورة السابعة .. فهى التى تحوى هدفكم المنشود ..

ثم صاح فيهم :

ــ مدوا ايديكم نحو المائدة فى آن واحد .. وليقبض كل منكم على احدى القوارير دون تردد .. ثم يتجرعها فى جراة وشجاعة .. ودعوا القدر يختار لكم ، وسوف تحدد النتيجة قدر ما لكل منكم من حظ ..



تشاور التلاميذ السبعة معا ، والذهول مخيم على وجوههم ، ثم اتجهوا جميعا شاخصين نحو أستاذهم، آملين ان يكتشفوا شيئا من علامات المزاح على ملامحه الوقورة ، ولكنهم لم يروا على محياه غير مهابة رزينة ،

او ربما كان يومض من خلفهـــا تعبير صارم ساخر .

واخيرا راحوا يمعنون النظــر فى القوارير ، آملين ان يلمحـوا فيها اى اختلاف ضئيل قد يساعدهم فى تمييز الاكسير عن السموم ، ولكن خاب ظنهم، فقد كانت القوارير متشابهة تماما فى مظهرها الخارجي ، وكانت محتويات كل منها متساوية فى شفافيتها ولونهـــا المعدوم .

وبعد فترة قال « ابو نيل » فى دهشة لم يعرفوا ان كانت حقيقة او مفتعلة :

ــ ماذا تنتظرون ؟ .. كنت أحسبنى سأرى ستة منكم يعانون سـكرات الموت ...

لم تكن كلماته لتشجع الســبعة المرتجفين . ثم تقدم منهم اثنان ، هما اكثرهم شجاعة ، ومـــدا أيديهما الى منتصف الطريق نحو المنضدة . ولكنهما عندما ادركا ان الآخرين لم يقتدوا بهما ، عادا فســحبا يديهمــا فى شىء من الارتباك .

واخيرا هتف احدهم محطما الصمت الحائر :

ــ لا تظن ايهــا المعلم العظيم انى شخصيا احرص على حياتى التافهة .. ولكنى أرعى امى العجوز .. التى ترتبط حياتها بحياتى ...

وقال الثانى :

ــ وانا لى أخت غير متزوجة يجب على ان أعولها .

وقال الثالث :

وانا لى صديق حميم اخنى عليه الدهر .. وليس من الحكمة ان اتخلى عنه ...

وقال الرابع :

ــ اما انا فلى عـــدو وأود ان أنتقم منه ....

وقال الخامس :

ــ لقد وهبت حياتى كلها للعلم .. فهل ارضى بتركها قبل ان تشمل ابحاثى البحار السبعة ؟

وتساءل السادس :

ــ وهل ارضى انا بترك الحياة قبل ان اتحدث الى الانسان الذى يعيش على سطح القمر ؟



واخيرا قال السابع :

ـ أما انا فليست لى ام او اخت .. وليس لى اصدقاء ولا اعداء . كذلك حماسي للعلم لا يوازى حماس زملائى..

ولكنى احترم جسدى واعتز به كثيرا ...

فقال الحكيم مجملا قوله :

ـ اذن فالنتيجة النهائية أنه لا احد منكم سوف يخاطر فى سبيل كأس الخلود ؟

ظل الشبان صامتين فى خجل وارتباك، عازفين عن تلقى كلمات التقريع من استاذهم ، وعاجزين عن تبرير مسلكهم. كانوا ينشدون حلا وسطا لهذه المعضلة، ولكن الحل تلكأ فى الظهور . واخيرا قال احدهم :

ـ قد يكون من الأوفق الا نجرع القوارير دفعة واحدة ، بل يجرع كل منا قنينته على التوالى ، وليفعل القدر بنا ما يشاء ..

فأجاب « ابونيل» :

ـ ليس لى اعتراض على هذا الاقتراح .. فقط تذكروا ان اقل محاولة لمخالفة الشروط بترجيح الفرصة لأى فرد منكم .. سوف تعنى فشلكم جميعا ..

واقترحوا اجراء قرعة . فاسرع التلاميذ وتناولوا سبع قصبات غير متساوية فى الطول ، وشرعوا يسحبونها بالطريقة المعتادة ، فاستقرت اقصر العصى فى يد احدهم ، وهو الذى يتذرع بواجبه البنوى نحو امه ، فتقدم نحو المنضدة فى كثير من العزم والتصميم، وامتدت يده الى منتصف الطريق دون تردد ، ثم التفت الى زميله الذى يمسك بالعصا التالية فى الطول ، وكان هو الذى يقيم مع أخته ، وقال بسرعة:

ـ ان العلاقة بين الأم وابنها أقوى واقدس من الصلة بين الأخوة .. أليس من الواجب اذن ان تواجه انت هذه المجازفة بدلا منى ؟

فاجاب الشاب المعنى بالحديث فى ايجاز :

ـ ان العلاقة بين الأم العجوز وابنها البالغ ، ولو انها أكثر قداسة ، لا يمكن ان تكون دائمة ، اذا ما أدركنا انها ستنفصم عراها بالموت ، بينما العلاقة بين الأخ واخته قد تدوم الى سنوات طويلة اذا شاءت ارادة الله .. لهذا يجب أن تجازف أنت اولا بهذه التجربة ..

فصاح المتحدث الاول فى سخط :

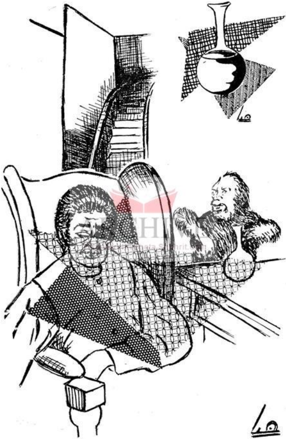
ـ هل وصلت بى الحال لأن اسمع مثل هذه السفسطة من تلميذ للحكيم « أبونيل » ؟ .. ان علاقة الأم بابنها ..

فصاح السادس مقاطعا :

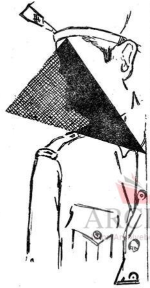
ـ لنوقف هذه التفاهات لحظة .. فاما ان تنفذ الشروط او تتخلى عن هذه المهمة ..

تحمس التلميذ لهذا الاستعجال ، فمد يده الى المنضدة وأمسك باحدى القوارير ، وما كاد يلمسها حتى خيل اليه انه اكتشف شيئا من الاختلاف فى لون السائل مما تشاءم له ، وتوهم انه يعكر صفو شفافيته فيميزه عن باقى القوارير ، فأسرع يعيده الى المنضدة . وامسك بالقارورة التالية . وفى تلك اللحظة انفجر وهج من الضوء أمامهم ، فسقط التلاميذ السبعة مصعوقين ، وتمددوا على الأرض فاقدى الوعى .

وعندما استعادوا قواهم ، وجدوا أنفسهم خارج مسكن الحكيم «أبونيل»، متأثرين بالصدمة والاهانة التى لحقت بهم لما اقترفت ايديهم ، ثم تعاهدوا جميعا على الاحتفاظ بسرهم ، وعادوا الى بيوتهم .



■ انطلق أمامهم قرد ضخم بفروة ناعمة ■



الناس والحولة

بقلم : بكر رشوان

لم يبق السر مستورا بين السبعة كما كان منتظرا ، كأي سر موزع بين أفراد كثيرين ، أي أنه في ظرف أيام قليلة كان السر معروفا لمعظم أهل مدينة « بالخ » . وكان آخر من عرفه هو السلطان الذي أرسل حراسة في الحال ليقبضوا على الحكيم ويستولوا على أكسير الحياة .

ظل الحـــراس يطرقون باب الحكيم « أبونيل » دون أن يتلقوا اذنا بالدخول ، فكسروا الباب ، وما كادوا يدلفون الى حجرته ، حتى وجدوه جالسا في كرسيه فاقد الحياة ، وعلى ملامحه أبلغ آيات الازدراء للجرعة واهبة الحياة .

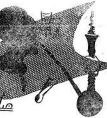
وأمامه فوق المنضدة ، كانت القوارير السبعة ، ستة منها ما زالت مليئة ، وأما السابعة فكانت فارغة . ووجدوا في يده ورقة ملفوفة مكتوب عليها :

« سنوات طويلة قضيتها في البحث وراء العلم والمعـرفة ، وها أنذا اترك للعالم ثمار كدحي وجهودي .. وهي ستة أنواع من السم الزعاف .. وكان من الممكن ان أضيف اليها نوعا آخر لكنني أمسكت عن اتمامه .

اكتبوا فوق قبري : هنا يرقد الرجل الذي رفض أن يدوم العذاب الانساني .. فوهب للبشرية نعمـــة الموت التي قد تكون في حد ذاتها غير ضارة » ..

تطلع الداخلون الى بعضهم بعض ، وهم يجاهـــدون لكشف الغموض عن كلمات « أبونيل » الأخيرة .

وبينما هم كذلك محدقين ، اذ أفزعهم صوت مرتفع لشيء يتحطم في الحجرة المجاورة ، وتضاعف انزعاجهم عندما انطلق أمامهم قرد ضخم بفروة ناعمة ، في غاية المرح ، يتحرك في نشاط خارق ، مما أقنع الجميع بأن الفيلسوف الفقيد — وهو تحت احساس طاغ من التهكم والازدراء — قد قدم الى هذا المخلوق كل قطرة من أكسير الحياة .



قريتنا تنام من المغرب وتستيقظ مع الفجر .. ولا شيء يملأ الليل فى قريتنا سوى السكون وعواء الكلاب ، الذى يتردد فى جنباتها فى صـــوت مبحوح كحشرجة انسان مريض .. او كان الليل يكح فى الشوارع والأزقة ومن على أسطح المنازل ..

ولا أحد فى قريتنا يسهر أبدا الا فى النادر . فما يكاد الواحد منهم « يخطف » صلاة العشاء حتى يتوكل على‌الله ويذهب الى بيته ويغلق الباب من الداخل بترباس ضخم ، ويلقى نظرة على الجاموسة المربوطة تحت السقيفة فى رحباية الدار ويحمد الله ويشكر فضله على هذه النعمة ويتخطى أولاده المكومين على المصطبـــة ويدفس نفسه تحت اللحاف بجوار امرأته فان كان مزاجه معتدلا أعطاها وجهه ويلكزها فى جنبها لتعطيه وجهها ويأخذان فى الدردشة ونتف جلود أهل القرية حتى يغلبهما النعاس .. اما اذا كان مزاجه ليس على مايرام اعطاها ظهره وراح فى النوم وشخيره يعلو ويهبط كصوت مكنة الطحين حينما تخروش ..

حتى القهوة الوحيدة فى قريتنا لا تسهر .. فبعد صلاة العشاء بقليـــل يأتى الخفير الى القهوة «فيلهف» واحد شاى وكرسى معسل ثم يتنحنح ويأمر القهوجى بالتشطيب لأن نصف الليل خلاص .

فينادى عبد الصمد القهـوجى على واحد من الرجال القاعدين على الدكك أن ينتع معه برميل الماء ذا الرائحـــة النتنة التى يدلق فيه ماء جوز المعسل وتفل الشاى وبقايا البن طول النهـار ليسكباه أمام القهوة ..

وما تكاد ماء البرميل تسيل أمام القهوة وتروح فى التراب وتفوح رائحتها الكريهـــة كانذار للزبائن بأن ميعـــاد التشطيب قد حان حتى يقـــوم كل الرجال ، ويهرش كل واحد فى جيبـــه ليخرج القرش ويعطيه لعبد الصـــمد ويلقى تحية المساء وينصرف ..

حتى لعيبة الكوتشينة يقومون بعد ضجيج وشتيمة وزعيق وكل واحد منهم يصر على أنه الغالب وأن العشرة لم تنته بعد .. ثم يتفقون فى النهاية أن يكملوا السهرة فى منزل واحد منهم يكون عنده

كوتشينة جديدة ويعطوه على كل دور يلعبونه قرش تعريفه ..

ما تكاد ابواب المنازل تفتح لتمتص رواد القهوة حتى يتراكم السكون فى الشوارع ويتراكم ويجثم على القرية فى كتل حتى يخيل اليك أن الأصوات لا تنفذ فيه ..

لا أحد فى قريتنا يسهر بعد صلاة العشاء الا الكلاب على أسطح المنازل وفى الشوارع .. حتى الخفراء لا يسهرون .. فما يكاد الواحد منهم يلف لفة فى الدرك حتى يستلطف مصطبة ويدخل فى بالطو الحكومة كالقنفذ ويحتضن البندقية بعد ان يفرغها من الرصاص ويعدل ترباس الأمان زيادة فى الحيطة ثم يأخذ فى الشخير كسلطان زمانه .. !

لم تكن قريتنا تسهر أبدا الا فى ليالى قليلة نادرة تكاد تكون معدودة .. وتبلغ من ندرتها أن الناس يحسبون أيامهم بها .. لا تسهر قريتنا الا فى فرح احد شبابها أو فى موت احد اغنيائها ، وما اقل أن يتزوج الشبان فى قريتنا وما اندر أن يموت الأغنياء فيها .. !

والأفراح فى قريتنا لها مواسم فهى دائما عقب جنى القطن أو حصاد القمح، وحين تحين دخلة أحد الشبان ينصب فى الأرض الفراغ التى تتوسط القرية مسرح صغير أرضيته تتكون من ظهر عربة نقل قديمة يقيمونها على براميل مملوءة بالرمل لتتحمل المسرح ومن عليه .. خيمة صغيرة لا تكاد تغطى الا الممثلين فقط ، وفى قوائم الخيمة تعلق بضع كلوبات تظل تلهث الليل كله .. وعلى الدكك القليلة التى تستعار من كل منزل وعلى الأرض أيضا يتكوم الفلاحون .. يجلسون القرفصاء بالطواقى البيضاء التى تكبس على نافوخهم ، ورؤسهم متداخلة بين أكتافهم كالأوز حين ينام وعيونهم محملقة فى المسرح وفى البنت الوحيدة التى ترقص وتهز وسطها وتمط شفتيها بما عليها من كميات ضخمة من احمر شفاه رخيص .. عيونهم محملقة وكوع الواحد منهم فى جنب زميله يلكزه باستمرار والتعليقات تنطلق كالصواريخ فتخترق الهواء وتدخل الخيمة المنصوبة وتصعد على المسرح لتندس فى أذن البنت التى ترقص فيزداد رقصها وتحاول أن ترفع ذيل فستانها الأحمر قليلا فتتمايل الرؤوس وتعلو الأصوات مطالبة بالمزيد .. فالبنت بيضاء كاللبن وهذا يكفى جدا فى قريتنا لأن تكون كالسنيورة عزيزة .. فمقياس الجمال فى قريتنا هو البياض فكل النساء فى القرية سود كالغربان .. القشف يغطى أرجلهن حتى الركبة وأيديهن متشققة من طين الأرض وروث البهائم .. اما هذه البنت فبيضاء كعبها احمر يلمع وكانها تحكه بالطوبة ليل نهار ..

فى ليلة الفرح هذه يسهر كل رجال القرية حتى الصباح ثم يظلون بعد ذلك اشهرا كثيرة يحكون عن آخر فرح ويقصون عنه القصص ويصفون البنت الراقصة .. كل رجل يصفها باسهاب وتفاصيل **وكانها نامت فى حضنه الليل كله** فيكذبه الآخر ويصفها وصفا يختلف

تماما عن وصفه ويتدخل ثالث ليختلف معهما وكل يصر على أن كلامه هو الصحيح حتى اذا ما سمعهم غريب عن القرية فسيخيل اليه انهم لم يروا هذه البنت فى حياتهم وانما يصفونها من الخيال..! الأفراح فى قريتنا لها مواسم ومعروفة قبل أن تحدث بشهور بل أحيانا بسنوات .. أما مآتم الأغنياء فتحدث فجأة وتهبط على القرية كالقلقية أو كليلة القدر حين تفتح للعباد الصالحين .. فما يكاد المنادى يلف فى البلد يخبر الناس ـ الذين يكون عندهم خبر قبل المنادى نفسه ـ أن الشيخ فلان قد توفاه الله حتى يرتدى كل رجل أحسن جلابية عنده ويخرج ليسير فى الجنازة .. أما بالليل فالخيمة الكبيرة الطويلة العريضة تنصب فى الوسعاية التى تتوسط البلد، وشيخ من البندر يظل يقرأ الليل كله، وأحيانا يتنازل بعض الحكام ويزورون المأتم ويلقون السلام على الفلاحين .. وأهم من ذلك كله اللحم الكثير الذى يفرقه أهل الميت على روح المرحوم ..

تلك هى الليالى القليلة النادرة التى تسهر فيها قريتنا .. أما ما عدا ذلك فالأحداث قليلة معروفة لا تستحق الذكر ولا تستحق حتى مجرد شغل البال .. حتى الأحداث الضخمة التى تهز المركز من أوله الى آخره وتجعل البيه المأمور يشرف القرية ليلعن سنسفيل جدودها.. حتى هذه الأحداث لم تكن تثير فى قريتنا ادنى دهشة بل تؤخذ كقضايا مسلم بها أو كأمور مفروغ منها، تماما كطلوع الشمس فى الصباح وغروبها فى المساء .. فقد يحدث أن يقتل رجل من عائلة ابو كامل آخر من عائلة الشيخ السنى او العكس .. وهذا يحدث كثيرا فى قريتنا ، فينقلب المركز وتهيج المديرية ويثور المدير على المأمور ويسرع المأمور ليركب العربة الفورد ويشرف القرية ويرمح العساكر طول النهار فى شوارعها وحواريها وينشغل العمدة فى ذبح الذبائح للحكومة ويلمع الخفراء أسلحتهم ويرتدون الأحذية .. ثم ينفض السامر على أن الجانى مجهول لأن أهل القتيل لا يبوحون بالسر ، ولا احد فى القرية رأى الجريمة وهى ترتكب بالرغم من أنها ارتكبت فى عز الظهر وفى وسط الناس..

وتمشى الحكومة وهى تعرف أنها ستأتى بعد أيام مرة أخرى لتأكل عند العمدة وتحقق فى مقتل القاتل.. ! وبعد هذا تسير الأمور فى القرية فى مجراها الطبيعى .. كل الناس يعرفون القتيل ويعرفون القاتل ، بل ويعرفون من هو الذى سيأخذ بالثأر ومن هو الذى سيقتص منه .. كل شىء معروف بالنسبة لأهل القرية فهم يقولون ببساطة وكأنهم يمصون عود قصب أن محمد بن الشيخ عبد السلام هو الذى سيقتل مصطفى بن الريس حسنين .. حتى مصطفى نفسه يعرف هذا ويعرف انه سيموت ولا يستطيع أن يرد قضاءه وكأنه حكم الأزل لا يقدر على دفعه .. حتى البندقية التى يعلقها على كتفه لا تعدو أن تكون حجابا كالأحجبة التى يعلقها الفلاحون على صدور مرضاهم فى لحظات الاحتضار .

كل شيء فى القرية معروف وواضح كالشمس .. القطن يبذر اليوم ليبص من الارض بعد شهر وتأكله الدودة بعد شهور ، وبنك التسليف سيتأخر فى تسليم الكيماوى ، والقطن سيذهب هدرا والشكاوى ستنهال على العمدة ولن يتحرك العمدة والذى سيكتب الشكاوى هو الأستاذ عبد الرحيم المدرس الالزامى والذى يملك فدانين فى القرية ..

كل شيء واضح ورتيب .. ان الغد فى القرية لا يحمل فى طياته احداثا مجهولة كالتى تحدث فى المدينة .. فأيام المدن بتراء ، فى أفقها تطفو سحابات غدها المجهول ، الضجيج الذى يملأها والحياة التى تجرى وتنبض فى شوارعها تكاد تقول لك عش يومك أما الغد فدعه للقدر .. اما فى القرية فاليوم كالأمس والغد كاليوم ، الفلاح يغمض عينيه فى المساء وهو يكاد يعرف ماذا سيفعل ومن سيقابل ومع من سيتشاجر غدا ، بل ويعرف من الذى سيفض الخناقة التى ينوى ان يقيمها على الجسر من اجل الماء ..

لذلك كله كان الخبر الذى انتشر فى القرية ذات صباح مثيرا غريبا .. يثير كثيرا من التساؤل ويملأ الرؤوس بأشياء عجيبة غامضة .. ولا أحد يدرى من الذى ابتدأ بالخبر ومن هو أول من نقله .. فقد استيقظ الناس ذات صباح فإذا بالخبر يملأ القرية وينتقل على كل لسان ويدخل كل بيت ، حتى الواحد منهم لا يكاد يعرف بالتحديد متى سمعه ومن هو الذى قاله له .. كأن القرية علمت به مرة واحدة أو كأنه نبت من الارض او هبط من السماء او كان الشمس حملته معها وهى تخرج من وراء الجبل الشرقى فالقته على القرية مع أول خيوطها الصفراء التى تغمر القرية كل صباح ..

الخبر كان مثيرا ومدهشا فى نفس الوقت .. انفعل به كل الناس .. حتى الأطفال اخذ كل واحد منهم ذيل جلبابه بين أسنانه وانطلق الى جسر الترعة أو الى الحقول ليحكى لزملائه الخبر ، ويعوج الطاقية ويهرش فى مؤخرة قفاه كالكبار ثم يقول :

— أما حتبقى شوية ليالى ياوله وحنسهر للصبح .

والنساء بالرغم من ان أكثرهن قد رحبن بالخبر فى بادىء الأمر فبمجرد سماعهن الخبر وافقن عليه بل وتحمسن له الا انه عندما اختلت كل واحدة بنفسها بعد ان ردت عليها بابها وجدت شيئا من الغيرة ومن الخوف الغامض ينبش قلبها وينغمس احساسها ومشاعرها بشيء مجهول غامض فتتمنى من أعماقها — ولو أنها تخاف ان يلفظ لسانها بكلمة — ألا يحدث هذا وأن يكون الخبر مجرد كذب واشاعة من اشاعات الرجال الذين ليس لهم شغلة ولا مشغلة سوى الاشاعات .

أما الشبان فقد تلقوا الخبر بارتياح تام وحماس بالغ فبدلا من المشوار الطويل الذى كانوا يقطعونه فى الذهاب



الى البلاد المجاورة كل موسم ولمدة ليلة واحدة اصبحت الحكاية على الأبواب كما يقولون وفى قريتهم هم حيث يعرفون كل شبر فيها ومجال الفرفشة واسع وعريض .. والحكاية ليست ليلة يخطفونها خطفا ولكنها ستكون أسبوعا بحاله فيفعلون ما يروق لهم فى بحبحة .. وبلا خوف ! .

الفئة الوحيدة التى عارضت هذا الخبر بكل قوتها هى فئة الرجال الكبار السن فقد اعتبروا هذا مسخرة وقلة أدب وهل هم ناقصين بلاوى ودوشة دماغ . . ! ورغم المعارضين والمترددين . . ما كادت الشمس تحمر وتقارب منتصف السماء حتى كان الخبر قد تأكد تماما . . ففى دوار العمدة كان أولاد الشيخ عبد الدايم يجلسون بجوار العمدة يؤكدون له فى كل لحظة أن هذا هو الحل الوحيد وان هذا الطلب ليس مطلبهم الشخصى ولكنه مطلب الشيخ نفسه . . فمنذ أسبوع وهو كل ليلة يلف على اولاده جميعا يخبرهم بانهم يجب أن يبلغوا العمدة بالحكاية .. وما زالوا يقصون عليه القصة ويحكون له الحلم عشرات المرات حتى كاد العمدة يشك فى أنه هو نفسه قد حلم أيضا بهذا الحلم وانه رأى تماما الشيخ عبد الدايم وهو يخطر فى جلبابه الأبيض وعمامته الخضراء الضخمة وذقنه الطويلة المهيبة ومسبحته التى تتكون من تسعة وتسعين حبة وهو يمد يده ليملس على دماغ العمدة ويأمره باقامة مولد له هذا العام وعقب العيد مباشرة ..

والشيخ عبد الدايم هذا هو أكبر مشايخ قريتنا الذى يبلغ عددهم اربعة .. ولا يدرى أحد فى القرية بلد الشيخ عبد الدايم الأصلى ، فأجدادنا يحكون لنا أنه غريب عن القرية هبطها ذات مساء واقام فى المسجد ليل نهار يصلى بالناس ويخطب الجمعة ويلقى احاديث العصر ويقيم الذكر فى المساء ويحكون عن معجزاته العجب فيقولون انه كان أحيانا فى موسم الحج يختفى تماما من القرية ولا يدرى أحد أين ذهب حتى اذا ما انتهى موسم الحج ظهر فى القرية قبل أن يهبطها اى حاج ليقول للناس انه كان فى الحجاز يؤدى الفريضة .. والغريب فى الأمر ان بعض

الحجاج من قريتنا كانوا حينما يعودون من الحجاز ويسمعون الخبر حتى يؤكدون تماما أنهم رأوا فى الطواف رجلا يلبس أبيضا فى أبيض يشبه تماما الشيخ عبد الدايم ولا يستبعدون اطلاقا أن يكون هو .. فيقبل الناس من كل مكان ليقبلوا يده طالبين منه الدعوات الصالحات .. ولم يتزوج الشيخ عبد الدايم ولم ينجب ورغم ذلك فقد ظهرت طائفة من الناس فى القرية تدعى أنهم أولاد الشيخ عبد الدايم .. ومات الشيخ عبد الدايم وظل أولاده يتوارثون اسمه ويتقاسمون النذور التى تأتى الى ضريحه ..

ويبدو ان أولاد الشيخ عبد الدايم قد أحسوا منذ سنتين أو ثلاثة أن النذور التى تأتى الى ضريح الشيخ قد ابتدأت تقل حتى كادت ان تكون نادرة وأن بعض مشايخ القرى المجاورة الذين تقام لهم موالد ضخمة يكتسبون شهرة أوسع وأكبر من شهرة الشيخ عبد الدايم وبالتالى يكسب أولادهم وأتباعهم أكثر مما يكسب أولاد وأتباع الشيخ عبد الدايم ، فأخذوا يلحون على العمدة أن يقيم مولدا للشيخ والعمدة يعارض، والرجال كبار السن فى القرية يعارضون بشدة لأن اقامة مولد فى القرية معناه اضاعة هيبة البلد وبهدلتها وانتشار السرقات فيها .. فمع كل مولد لابد ان يأتى الفجر بخيامهم ونسائهم وأطفالهم وكلابهم .. !

والفجر قوم لا بلد لهم ولا مسكن يحملون خيامهم فوق حميرهم ويقولون بلاد الله لخلق الله يذهبون مع الموالد الى كل بلد .. لا يرعون حرمة لأى بلد ينزلون فيه ولا يأبهون بشىء على الاطلاق .. يقول عنهم أهل قريتنا والقرى المجاورة انهم خطافة ، حرامية ، يسرقون الكحل من العين .. نساؤهم يسرقن رجال القرى ورجالهم يسرقون نساءها وأطفالهم يسرقون العيش من أيد الأطفال فى الشوارع .. حتى كلابهم تجرى فى الحوارى وراء كلاب القرى لتسرق منها العظم .. لا قانون يحكمهم سوى قانون الخطف والسرقة ..

ونساء قريتنا أخشى ما يخشينه أن يهبط نساء الفجر الى القرية فنساء الفجر ـ فى رأيهن ـ عيونهن زائغة تندب فيها عصابة اذا نظرن للرجال فانهن ينظرن لهم بعيون محملقة لا تخجل ولا تتكسر تحت نظرات الرجال .. عيون تكاد رموشها تتكلم وتنادى على الرجال .. خدودهن حمراء قد لوحتها شمس الغيطان او كان حمرتها قد اكتسبت من النيران التى يشعلنها دائما امام الخيمة فى المساء ، أجسامهن ملفوفة مبرومة كعود الخيزران تنساب تحت الفستان الأسود اللامع فى تناسق يسبى عقول الرجال ! .

ومنذ ان طافت فكرة اقامة المولد بذهن أولاد الشيخ عبد الدايم واخذوا ينشرونها وسط الشبان ويطالبون بالمولد فى كل مكان . منذ هذه اللحظة والرجال الكبار السن يعارضون ويلتفون حول العمدة فى اصرار ليبعدوا عنه كلام أولاد الشيخ عبد الدايم .. حتى كان ذات



يوم مات فيه ثلاثة بغال للعمدة دفعة واحدة ولم يعرف سبب موتها ، ولم يستدر البدر بعد فى نفس الشهر حتى كان مخزن القمح قد اشتعلت فيه النار، وهاج العمدة وحقق وضرب الخفراء ولما لم يصل الى حل أيقن أن عينا اصابته .. وفجاة وبلا مقدمات مرض ابنه الكبير بالحمى ولزم الدار مريضا يتوجع .. واحتار العمدة واخذت تشيله افكار وتضعه افكار وهو يضرب كفا بكف ويسال .. ما الحل ؟ .. وكانت فرصة لأولاد الشيخ عبد الدايم .. فرصة من ذهب .. وانتهزوها .. ! وأخذوا يلتفون حول العمدة فى الدوار يشربون القهوة ويزنون فى آذانه طول النهار وطول الليل بأن الشيخ عبد الدايم يريد مولدا ككل مشايخ القرى المجاورة وأن الشيخ عبد الدايم كان كفيلا بمنع هذه المصائب لولا أنه غاضب من العمدة لأنه يعطل اقامة المولد .. وقلوب الناس فى قريتنا يرعشها حتى مجرد الخاطر العابر بأن حادثا ما يمكن ان يحدث .. فالرجل فى قريتنا مهما كان غنيا ومهما كان مستنيرا وحتى لو كان من أولاد أبو على الذين يشترون الأهرام كل يوم من البندر .. كل هؤلاء يفرحهم كل الفرحة دعاء ينبعث من لسان امرأة غلبانة . ويخيفهم كل

الخوف ان يدعى عليهم أحـــد حتى ولو كان مجذوبا يلبس خيشـــة على اللحم .

لذلك فقد خاف العمدة من كرامات الشيخ عبد الدايم وأمر باقامة المولد.. وطار الخبر فى القرية يقـول ان الشيخ نفسه هو الذى ذهب الى العمدة فى المنام ليالى طويلة ، بعضهم قال انها كل ليلة جمعة والبعض الآخر قال انها اسبوع وراء بعضه وفريق ثالث يؤكد أنه سمع العمدة نفسه يقول انه منذ شهر والشيخ يأتى اليه كل ليلة بعد صلاة العشـــاء ويظل يوصيه باقامة المولد ويوصيه حتى مطلع الفجر ..

وخاف المعارضون فى ان يجهروا برأيهم لئلا تصيبهم لعنات الشيخ عبد الدايم فهم كانوا يعارضون حينما كانت هـذه رغبة شباب القرية اما ما دامت هذه هى رغبة الشيخ نفسه فالعين لا يمكن أن تعلو على الحاجب .. وقد كان ..

وذات مساء اضيئت الأرض الفراغ التى تتوسط القرية بنور قوى وانتشرت عشرات الكلوبات فى انحـائها واقيمت المراجيح والخيمات الصغيرة .. واقبل الغجر بخيامهم واشتد الرقص والغناء الى الصباح ..

وظلت القرية اسبوعا لا يحسب من العمر .. أسبوعا بأكمله ظلت تسهر فيه لوش الصبح .. حتى جاءت الليـــلة الكبيرة فخرجت القرية بأكملها تتفـرج على الليلة الكبيرة وتتفرج على موكب الرؤية الضخم الذى يتقدمه أكبر أبنـاء الشيخ عبد الدايم بجلبـــابه الأبيض الحريرى والعقال الحجازى يطوق رأسه والكوفية تهفهف على أكتافه وهو فوق حصان ابيض أصيل ومن خلفه حمـلة السيوف يدقون بها أعناقهم ، ويلوحون بها فى الهواء فى هستيرية وحملة الدفوف والطبول يقرعونها فى قوة وعزم وكأنهم يدقون عليها لأول ولآخر مرة فى حياتهم ..

كانت النظرات التى تملأ وجوه الناس فى قريتنا نظرات عجيبة يشع منهـــا الابتسام ويشرق فيها البشر وتكاد تتسع لتطوق كل خلجات الوجه .. نظرات باسمة تحمل آلاف المشاعر وترسم آلاف الأحاسيس وتحكى حلاوة الأسبوع الذى عاشوه وتحكى أيضا مرارة الأيام التى سيعيشونها بعد هذه الليلة ..

كان كل شىء فى الليلة الكبيرة بهيجـا ومثيرا وحلوا .. كل شىء فى المولد كان يتلون بما يتمدد فى اعماق النـــاس من اشياء غامضة لعلها الفرح بالنور الذى يملأ القرية او لعلها الخوف من الظلام الذى سيبتلعها منذ اليوم التـالى .. النور الذى كان يتلألأ فى سماء قريتنا فى تلك الليالى كان يمسح عن القـلوب احزانها ويذيب الهمـوم التى كانت قد طوقتها فى ساعات النهار .

كل شىء فى الليلة الكبيرة كان يتخذ الوانه من داخل نفوس الناس كان الليل كان يغمس فرشاته فى اعماق النـاس ليلون بها الساحة والطريق وقمة المئذنة والوجوه .. !

واكتظت ساحة المولد بالشـبان .. جذبتهم الأنوار واجساد الراقصـــات والزحام فجاءوا ليقضـوا ليلتهـم فى المولد .. والنساء أتين من كل جهة فى القرية وصعدن الى اسطح المنازل التى تطل على الساحة واتكفين بصدورهن على الجدار وراحت عيونهن تتجول فى المولد وتندس فى الزحـــام تتحسس اجساد نساء الغجـــر وقلوبهن على الرجال ..

ولأول مرة لا تنام قريتنا من المغرب ..
ولأول مرة لا تدور الترابيس الضخمة فى الأبواب تغلقها باصرار مع غروب الشمس ..

الفرحة بالليلة الكبيرة جعلت الناس يغفلون عن كل شيء .. !

ومع خيوط الفجر عاد الناس الى بيوتهم ليناموا ويحلموا بالمولد ويمنوا النفس بمتع اكثر فى السنة المقبلة .. لمن يعيش .. !

وقبل أن يصفصف السامر تماما وتخلو الساحة من الناس كان الغجر يلمون خيامهم وينسابون مع خيوط الصباح الأولى الى حيث لا يعلم أحد ..

ولم تكن اعين الناس قد راحت فى النوم ، بعد حين انبعث من عدة اماكن فى القرية صرخات تعلن على أن شيئا قد حدث ..

وعندما استيقظ الناس والشمس تغمر كل القرية علموا ان بقرة محمد ابراهيم الذى يقع منزله بالقرب من ساحة المولد قد اختفت وان جاموسة علوان من شرق البلد قد راحت وان نبوية زوجة حسين ابو دومه قد قلبت الأرض بحثا عن حليها وقرشين الراجل تحويش العمر فلم تجدهما .. !

وظلت قريتنا بعد ذلك شهورا طويلة تتحدث عن السرقات التى حدثت وتؤكد فى اصرار ان الغجر ناس خطافة حرامية وغلطان هو الذى يسمح لهم بالاقتراب من منزله ولا يصح أبدا أن تسمح لهم أى قرية بالدخول فيها واقامة الموالد..

ولكن ما كاد يستدير العام ويقترب ميعاد المولد حتى نسى الناس فى قريتنا تماما هذه السرقات .. وأشرقت وجوه الشبان والرجال والأطفال وهم يحلمون بليالى المولد السعيدة .. وازدحم ضريح الشيخ عبد الدايم بالناس يتمسحون بتابوته ويلمسون بأيديهم على العمامة الكبيرة الضخمة المبنية فوق التابوت وهم يؤكدون فى كل مرة انه منذ ان اقيم المولد وكرامات الشيخ عبد الدايم تحل على القرية ..

واحيانا كان يحاول احد الرجال الكبار السن أن يعارض فى اقامة المولد ويحاول ان يذكر الناس بالسرقات التى حدثت .. كانت الرؤوس تهتز فى عنف واصرار وهى تؤكد أنه لم يحدث اى سرقات فى القرية .. وكيف تحدث السرقات والشيخ عبد الدايم يحميها وبركاته تمتد الى كل شبر فيها ..
واقيم المولد وسهرت قريتنا اسبوعا بأكمله .. وانفض المولد واكتشفت سرقات وصمم الناس على عدم اقامة المولد مرة اخرى ..

ولكن ما كاد العام يستدير حتى جاء الغجر ونصبت المراجيح واضيئت الساحة ..

وما زالت قريتنا الى الآن تقيم المولد كل عام .. وما زال الغجر يحضرون الى قريتنا ليرقصوا فيها ويسرقوها فى نهاية الأمر .. والرجال والنساء والأطفال فى قريتنا يؤكدون فى كل مرة انه لم يحدث أبدا سرقات .. وان كرامات الشيخ عبد الدايم تحمى القرية وتمتد الى كل شبر فيها .. !

لعنة السواد

تأليف : جون جريفين
عرض : عاطف نصار

قرر الكاتب الأمريكى جون جريفن أن يكتب عن اضطهاد الزنوج فى أمريكا ؛ لكنهأيقن انه لن يوفق فى مهمته ما لم يكن زنجيا يحس باحساسات الزنوج أنفسهم . فقرر أن يكون زنجيا .

وباستعمال بعض العقاقير وتعريض جسده للاشـــعة فوق البنفســجية تحت اشراف أخصائيين ، أمكنه أن يغيــر لون بشرته لفترة مؤقتة الى اللون الأسود ، ثم رحل الى الولايات الجنوبية من الولايات المتحـدة الأمريكية حيث التفرقة العنصرية على أشدها ... وقد سجل فى هذا الكتاب يومياته خلال مغامرته المثيرة التى استغرقت ستة أسابيع .. فجاء الكتاب بمثابة تقرير صـارخ عن اضـطهاد الملونين فى الولايات المتحـدة الأمريكية .. هز ضمير الراى العام الأمريكى كما هز ضمير العالم الحر باكمله . وهذا عرض ليومياته فى مغامرته المثيرة .

٢٨ اكتوبر ١٩٥٩ :

الح على هذا السؤال سنوات عديدة ؟ الا أن الحاحه على هذه الليلة لهو أكبر مما احتمل : لو قدر لرجل أبيض أن يتحول الى زنجى أسود يعيش فى أقصى الجنوب من الولايات المتحدة الامريكية فما الذى سيطرأ على نظام حياته ، وما هى صنوف العذاب التى سيتعرض لها بسبب بشرته الملونه ؟

ولقد ازداد الحاح هذا السؤال على اليوم بسبب تقرير فرغت من مطالعته ، يشير الى ازدياد نسبة حوادث الانتحار بين زنوج الجنوب ، فهذا ليس معناه أن هـؤلاء الزنوج يقتلون انفسهم بأيديهم ، بل هو فى الحقيقة يعنى انهم قد وصلوا الى مرحلة من اليأس تستوى فيها الحياة مع الموت .

٢ نوفمبر ١٩٥٩ :

وصلت نيو اورليانز بالطائرة امس وقت الغروب ، ونزلت فى ضيافة صـديق بالمدينة وقصدت صباح اليوم الى احد أطباء الجلد وشرحت له كيف أننى قررت أن أكون زنجيا ، وسألته عن احسن وسيلة لتغيير لون بشرتى لفترة مؤقتـة الى اللون الأسود ، فقام باجراء مشاورات مع بعض اصدقائه من الأطباء ، واتفقوا على أن احسن وسيلة لذلك هى تعاطى بعض الأقراص عن طريق الفم مع تعريض الجسم للأشعة فوق البنفسجية .

وتناولت تذكرة الدواء وعدت الى منزل صديقى فى نيو اورليانز حيث ابتدأت فى

تعاطى اقراص التلوين وحيث بدأت بعد ذلك بساعتين فى تعريض جسدى للأشعة فوق البنفسجية بواسطة مصباح شمسى معد لهذا الغرض .. وكنت قد اتفقت مع صاحبى على انه ينبغى الا يناقشنى فى مشروعى على الاطلاق ، كما أنه عليه الا يندهش اذا اختفيت من البيت فجأة دون سابق انذار ، فقد آثرت الا أقحمه بتاتا فى مغامرتى حتى لا يتعرض لأذى المتعصبين البيض ، اذا عرفوا عند كشف الستار عن مغامرتى انه قد آوانى او ساعدنى على تنفيذ أغراضى .

٦ نوفمبر ١٩٥٩ :

مضيت اربعة أيام مترددا على عيادة الطبيب او راقدا فى حجرتى بمنزل صديقى تحت الأشعة فوق البنفسجية .. ويبدو ان الطبيب قد تنبه أخيرا وبعد فوات الاوان لخطورة المشروع الذى نويت تنفيذه . بل انه بدا يحس اخيرا بوخز الضمير وثقل مسئوليته بالنسبة للمشاكل التى سأتعرض لها وكيف أنه ساعد على الالقاء بى فى موارد التهلكة ، فأخذ ينصحنى بأن أعدل عن المشروع ، لكنه اذ لمس اصرارى على عدم التراجع ، لم يجد مفرا من التسليم .

وقد كنت فى اوقات فراغى من زيارات الطبيب وجلسات الأشعة اخرج لاكتشاف شوارع المدينة ، فلفتت نظرى منصة لتلميع الأحذية بجوار السوق الفرنسى فى المدينة ، وكان يجلس الى هذه المنصة رجل ضخم الجثة الا أنه بادى الذكاء لبق الحديث ، فقد احدى ساقيه فى الحرب ، فقلت فى نفسى لعلنى أجد من هذا الرجل نفعا فى الدخول الى العالم الآخر بعد الانتهاء من صباغة جلدى ، فعرفته بنفسى ككاتب يتجول فى أعماق الجنوب لدراسة الأحوال المعيشية والاجتماعية ، واخفيت عنه الغرض الحقيقى لرحلتى الى الجنوب . أما هو فقد كان يدعى سترلنج وليامز ويعمل على منصة تلميع الأحذية بالاشتراك مع زميل آخر .

٧ نوفمبر ١٩٥٩ :

اصبحت اسود فى لون الفحم ولكن لما كان شعرى ناعما غير مفلفل شأن شعر الزنوج ، فقد نصحنى الطبيب بحلاقة راسى بشفرة الحلاقة ، ثم قال لى بعد ان كرر تحذيراته لى وبعد أن اكد على الاتصال به اذا تعرضت لأية متاعب :

انت الآن فى طريقك الى الجحيم .

ولشد ما كانت عملية التحول شاملة ومثيرة .. فبينما كنت أتوقع أن ارى نفسى فى هيئة رجل متنكر اذا بى اراني قد سجنت جسدى فى جلد رجل غريب عنى ، بل اننى احسست بأنى اصبحت رجلين فى جلد رجل واحد .

لقد عبثت بلغز الوجود وفقدت الشعور بكيانى الى درجة تدمرنى وتجعلنى احس بأننى انا الذى كنت حقيقة مرئية بالأمس قد أصبحت الآن انسانا ليس مرئيا !!

وبعد فترة من الرهبة والشعور بالوحدة القاتلة ، خرجت من بيت صديقى تحت جنح الظلام ، وقصدت مباشرة الى محطة السيارات العامة ثم جاءت السيارة

فركبتها وجلست فى المؤخرة حيث يجلس الزنوج وهناك لحظنى بعض الركاب الملونين بعيونهم دون ادنى شبهة أو ريبة . فايقنت اننى قد أتممت عملية التغيير الى اللون الأسود بنجاح .. وسألت احدهم على مكان استطيع ان اقضى فيه ليلتى فدلنى على فندق .. ذهبت اليه ودلنى صاحبه على حجرتى ، فراعنى انها عبارة عن جحر لا نافذة له ، فاترددت عنها مذعورا أنكر ما أرى ولكننى سرعان ما أدركت أنه قد يتعذر على كزنجى ان احصل على غرفه افضل .. فقضيت ليلتى فى هذا الجحر الصندوقى الذى لا نافذة له مؤرقا أشعر بالاختناق .

٨ نوفمبر ١٩٥٩ :

ما ان صحوت على ضوء النهار يتلصص من فرجة الباب فى حجرتى الصندوقية عديمة النوافذ حتى ارتديت ملابسى واخذت حقيبتى وخرجت الى الشارع ابحث عن طعام .. وسرت فى الشوارع بين ضجيج الزنوج وصيحاتهم وشتائمهم الفاحشة التى يتبادلونها على قارعة الطريق .. تمتلىء خياشيمى برائحة البيرة المثلجة والنبيذ المعتق واللحم البشرى الذى ينصهر تحت وهج أشعة الشمس .. ومناظر الزنوج سكارى يترنحون من شدة السكر تقابلنى فى كل مكان .. ، ووقفت عند قهوة متواضعة جدا ، وتناولت افطارا هزيلا لكنه باهظ الثمن . وسألت عن فندق نظيف للمبيت فأرشدونى الى فندق جمعية الشبان المسيحية ، ثم سألت عن كنيسة ومكان عام لقضاء الحاجة ، فاهتز المسئول من شدة الضحك وقال :

— عليك أن تذهب للكنيسة للصلاة من أجل العثور على مكان لقضاء حاجتك . وعليك أن تعرف جيدا أماكن وجود محلات الأدب ، والا فالأفضل لك الا تغادر بيتك ، لأنك قد تضطر فى بعض الأحيان الى المشى مسيرة نصف شوارع المدينة من اجل العثور على مكان تقضى فيه حاجتك ..

ولما كان محرما على كرجل أسود ان أقصد الى مقاهى البيض او مطاعمهم أو المحلات العامة الخاصة بهم فقد وطنت نفسى على التزام نصيحة الرجل الزنجى الذى تطوع بارشادى الى ما يجب ان أفعله .

واخذت سيارة عامة الى منصة تلميع الاحذية فى الحى الفرنسى الذى كنت قد اعتدت زيارته عندما كنت أبيض اللون ، ولكن صديقى سترلنج وليامز لم يتعرف على .. وعندما ذكرته بنفسى وبحذائى الذى اعتاد تلميعه قفز صائحا من شدة الدهشة :

— .. كيف لم اكتشف ذلك .. ولكن حدثنى لم وكيف فعلت ما فعلت ؟

فشرحت له كل شىء باختصار ، واتفقنا على مراعاة الكتمان ، وبدأ هو يغمرنى بنصائحه ، وان كان لم يخف قلقه على وخوفه من ان يتلصص على سرنا انسان .. وعندما جاء شريكه « جو » اتفق ثلاثتنا على ان أشترك معهم فى الجلوس الى المنصة اساعدهم فى تلميع الأحذية حتى اوفق الى عمل ، حيث ان هذا كان من ضمن برنامجى فى المغامرة .

واقبل علينا زبائن من الأمريكيين البيض فادهشني تبسطهم فى الحديث معنا وخاصة فى شئون المتع الجنسية وفسر استرلنج هذا قائلا :

ـ انهم كذلك ياصديقى .. فى غاية الديمقراطية ، عندما تكون غايتهم البحث عن فتاة زنجية .

وقام « جـو » بأعداد طعام الغداء ، وفى المسـاء اتجهت الى فنـدق جمعية الشبان المسيحية ، لكننى لم أجد مكانا ، ودلنى موظف الفندق على حجرة لدى سيدة تؤجر بعض حجرات بيتها للمبيت ، ودفعت أجرة المبيت مقدما حيث تبين ان هذا شرط أساسى بالنسبة لأى زنجى ، ونزلت الى مقهى فندق جمعية الشبان المسيحية لأتناول بعض الطعام فوجدت نخبة من الزنوج المثقفين قد التفوا على شكل ندوة فجلست اليهم . وتحدثنا عن مشكلة التفرقة العنصرية ، وعرفت منهم كيف ان المشكلة ليست بالجسامة التى هى عليها فى سائر ولايات الجنوب نظـرا لأن نيو اورليانز مدينة ذات طابع دولى ، الى حد ما ، ومليئـة بالكاثوليكيين الذين لا يخشون سطوة المتعصبين اذا هم اعتدلوا بعض الشىء فى معاملة الزنوج .

وفى الصباح خرجت أبحث عن طعام وعند ناصية من الطريق لمحنى غـلامان مراهقان ابيضان ، فنهض احدهما وتبعنى واخذ يستوقفنى ويهـددنى وينعتنى باقبح الألفاظ واحسست بطعم الخوف كمذاق الملح فى حلقى ، ولما طال تتبعه لى تذكرت اننى تمرنت يوما ما على المصارعة اليابانية ، فوقفت عند زاوية غير ملحوظة من الطريق ، وتحديت الغلام أن يتبعنى الى مخبأى لألقنه درسا لا ينساه . لكن الغلام لم يتبعنى بل مضى من طريق آخر . فواصلت السير حتى قابلتنى كنيسة كاثوليكية فجلست على أول درج من درجات سلمها واحتملت رأسى بين يدى أشكو ضعفى وهوان أمرى بسبب لونى .



١٤ نوفمبر ١٩٥٩ :

اسبوع من المشى المستمر استهلكته تقريبا فى البحث عن عمل ككاتب على الآلة او كاتب حسابات لكن دون جدوى .. كنت مدفوعا الى حب المعرفة .. **ترى أى نوع من العمل يستطيع أن يحصل عليه زنجى متعلم حسن الهندام ؟** ولقـد كانت الاجابة على هذا السؤال مرة لا تحتمل .. فليس من فرصة لعمل نظيف يتكافأ مع تعليم الزنجى او خبراته .. ولم اجد مفرا فى كل مرة تكل فيها قدماى من عنـاء

البحث الا العودة الى منصة تلميع الاحذية .. فهذا هو نوع العمل الذى يستطيع أن يؤديه الرجل الزنجي فى الجنوب متعلما كان أم غير متعلم .

واشتهيت فى تجوالى بحثا عن عمل ، الى الاكل فى مطعم نظيف ، لكننى احجمت عن المحاولة لا لشيء الا لأنه قد حدث أن وقفت مرة أسترق النظر الى واجهة أحد هذه المطاعم القاصرة على البيض ، فقابلتنى نظـرات الامتعاض والتأفف من كل اتجاه ، ثم اذا بى أجد زنجيا يربت على كتفى ويقول :

ـ تستطيع ان تعمر الى ما شاء الله .. لكنك ابدا لن تجد الفرصـة لدخول مطعم كهذا الا من الباب الخلفى كعامل فى المطبخ ..

وحتى الحدائق العامة قد حيل بيننا وبينها سواء منها ما كان مسموحا لنا بارتيادها او ممنوعا ، فقد تصادف فى تجوالى أن مررت بحديقة عامة فى منتصف أورليانز ، وكانت ساقاى تتهاديان من شدة التعب فانتحيت جانبا من الحديقة وجلست أستريح ، لكن رجلا أبيض القى الى من طرف لسانه بهذا الأمر :

ـ خير لك ان تبحث عن مكان آخر ..

وعندما رويت الحادثة لبعض الرفاق الزنوج فى مقهى جمعية الشبان المسيحية ضربوا كفا على كف وقالوا ان هذا المكان غير ممنوع علينا ، وكل ما هناك أن ذلك الرجل قد تأذى من شكلى فأمرنى بمغادرة المكان .

وثمة داهية أخرى لاحقتنى عند ركوب السيارات العامة ، ذلك ان السائق كان لا يسمح لى أو لغيرى من الزنوج بالنزول فى محطة وصولنا،الا اذا تصادف نزول أحد من البيض فى نفس المحطة . ورغم ذلك فقد قيل لى ان كل هذه الصنوف من العذاب محتملة بالقياس الى ما يلقاه الزنوج فى المسيسبى من ويلات .. فقررت أن اذهب الى هناك .. وعندما صارحت زميلى فى العمل على منصة تلميع الأحـذية بنيتى صرخا فى وجهى وطلبا منى الا أفعل وقال سترلنج :

ـ انهم يعاملوننا هناك معاملة الكلاب !

فقلت له :

ـ ان ذهابى الى هناك يعتبر جزء هاما من عملى .

ولم يكن لدى عند ذاك ما يكفينى من النقود فحاولت صرف شيكات سياحية من المحلات العامة ، كما هو متبع دائما فى غير أوقات عمل البنوك فقد كان اليوم يوم السبت بعد الظهر والبنوك لا تعمل فى هذا الوقت ، لكن فتيات المحلات الرقيقات الحسناوات اللاتى كن يعاملننى بكل لطف ورقة عند ذهابى للشراء ، قابلننى هذه المرة بالامتعاض والتأفف ورفضن صرف أى شيك سياحى لى ، بل وعاملتنى فتيات البيع فى كل المحلات التى قصدتها كما لو كنت قد سرقت هذه الشيكات او حصلت عليها من طريق غير شريف .

وقررت ان ابقى بنيو اورليانز الى يوم الاثنين حتى استطيع أن اصرف بعض النقود من احدى البنوك فلم يكن ما معى يكفينى للذهاب الى المسيسبى ، لكننى فجأة وجدت مكتبة كاثوليكية مفتوحة ، فدلفت اليها وأنا أعلم تسامح الكاثوليكيين فى معاملة الزنوج وادهشنى أن فتاة المكتبة صرفت الشيك بكل سرور ، فاشتريت بعض الكتب وانصرفت .

واتجهت الى محطة السيارات المتجهة الى المسيسبى واخرجت ورقة من فئة العشرة دولارات الى فتاة الشباك وطلبت منها تذكرة السفر ، لكنها قابلتنى بوقاحة شديدة وعيناها تقدح بالشرر والكراهية المقيتة ، ورفضت اعطائى التذكرة لأنه ليس لديها فكة عشرة دولارات .. وكانت النظرة اقسى من أن تحتمل ، عرفت فيها معنى ما يسميه الزنوج بنظرة الكراهية .. لكننى تعمدت الالحـاح عليها فى أدب بينما شددت هى من نظرة الكراهية بدرجة تدعو الى التسلية .. وأمام الحاحى ، لم تجد مفرا من قبول ورقة النقد ، لكنها القت بالتذكرة فى وجهى ورمت بباقى النقود على طول ذراعها فانتشرت كلها على الأرض فانحنيت التقطها وتساءلت فى نفسى ترى ماذا يكون شعورها لو عرفت ان هذا الرجل الذى تصرفت أمامه بوقاحة شديدة لا تليق بسيدة محترمة ما هو الا رجل أبيض ؟ .

وجاءت السيارة وركبت فى المؤخرة الى جانب اخوانى من الزنوج ، ورغم ان التفرقة العنصرية فى السيارات العامة ممنوعة الا انه ما من زنجى كان يجرؤ على الجلوس فى المقدمة أو الى جوار رجل أبيض . وقد لاحظت انه كلما اقتربنا من ولاية المسيسبى كلما ازداد التوتر بين الزنوج الراكبين فى السيارة ، وقد زاد هـــذا التوتر عندما أعلن السائق فى احدى المحطات ان السيارة ستتوقف لمدة عشرة دقائق يستطيع الركاب فيها أن يقصدوا الى الاستراحة لقضاء حاجتهم أو تمشية عضلاتهم التى تسمرت من طول الجلوس .. وفتح الباب وابتدأ النزول وعندما جاء دورنا نحن الزنوج ، قصف الباب فى وجوهنا ولم يسمح لأحد منا على الاطلاق بالنزول ، وجعل فى أذنيه سدا ، فلم ينصت لتوسلاتنا اليه باعطائنا حق النزول . وامام يأس هذه المحاولات رجعنا جميعا خائبين الى أماكننا ، لكن واحدا منا نهض ثانية وقال :

— حسنا .. اذا كنت لا أستطيع الذهاب الى الاستراحة ، فلا حرج على أن اقضى حاجتى هنا .

وذهب الى مؤخرة السيارة وفعل ما ظن انه الصواب وصاح آخر ، لنقم جميعا ولنفعل مثلما فعل لكن كثرة الحاضرين استنكروا أن يتم ذلك ، مخافة أن يستغل دعاة التفرقة العنصرية هذه الحادثة للتشهير بنا .

وواصلنا المسير بعد ذلك ، فوصلنا هاتيسبرج احدى مدن المسيسبى مع مطلع الليـل ، ولحظ بعض الرفاق من الزنوج انى أزور المسيسبى لأول مرة فتفضل على بسيل من النصائح والتحذيرات : **« اياك أن تنظر الى امرأة بيضاء . اياك أن**

تلتفت يمنة أو يسرة فى سيرك . اذا تبعك غلام من غلمان البيض فواصل سيرك دون ان تلتفت الى الوراء ، والا تعرضت لأذاهم . بل وربما سلبوك ما معك من نقود » .

وهكذا .. سيل من النصائح جعلنى أشعر بالكآبة والوحدة القاتلة تعتصر قلبى .

ومشيت فى شارع موبايل ممتلئا بهذه النصائح . وفجأة مرت بى سيارة مسرعة تحمل حفنة من الرجال والغلمان البيض ، ما ان رأونى حتى صاحوا بى بأقذع الألفاظ وصوبوا الى راسى قذيفة من قشر الموالح لكنها اخطأتنى لحسن الحظ وانفجرت على المبنى المواجه لهم .

ولم أوفق فى العثور على مكان للمبيت الا بعد جهد جهيد ، ومحاولة مخلصة بذلها بعض رفاق السيارة أثمرت فى النهاية عن حجرة فوق سطح كوخ خشبى ، لم تعرف معنى للطلاءمنذ وجدت ، تكاد تتداعى تحت وقع أقدامى ، فارتضيت المبيت فيها مكرها ، بعد ان أكد الرفاق الزنوج انها مأمونة . واضات نور الحجرة فرايت فى مرآة مشروخة على أحد جدرانها صورة الزنجى القح الذى هو أنا ، يبحلق فى من خلال المرآة المغبشة ، فأحسست باننى فى جهنم . بل فى أسوأ من جهنم ، اذ ان جهنم لا يمكن ان تكون اكثر وحدة او افلاسا من أى أمل مثل هذا المكان .

وجاءت الى أصوات الموسيقى صارخة صاخبة تصاحبها ضحكات الزنوج عاتية عاصفة فعرفت كيف أنه ينبغى على ضحكاتهم ان تتسع حتى تتحول الى قهقهات معربدة ، كى لا تتحول الى نحيب ، حيث لا ينبغى عليهم الا ينتحبوا لأنهم لو انتحبوا لأدركوا الحقيقة ، ولو ادركوها لأسلمتهم الى اليأس .

وفى الصباح احسست أنه لن يمكننى ان أعيش فى هذه الحجرة يوما آخر .. كما انه من المستحيل ان امشى مرة أخرى فى شوارع هاتيسبرج وتذكرت أنى أعرف صديقا صحفيا فى هاتيسبرج ، ففكرت فى الالتجاء اليه خاصة وأنه ممن يناهضون التفرقة العنصرية .. فاتصلت به وسرعان ما جاء الى نجدتى واخذنى الى بيته .

١٩ نوفمبر سنة ١٩٥٩ :

عاد بى صديقى الصحفى بسيارته الخاصة من هاتيسبرج الى نيواورليانز ، وتركنى فى شارع القناة حيث قصدت من فورى الى مطعم للملونين تناولت فيه وجبة من الفاصوليا والأرز ، ثم ذهبت الى محطة السيارات العامة قاصدا هذه المرة الى مدينة بيلوكسى فى ولاية المسيسبى ، وكان هناك فسحة من الوقت على موعد الرحيل ، فقصدت الى غرفة الاستراحة لقضاء الحاجة ، ولفت نظرى وجود بقايا رغيف على الأرض الى جوار مقعد الفائط ، فعجبت لهذا الزنجى الذى قصد لهذا المكان فتناول وجبته من هذا الرغيف لكن الذى شد اهتمامى أكثر من ذلك كان تلك اللافتة المثبتة خلف الباب والتى تتحدث عن قائمة أسعار تقديم الفتيات

الزنجيات للمتعة الجنسية للرجل الأبيض والتى تتفاوت صعودا وهبوطا حسب عمر الفتاة ، وتبلغ اقصاها اذا جمعت البنت بين صفتى البكارة وصغر السن .

... وقد علمتنى مثل هذه التجربة أن أشعر بصفتى زنجيا بالاستعلاء على الرجل الأبيض ، ذلك الرجل الذى يكشف عن الجانب الخفى من حياته بلا حياء للرجل الزنجى بشكل يدل على انحطاطه . وانه لما يدعو للسخرية ان هذا الرجل نفسه هو الذى يتهم الرجل الزنجى بفساد اخلاقياته ..

... وجاء موعد السيارة المتجهة الى بيلوكسى فركبت فى المؤخرة بين اخوانى الملونين ووصلت بيلوكسى فى وقت متأخر لأجدها قد اقفرت من الزنوج فقد لجأ كل منهم الى بيته .. فرحت ابحث عن مكان للنوم .. ولم أجد سوى كشك من الصفيح عبارة عن ثلاث حوائط فقط ، قضيت فيه ليلتى نصف متجمد من شـدة البرد .. وعندما أصبح الصباح لجأت الى أول مقهى زنجى حيث تناولت افطارى ثم سرت أتسكع فى طريق السفر بالسيارات وكان الطريق يمتد أميالا بحذاء شاطىء البحر وقد كان هذا الشاطىء المميز برماله البيضاء الناعمة من أجمل الشواطىء التى رايتها فى حياتى ، وقد عرفت من زنجى قابلنى أثناء تسكعى أن هذا الشاطىء صناعى وأن الرمال التى تغطيه ليست من صنع الطبيعة بل ان الانسان الملون قد حملها اليه . لكنهم قد حرموه من الاستمتاع بها رغم أن مصاريف صيانة هـذه الشواطىء تحصل من ضرائب البنزين التى يدفعها الزنجى والأبيض على حد سواء .

وواصلت السير استوقف من وقت لآخر سيارة اطلب من قائدها اصطحابى جزءا من الطريق . وكم كانت دهشتى عندما تبينت ترحيب قائدى السـيارات البيض بالتقاطى فى كل مرة .. لكننى سرعان ما تبينت السبب ، اذ أنهم جميعا كانوا يرون فى الرجل الأسود جعبة لا تفرغ من التجارب والخبرة الجنسية ولهذا كانوا يسالوننى فى شئون الجنس وكيف أمارسه ، وعبثا حاولت اقناع الواحد منهم بعد الآخر أننا لسنا بدعا من البشر .. لكنهم جميعا لم يكونوا يقتنعون بما أقول بل انهم يؤكدون اعتقادهم الراسخ بأن الرجل الأسود عبارة عن جهاز جنسى لا يكل ولا يتعب ، وانه يتميز بعضو تذكير من حجم غير عادى .. وكان أمامى فى كل مرة سبيلان لا ثالث لهما ، اما ان اسلم بما يقولون او اتوقع منهن ان يطلبوا منى النزول فى اقرب فرصة بدعوى انهم سيسيرون فى غير الاتجاه الذى سأسير فيه . وحدث أن اتهمنى أحدهم عندما انكرت عليه دعواه بقدرة الرجل الزنجى الجنسية الخارقة باننى ناقص الرجولة . وقد بلغت تجربتى مع هؤلاء القوم مداها عندما طلب منى أحدهم ان اخلع ملابسى لكى يرى بنفسه حجم العضو التناسلى عندى .. بل ولقد سالنى آخر عما اذا لم تكن امراتى قد مارست الجنس مع رجل ابيض .. وهكذا كان يبلغ بى الحرج منتهاه فلا اتغلب على الموقف الا بالصمت المطبق ، والنظر الى مواقع اقدامى ، وانتظار كلمة الافراج وهى عادة لا تتغير : **((هنا عليك أن تواصل السير على قدميك .. فاننى سائر فى اتجاه غير اتجاهك))** .

... لكن الدنيا لا تخلو ابدا من بقية متواضعة من معانى الخير .. **فقد التقطنى فى النهاية** رجل ابيض خشن الملامح لكنه رقيق القلب . سألنى عن وجهتى **فقلت له** انى فى طريقى الى موبايل ثم وقف بى فى منعطف من الطريق .. وسألنى **أن آتى معه الى** كشك شطائر قائم عند المنعطف ان كنت جائعا ، فقلت له انى **لا استطيع ذلك لاننى** رجل اسود . فقال لى : « تبا لهم .. سوف اذهب وآتى **بالشـــطائر وناكلها** سويا فى السيارة » وتساءلت فى نفسى ترى ما الذى يجعل **هذا الرجل** رقيقا معى الى هذه الدرجة .. فتبينت فى النهاية أن لدى هذا الرجل طفلا يحبه حبا جما الى درجة جنونية ، فقلت فى نفسى ، لعله الحب قد أضاء حياة الرجل .. اذ علمه حبه لابنه ان ينظر للدنيا كلها بعين الحب ، وتذكرت عندئذ قول احـــد القديسين **« عليك بالحب .. ثم افعل بعد هذا ما بدالك »** .

ووصلت الى موبايل ، وهناك تعرفت على رجل زنجى عجوز تطوع بتدبير امر مبيتى فى بيته المتواضع ، وكان لى معه حديث عنه وعن عائلته عرفت منه ان له ولدين يدرسان القانون فى جامعات الشمال ، يتمنى هو ألا يعودا أبدا الى موبايل مسقط راسهم ومهد صباهم . وعندما قلت له بدافع المجاملة انه لابد **لهمـــا** وان **يعودا من وقت لآخر** لرؤية ابيهم قال لى باخلاص وايمان :

— كلا .. أنا **لا** اريد لهما أن يعودا على الاطلاق .. وهما لن **يعودا الا** لمواراة جسدى التراب ، فهذا خير لهما اذا كانا يرغبان فى حياة رغدة . **وكثير من ابنائنا** هنا فى الجنوب يفعلون ذلك .. ولعل هذا هو ما يفتت عائلات الزنوج .



٢١ نوفمبر ١٩٥٩ :

قضيت ثلاثة ايام فى موبايل أجول شوارعها بالنهار باحثا عن عمل ، واقابل مضيفى الأسود العجوز فى الغروب ونعود سويا الى بيته لقضاء الليل .. ومرة أخرى كان يضيع الجزء الأكبر من النهار فى البحث عن مطعم اتناول فيه وجبة من الطعام او مكان استطيع فيه الحصول على شربة ماء ، أو استراحة استطيع فيها أن اقضى حاجة عرضت .. وعلمتنى التجربة أن أكثر من الأكل والشرب اذا توفرت الفرصة لذلك ، فما يدرينى لعل ذلك قد لا يتيسر اذا صرخت المعدة من الجوع بعد حين ، أوجف حلقى يعلن الظمأ بعد مسيرة قصيرة .

... اما محاولات البحث عن عمل يتناسب بعض الشيء مع امكانياتي ، فقد باءت كلها بالفشل . ولقد تلقيت الاجابة صريحة في احد المصانع عندما صرخ في الرجل الأبيض :

ـ لا تضع وقتك عبثا .. فنحن نقوم بتطهير الوظائف الحسنة منكم تدريجيا في هذا المصنع . وعندما سألته كيف استطيع ان اكسب عيشي قال لي في بساطة :

ـ هذه هي خلاصة الموضوع .. فاعلم اذن اننا سنبذل كل ما في وسعنا كي نستنزل عليكم اللعنة الكبرى ونخرجكم جميعا من هذه الولاية .

... وواصلت سيري في شوارع مدينة موبايل ، ذلك الميناء الذي كنت اراه جميلا بنسيمه الهادىء ومناظره الحلوة .. لكنني اليوم لا اراه كذلك .. ويكفيني أن أرى عمال الميناء الملونين ، كل منهم يشد حزاما على منطقته وينوء بالاحمال الثقيلة فوق ظهره ، فتثيرني مناظرهم وأرى أن دواب الحمل احسن حالا منهم .. ويملؤني الحزن والقنوط من معاملة البيض الذين يعملون فعلا على ابادة الجنس الأسود ، الا من تلك الفئة التي يتخذون منها دوابا رخيصة لرفع احمالهم .

٢٤ نوفمبر ١٩٥٩ :

قررت السفر الى مونتجمرى بولاية المسيسبي ايضا ، ومرة اخرى لجأت الى طرق السفر بالسيارات ، ومرة اخرى تعرضت لصفاقات البيض الذين كانوا يلتقطونني مسيرة جزء من الطريق . وقد تعرضت خلال سفري بهذه الطريقة الى مدينة مونتجمرى لتجربة جديدة كادت تودى بحياتي . فقد ركبت الى جـوار احدهم وكان يضع الى جواره بندقية رش ، فحدثتني نفسي بالشر ، خاصة واني كنت قد سمعت أن بعضهم يتخذ من صيد الملونين ببنادق الرش هواية محببة له .. وأدرك الرجل حقيقة مشاعري فقهقه ضاحكا وقال لي : « لا تخف .. فهذه البندقية لصيد الغزلان لا الملونين » . وعندما بدأ يدخل معي في الحديث المتكرر ، حديث الجنس ، راح يسألني عما اذا كانت زوجتي قد استمتعت برجل أبيض ، ويؤكد لي انه ما من فتاة زنجية الا وقد نالها رجل ابيض .. وعندما عبرت عن استنكاري لهذه الدعوى . قال بانه يستأجر عددا كبيرا من فتيات الزنوج في الاعمال المنزلية ، وانه ما من فتاة التحقت بالعمل عنده ، الا وقد تذوقها قبل أن يدفع لها بأول أجر تتقاضاه منه .. فلما قلت له في استحياء انه لابد وان توجد من بين فتيات الزنوج من يرفضن ذلك .. زأر في وجهي قائلا بأنهن لابد وان يفعلن ذلك جميعا والا لتضورن جـوعا . ولما أن عبرت عن استيائي لهذه الحال قال لي في تبجح :

ـ تبا لك .. كيف تستاء لهذا وقد كان احرى بك أن تعتبره صـنيعا طيبا نؤديه لكم بادخال بعض دمائنا البيضاء في عروق أطفالكم ؟!

.. وهنا بلغ فجور الرجل منتهاه .. ولذت أنا بحبال الصمت أعبر بها عن امتعاضي الشديد ، فثارت ثائرة الرجل لعدم تجاوبي معه في الحديث وراح يحذرني من أن اكون من مثيري الشغب في الجنوب والا فسوف اقتل شر قتلة وبلقى بجثتي في اي مستنقع .. وبعد ان افرغ في اذني ووجهي ما شاء من الفاظ التهديد والتحقير ، وقف بسيارته ودفع بي الى الخارج وقال :

ـ أعلم بأننا سوف نظل نستأجركم في أعمالنا .. وأننا سوف ننال نساءكم وإلا أبدناكم عن آخركم .

... ولقد جاءني الرد على هذا الافك بأسرع من رجع الصدى .. فقد التقطتني من بعد ذلك سيارة قديمة عتيقة لرجل زنجي تزحف على الأرض .. وسرعان ما تفاهمنا سويا .. ولما كان الليل قد شمل الكون فقد سألته عن مكان للمبيت فعرض على المبيت في بيته ، لانه لن يتيسر لي غير هذا على الاطلاق .. وأفهمني انني سوف أبيت عنده على الأرض .. لأنهم لا يقتدرون على اقتناء الاسرة .. وكانت عائلة هذا الزنجي مكونة من زوجته وثلاثة أطفال .. وعجبت كيف يتأتى لهم أن يعيشوا بدخل عائلهم المحدود ، وسألته عما اذا كانت الزنجية تضطر لممارسة الجنس مع الوحوش البيض في سبيل تعويض نقص الدخل فقال لي بكبرياء وإباء :

ـ كلا يا سيدي .. فخير لنا أن نأكل الفاصوليا بلا لحم .. ونعيش في سعادة من أن نأكلها باللحم وننحني رؤوسنا للبيض .

... وفي الصباح واصلت السفر الى مونتجمري فوصلت اليها آخر النهار . اتغنى بكلمات سمعتها من صوت زنجي حزين كان يغني في الليلة السابقة .. فيتجاوب صوته مع صمت الليل والكون بأكمله ينصت له اذ يقول فيما يقول : ـ

الليل يأتيني في حنان

الليل زنجي حبيب

وجهه أسود مثل وجهي

٢٨ نوفمبر ١٩٥٩

قضيت ثلاثة ايام في مدينة مونتجمري عاصمة ولاية المسيسبي .. ولاحظت أن الزنوج في هذه العاصمة يتبعون طريق المقاومة السلبية في مناهضة التفرقة العنصرية ، ويقود هذه المقاومة بينهم مارتن لوثر كينج ، الذي تعتبر فلسفته بمثابة رجع الصدى لفلسفات غاندي .. فالصلوات والطرق السلمية المنظمة هي فلسفته في مقاومة طغيان الرجل الأبيض .. وقد أحسست في هذا البلد بأن الزنوج والبيض يقفون ككتلتين متواجهتين من الأسمنت المسلح .. بينهما برميل من البارود .. ولا أستطيع أن اكتم خشيتي من ان تنطلق الشرارة الى هذا البرميل .. محدثة

الانفجار الرهيب .. ويومها ستكون فتنة لا تصيبن الذين ظلموا خاصـــة ، بل ستتعداها الى الشرفاء والابرياء جميعا .. فلقد ابتدأ بعض الزنوج نغمة جديدة تقول بامتياز الجنس الأسود .. وهذا من شأنه أن يزيد الهوة بين الجانبين .

١١ أبريل ١٩٦٠

عدت فى ديسمبر ٥٩ الى المجتمع الأبيض وتخلصت من آثار عقاقير التلوين والاشعة فوق البنفسجية .. وعرف الناس فى كل مكان بمغامرتى ، فقد قامت احدى الجرائد المحلية بنشرها على حلقات . ونشرت عنها مجلة تايم الأمريكية تقريرا كاملا مفصلا .. كما كانت المغامرة موضوعا لسلسلة من البرامج التليفزيونية المحلية الامريكية والعالمية ، وقد أثارت مغـــامرتى ثائرة المتعصبين فى بلدتى « فورث ورث » فقاموا بتهديدى وتهديد أبى وأمى ، بل قاموا بتشكيل تمثال لى وقاموا بشنقه على أحد أعمدة التلغراف بالمدينة ، بعـــد أن لونوا وجهى باللونين الأبيض والأسود .. وحددوا يوم ١٥ يوليو ١٩٦٠ لانزال القصاص بى .. فقمت بترحيل اسرتى وترحيل ابى وامى الى احدى مدن الشمال ، حيث التفرقة العنصرية اخف وطأة .. وقررت ان انتظر موعد القصاص لأرى ما يفعلون .

١٧ أغسطس ١٩٦٠

اجل الغوغاء موعد القصاص الى ١٥ أغسطس ١٩٦٠ . وكنت قد قررت الرحيل عن المدينة ، ولكننى فضلت تأجيل موعد الرحيل لأرى ماذا يفعل الغوغاء البيض فى ١٥ أغسطس ١٩٦٠ .. لكنهم لم يتعرضوا لى .

ورحلت عن المدينة التى عشت فيها أغلب عمرى وكتبت فيها أحسن اعمالى .. وكان معى فى السيارة ما يزيد على ستة آلاف رسالة تشجيع فيما عدا تسعة رسائل فيهـــا رســـائل توبيخ وتهديد ، وقد جاءنى عدد كبير من هذه الرســـائل من البيض الذين يعيشون فى اقاصى الجنوب حيث فوضوية التفرقة العنصرية تنشر اجنحتها فى كل مكان .. وقد اكدت لى هذه الرسائل أن رجل الشارع الجنوبى الأبيض لا يؤمن بالتفرقة العنصرية بل هو اكثر اعتدالا مما يبدو لجيرانه ، ولكنه يخشى بطش المتطرفين البيض اذا هو أعلن رأيه فى القضية بصراحة .



دعوة لحمل السلاح

كانت لي في شبابي أحلام كثيرة نسيت معظمها ، لكنني لست أجد في ذلك ما يدعو للأسف . فرغم أن استعادة الماضي قد تسعد الانسان ، وقد تشعره بالوحشة أيضا في بعض الأحيان ، الا أنه ليس ثمة هدف وراء تشبث الروح بالأيام الخوالي الموحشة . غير أن قلقي يتمثل في أنني لا أستطيع أن أنسى نسيانا تاما . وقد نشأت هذه القصص عن الأشياء التي لم تكن ذاكرتي قادرة على تفاديها .

لقد اعتدت لأكثر من أربع سنوات أن أتردد بصفة يومية تقريبا على محل رهونات وصيدلية . ولست أذكر كم كان عمري أنذاك ، لكن ارتفاع منضدة البيع في الصيدلية كان مساويا لطولي ، بينما كان ارتفاع منضدة البيع في محل الرهونات ضعف طولي . واعتدت أن أضع الملابس والمصاغ الرخيص على المنضدة التي تساوي ضعف طولي ، وأتناول النقود التي تقدم لي بازدراء ، ثم أذهب الى المنضدة التي تساوي طولي فأشتري دواء لأبي الذي كان مريضا لفترة طويلة .

وفي أثناء عودتي الى البيت كانت ثمة أمور أخرى تشغلني ، فمع أن الطبيب الذي حرر قوائم العلاج كان مشهورا جدا ، الا أنه كان يستخدم عقاقير غير عادية : جذر نبات الند (الصبر) يقتلع من الأرض في الشتاء ، قصب سكر يكون قد مضى على تعرضه للبرودة والرطوبة ثلاث سنوات ، توأم جراد ، حجر ردواز .. وكانت كلها أشياء عسيرة المنال . لكن مرض أبي سار من سيء الى أسوأ حتى مات .

واعتقد أن الذين ينزلون من حالة الرخاء النسبي الى الفقر سيدركون على وجه الاحتمال ، أثناء عملية النزول هذه ، القيمة الحقيقية لما يبدو عليه العالم في مثل هذه الأحوال . لقد أردت أن التحق بمدرسة « أكاديمية كيانجنان البحرية في نانكنج » ، وربما لأنني كنت أنشد تغييرا للمناظر والوجوه . ولم يكن أمام أمي سوى أن تخصص ثمانية دولارات لنفقات سفري ، وأن تتركني أرحل . لكن بكاءها كان أمرا طبيعيا ، نظرا لأن أنسب شيء في ذلك الوقت كان أن أدرس الأدب القديم وأن أتقدم للامتحانات الرسمية . وكان الناس ينظرون الى من درس « الموضوعات الأجنبية » كشخص لا يصلح لشيء ، مضطر الخروج من يأسه الى بيع روحه للشياطين الأجانب . زد على ذلك أنها كانت آسفة لفراقي .

ومع هذا ذهبت الى نانكنج والتحقت بمدرسة كيانجنان ، حيث سمعت لأول مرة أسماء موضوعات مثل علم الطبيعة والرياضيات والجغرافيا والتاريخ والرسم والالعاب البدنية . ولم يكن بالمدرسة منهج للفسيولوجيا لكننا شـــاهدنا طبعات بالحروف البارزة لمؤلفات مثل « منهج جديد للجسم البشرى » و « مقالات فى الكيمياء والصحة » . واذ رحت أستعيد حديث ووصفات الأطباء التى كنت قد عرفتها وأقارنها بما عرفته الآن ، انتهيت الى نتيجـة مؤداها أن أولئك الاطباء لابد أن يكونوا أحد نمطين : أما أنهم أغبيـــاء أو أنهم دجالون عن عمد . وبدأت اتعاطف مع الضعفاء والأسر التى قاست الأمرين على أيديهم . كما تعلمت من التواريخ المترجمة أن نشأة حركة الاصلاح فى اليابان ترتبط الى حد كبير بدخول علم الطب الغربى الى اليابان .

وساقتنى هذه الافكار غير المتبلورة الى كلية اقليمية لدراسة الطب فى اليابان . وتراءى لى حلم جميل بأننى عند عودتى الى الصين سأشفى المرضى ممن على شاكلة أبى الذى عولج خطأ ، بينما سأعمل اذا نشبت الحرب طبيبا بالجيش ، وفى الوقت نفسه اشد أزر ايمان مواطنى بالاصلاح .

ولست أدرى أية طرائق متقدمة تستخدم الآن فى تعليم علم الميكروبات لكن الأفلام كانت تستخدم فى ذلك الوقت لاظهار الميكروبات . وكانت المحاضرة اذا انتهت قبل موعدها شغل المدرس الوقت بعرض أفلام للمناظر الطبيعية أو الأخبار . وكان ذلك ابان الحرب الروسية اليابانية ، ومن ثمة كانت هناك أفلام كثيرة عن الحرب ، وكان على أن أنضم الى جمهور المصفقين والهتافين فى قاعة المحاضرات مع غيرى من الطلاب . وكان قد مضى على وقت طويل لم أر خـــلاله اى مواطن من بلدى ، لكن حدث ذات يوم أن رأيت أفلاما تصور بعض الصينيين ، وكان أحدهم مقيدا بينما جلس حوله كثيرون غيره . كانوا جميعا أقوياء لكن البلادة التامة كانت تبدو عليهم . أما الرجل الذى قيدت يداه فكان كما قال معلق الفيلم يعمل بالتجسس لحساب الروس وقد حكمت عليـه القوات اليابانيـة بقطع رأسه ليكون عبرة لغيره ، بينما جاء الصينيون الذين بجواره للاستمتاع بالمشهد .

وقبل أن ينتهى الفصل الدراسى كنت قد غادرت تانكيتو الى طوكيو لأننى أحسست بعد هذه الحادثة أن علم الطب لم يكن علاوة على ما تقدم ذا أهمية كبيرة ، فشعب البلد الضعيف المتخلف لا يمكن أن يصلح رغم تمتع أفراده بالقوة والصحة الا ليكون عينات أو شهودا لأمثال هذه المناظر المؤسفة ، وليس مما يرثى له بالضرورة أن تقوم أهمية لعدد الذين يموتون بسبب المرض . فأهم شىء بالتالى هو أن تغير روحهم . ولكنى أحســت فى ذلك الوقت بأن الأدب هو أفضل وسيلة لتحقيق هـــذه الغاية ، فصممت على أن أقوم بالدعوة الى حركة أدبية . وكان فى طوكيو كثيرون من الطلاب الصينيين يدرسون الطب وعلم السياسة والطبيعة والكيمياء ، بل ان منهم من كان يدرس أعمال الشرطة والهندسة ، لكن لم يكن فيهم من يدرس الأدب أو الفن . ومع هذا فقد أسعدنى الحظ بما فيه الكفاية ، حتى فى هـذا الجو غير المتجانس ، ووجدت بعض الأرواح المتقاربة . ورحنا نجمع القلة من الآخرين الذين نحتاج اليهم ، وبعـد نقاش كانت أول خطوة لنـا بالطبع أن نصدر مجلة بحيث يدل عنوانها على أنهـا ميلاد جـديد . فلما كنا آنذاك ذوى نزعة الى الأدب الحـديث فقد أطلقنـــا عليهـــا اسم هسين شنج أو « الحياة الجديدة » .

وحين اقترب موعد الصدور انسحب بعض كتابنا المساهمين ، وعندئذ سحبت أرصدتنا ، حتى بقى فى النهاية ثلاثة منا ، وكنا معدمين . ولما كنا قد بدأنا مشروع مجلتنا فى ساعة منحوسة ، فلم يكن هناك بالطبع من يمكن أن نشكو له حين فشلنا ، بل اننا لم نلبث فيما بعد أن افترقنا نحن الثلاثة ، ومن ثمة كان لابد أن تتوقف مناقشات حلم من أحلام المستقبل . وهكذا انتهت هذه « الحياة الجديدة » المجهضـــــة .

ولم أحس بعبث هذا كله الا فيما بعد ، فالحق أننى فى ذلك الوقت لم أكن أفهم شيئا . فقد أحسست فيما بعد بأنه اذا قوبلت مقترحات الانسان بالموافقة فلابد أن يشجعه ذلك ، أما اذا قوبلت

بالاستهجان والرفض فلابد أن يجعله ذلك يحارب من أجلها . لكن المأساة الحقيقية بالنسبة لى هى أن يرفع الانسان صوته بين الأحياء فيقابل بعدم الاستجابة ، لا بالموافقة ولا بالرفض ، كما لو كان قد ترك بلا حراك فى صحراء لا تحدها حدود . وهــكذا بدأت أحس بالوحشة . وأخذ هذا الاحساس ينمو يوما اثر يوم وهو يلتف حول روحى كأفعى سامة ضخمة .

لكن بالرغم من أساى الذى لا يقــدر فلم أحس بأى سخط أو غيظ ، ذلك لأن هــذه التجربة جعلتنى أتأمل وأرى أننى لست تماما النموذج البطولى الذى يمكنه أن يجمع الجماهــير بدعوته . غير أن وحشتى كان لابد أن تبدو ، لما ســببته لى من حزن . ومن ثمة استخدمت وسائل متعددة لاظلام حواسى ، وذلك بالخضوع لروح العصر وبالتحول الى الماضى . ثم جربت فيما بعد أو قل أننى شاهدت وحشة وحزنا أعظم ، لا أحب أن أتذكرهما مفضلا أن يفنيا بفنائى . ولا زالت محاولتى لاماتة حواسى غير ناجحة ـ وقد فقدت حماسة الشباب وحميته .

وفى دار شاو شينج كانت ثمــة ثلاث غرف ، قيل ان امرأة قد شنقت نفسها على شجرة سنط بالفناء . ورغم أن الشجرة قد نمت وطالت بدرجة لم يعد أحد معها يستطيع أن يصل الى فروعها ، الا ان حجرة المرأة ظلت مهجورة . وقد لبثت هنـا بضع سنين أنسخ نقوشا وكتابات قديمة . وكان يتردد على قليل من الزوار ، ولم تكن فى تلك النقوش والكتابات مشاكل سياسية أو مذاهب ، وكانت رغبتى الوحيدة هى أن تنقضى حياتى فى هدوء على هذا النحو . وفى ليالى الصيف حين يتزايد البعوض كنت أجلس تحت شجرة السنط ، وأهز مروحتى وأنظر الى أجرام السماء من خلال الأوراق الكثيفة ، بينما ديدان البعوض التى كانت تظهر فى المساء تتساقط على قفاى باردة كالثلج .

وكان الزائر الوحيد الذى يتردد على ليتجاذب معى حديثا عابرا هو صديقى القديم شن هسين لى . كان يضع حقيبة أوراقه الكبيرة على المائدة المكسورة ، ويخلع ثوبه الطويل ، ويجلس قبالتى ، وهو ينظر الى كما لو كان قلبه لازال يدق بسرعة عقب مطاردة من الكلاب .

سألنى ذات ليلة فى فضول بعد أن راح يحدق فى النقوش والكتابات التى كنت قد نسختها :

ـ ما الفائدة من نسخ هذه ؟ .

ـ لا فائدة على الاطلاق .

ـ اذن ، لمــاذا تنسخها ؟ .

ـ لغير سبب واضح .

ـ أعتقد انك تكتب شيئا .

وفهمت . فقد كان هو وآخرون يحررون مجلة « الشباب الجديد » لكن لم يبد حتى تلك اللحظة أى رد فعل ، معى أو على ، وخمنت أنهم لابد يحسون بالوحشة . ومع ذلك قلت :

ـ تخيل بيتا من الحــديد بلا نوافذ ، غير قابل للتحطيم مطلقا ، بداخلة أناس كثيرون يغطون فى النوم وسيموتون فى الحال من الاختناق . لكنك تعرف أنهم لما كانوا سيموتون أثناء نومهم فانهم سوف لا يحسون بأى ألم للموت ، فاذا أنت صرخت الآن لتوقظ حفنة من ذوى النوم الخفيف ، وجعلت تلك القلة المنحوسة الباقية تعانى سكرات موت لا نقض فيه ، أتعتقد أنك تؤدى اليهم معروفا ؟

ـ لكن ، لمــا كانت قلة قد استيقظت فانك لا تستطيع أن تقول انه لا أمل فى تحطيم البيت الحــديدى .

صحيح أننى رغم اعتقادى الخاص لم استطع ان امحو الأمل ، لأن الأمل يكمن فى المستقبل . لم استطيع أن أستخدم حجتى الخاصة لانقض زعمه بأن الأمل قد يوجد . ومن ثمة وافقت على أن أكتب وكانت النتيجة هى أول قصة لى تحت عنوان « يوميات مجنون » . ومنذ ذلك الحين فصاعدا لم أستطع

ان أتوقف عن الكتابة ، ورحت أكتب قصصا قصيرة من حين لآخر تلبية لطلب الأصدقاء ، حتى اكتملت لدى حفنة منها .

أما بالنسبة لى فلم أعد أحس بأى دافع كبير للتعبير عن نفسى ، لكن ربما يكون ذلك لأننى لم أنس تماما الحزن الذى سببه لى احساس بالوحشة فى الماضى ، فأنا أحيانا أصرخ ، كى أشجع أولئك المقاتلين الذين يركضون داخل الوحشـــة ، حتى لا يفقـــدوا قلوبهم . ولا يعنينى ان تكون صرختى مشجعة أو محزنة ، مثيرة للتمرد أو السخف . لكن لما كانت هذه دعوة لحمل السلاح فلابد ان أطيع بالطبيعة أوامر قائدى . وهذا هو السبب فى أننى كثيرا ما ألوذ بالغمز والايحاء ، مثلما فعلت حين صنعت اكليلا من الزهور مجهول المصدر يظهر على قبر الولد فى قصة « الدواء » ، بينما فى قصة « الصباح » لم أقل ان زوجة شان الرابعة لم تحلم بولدها الصغير . وذلك لان رؤساءنا آنذاك كانوا ضد التشاؤم . وأنا من جهتى لم أشأ أن أصيب بعدوى هذه الوحشة ـ التى وجدتها مرة للغاية ـ أولئك الشبان الذين لا زالوا يحلمون أحلاما سعيدة ، تماما كما فعلت أنا فى شبابى .

وواضح اذن أن قصصى القصيرة تقصر كثيرا عن أن تكون أعمالا فنية ، ومن ثمة أعد نفسى سعيد الحظ لأنها لا زالت تعرف بين النـــاس كقصص ، بل وتجمع فى كتاب . ومع أن هذه الثروة الطيبة تجعلنى قلقـــا الا أننى مسرور لأنى أعتقد بأن لها قراء فى عالم البشر ، فى هـــذا العصر على الأقـــل .. ولما كانت هـــذه القصص القصيرة التى أكتبها قد أعيد طبعها فى مجموعة واحدة ، وبناء على ما تقدم من أسباب ، فقد اخترت لها عنوانا هو : ناهان أو « دعوة لحمل السلاح » .

(بكين فى ٣ ديسمبر ١٩٢٢)

هذه مقدمة لأول مجموعة قصصية ظهرت لرائد القصـــة الصينية لوسين . وقد نقلتها كاملة عن مجلة الأدب الصينى التى خصصت عددا بأكمله لذكرى هذا الكاتب الذى لو لم يكن قصاصا لود أن يكون قصاصا كما يقـــال ، لما فى حياته من تجارب خصبة وحادة ، وما فى نفســه من شـــجن الفنانين وحساسيتهم الشديدة ، وكلها أمور اتضحت كما رأينا فى مقدمته .

ولد لوسين فى ٢٥ سبتمبر ١٨٨١ فى أسرة بسيطة فى شـــاو شينج بأقليم شكيانج جنوب شرقى الصين ، وكانت البلاد فى ذلك الحين تنفض أثقال المجتمع الاقطاعى وتقع فى أحضان الاستعمار وتصبح بلدا شبه مستعمرة نتيجـــة للعدوان اليابانى عليها . وقد آمن لو منذ البدء كما أوضح فى مقدمته بأن العلم الحديث وحده قادر على انقاذ بلده من خطر الاستعباد ، فسافر الى اليابان لدراسة الطب ، لكن حادثة اعدام مواطنـــه الصينى التى أشار اليها أفزعته وجعلته يؤمن بأن الانسان يمكن تخريبه روحيا ، وأن العلم لا يمكن أن يساعده ، ولم يجد سوى الادب وسيلة لتعمير الروح وتغيير المعنويات ، فهجر الطب عام ١٩٠٦ وتحول الى الأدب ، ثم انخرط فى الحركة الوطنية بعد ثورة ١٩١١ التى فشلت وأدت الى عدة حروب أهليـــة اجتاحت البلاد وجلبت اليها الكوارث والبؤس ، الى أن قامت الثورة فى روسيا عام ١٩١٧ فشجعت الصينيين على المحاولة من جديد . وبتأثير هذه الثورة الروسية ولدت حركة ٤ مايو الوطنية عام ١٩١٩ بين المثقفين والطلاب أولا ثم امتدت الى جماهير الشعب العريضة ، الغرض تقويض النظـام الاقطاعى المتحالف مع الاستعمار ، والقضاء على الاستعمار نفسه . وفى عشية هذه الحركة اتضحت عظمة لوسين فقد عكس انتاجه روح الحركة بصدق وقوة . وكانت قصصه ـ وهى التى ضمتها مجموعته هذه ـ دعوة لحمل السلاح بحق فى وجه الاقطاع والاستعمار على السـواء . لكنه لم يلجأ الى الشعارات والاسلوب التقريرى المباشر ، أو الوعظ ، كما أشار هو الى ذلك . ففى قصته « يوميات مجنون » ليست هنـــاك اشارات مباشرة عن الاقطاع رغم أنها تدينه . فاليوميات لشخص مجنون مقتنع بأنه سيكون طعاما لأخيه قياسا على ما يحدث فى احدى القرى من تبادل الأولاد بين الآباء وأكلهم . وهو يدين هذا الأسلوب الوحشى ويسوق ما يحل بخياله من ذكريات أليمة ، منها أن رجلا طبخ ابنه وقدمه لأحد الحكام الطغاة قبل الميلاد ، وأن رجلا آخر أعدم عام ١٩٠٧ لقتله أحد ضباط أسرة

مانشو ، ثم أكل الناس قلبه وكبده . وكان من المعتقدات أيضا أن الدم البشرى يشفى من السل فكاد الجلاد بعد تنفيذ الاعدام يشوى الخبز ويغمسه فى دم المحكوم عليه بعد اعدامه . وهذه الذكريات الغريبة تنثال على ذهن بطل القصة وتزيد اعتقاده بأنه لا محالة سيقتل ويؤكل . وقد قدم لو القصة بأنها حقيقية وانه لم يغير فيها سوى الأسماء ، فبطلاها شقيقان كانا زملاء له فى الدراسة ثم فصلته الحياة عنهما . وحدث أن سمع بعد ذلك أن أحدهما ـ وهو الأصغر ـ مرض مرضا خطيرا ، فزار لو الاكبر الذى سلمه هذه اليوميات ، فوجد أنه يعانى من عقدة الاضطهاد التى أطاحت بصوابه بفعل أسلوب الحياة الاقطاعى واستبداد الكبير بالصغير والقوى بالضعيف .

أن قصص لو لوحة عريضة للحياة فى بلاده ، لكن فيها تركيزا كبيرا على حياة الفلاحين والنساء والمثقفين . وفى أشعاره المنثورة التى كتبها فى تلك الفترة انعكاس عميق لسعيه الدائب المتواصل وروحه التحليلية فى الفترة من ١٩١٩ الى ١٩٢٧ . وحين تأسست العصبة الصينية للكتاب اليساريين فى شنغهاى عام ١٩٣٠ كان لو أحد مؤسسيها ، فقد ألقى بنفسه فى خضم الحركة الثورية بعد المذابح الواسعة التى شنتها حكومة شيانج كاى شيك عام ١٩٢٧ للقضاء على الثوريين . وفى الفترة من ١٩٢٧ الى ١٩٣٦ آثر لو شكل المقال فكتب أكثر من ١٥٠ مقال ثورى بالاضافة الى ١٨ قصة قصيرة كتبها من قبل . وفى تلك الفترة أيضا شغل منصب أستاذ الأدب الصينى بجامعة صن يات صن فى كانتون ، ثم منصب مديرها .

ويروى معارفه وتلاميذه أنه كان رقيقا مهذبا ، لا يدخر وسعا فى سبيل معاونة زملائه أو تلاميذه من الناشئة والشباب ، وانه كان يعادى فرض رأيه على الآخرين ، ويميل الى الاقناع الهادىء والتلميح باتخاذ هذا الموقف أو ذاك ، وكان يرفض الاستعلاء على المجتمع ويعتبر ذلك ضربا من الهروب .

لكن صحة لو ظل طوال حياته عليلة ، وظل يتعامل مع الصيدليات كما تعامل معها أبوه ، ولم يستطع أن يقاوم مرض السل ، رغم شجاعته النادرة ، فمات فى ١٩ أكتوبر ١٩٣٦ قبل أن يرى أفكاره تتخذ طريقها الى الوجود بعد الثورة فى عام ١٩٤٩ ، غير أن تلاميذه وزملاءه وزوجته ظلوا أوفياء له ، فأقيم له أكثر من متحف ، وطبعت أعماله الكاملة فى أربعة مجلدات ، وبقيت دعوته لحمل السلاح دعوة الأجيال للأجيال .

● زوايا وأنباء ●



دجن فلشي



دينو بوزاتي



ج. سيمبونوف

● يعتبر محمود تيمور أشهر قاص عربي عرفته أوربا . فقد ترجم الكثير من قصصه ـ منذ وقت مبكر الى عدد من لغاتها . وآخر ترجمة ظهرت له في أوربا باللغة المقدونية . فقد قام المستشرق اليوغوسلافي الدكتور حسن قلشي باختيار ١٢ قصة قصيرة من قصص تيمور ، وخاصة من مجموعتيه : « مكتوب على الجبين » و « كل عام وأنتم بخير » ، ثم ترجمها الى اللغة المقدونية ، وهي احدى اللغات الثلاث الرئيسية الثلاث في يوغوسلافيا .

وقد صدرت الترجمة المقدونية منذ شهور تحت عنوان « مكتوب على الجبين » ، وفيها دراسة في ١٧ صفحة عن القصة العربية الحديثة ومحمود تيمور ، استهلها الدكتور قلشي بعرض للظروف الأدبية والفكرية في مصر خلال العصر العثماني ثم عرض لحملة نابليون والصلات الأولى بين مصر وأوربا ، واعتبر القرن التاسع عشر فترة انتقالية تم فيها الاحتكاك بين الثقافتين : العربية والأوربية ، كما تم فيها بعث الأدب القديم ، مما نشأ عنه بعد ذلك نهوض القصة كفن مستحدث . أما البداية الحقيقية لهذا الفن فقد جاءت على يدي الدكتور حسين هيكل في روايته « زينب » ، ثم تطورت بشكل أكثر نضجا على يدي محمود تيمور الذي يعتبره رائد القصة العربية الحديثة بحق .

وتلا ذلك حديث عن ترجمة حياة تيمور وأثر أبيه وشقيقته عائشة التيمورية وأخيه الأكبر محمد ، وكذلك أثر السير القديمة وألف ليلة وليلة وأدب المهجر وخاصة كتابات جبران .

وفي هذه الدراسة التي تعتبر أول دراسة ظهرت في يوغوسلافيا عن كاتب عربي تحدث الدكتور قلشي عن خصائص فن تيمور ، لكنه أخذ عليه موقفه السلبي من الطبقة الأرستوقراطية والحكام في الماضي ، وقال انه وعدد من أدباء جيله لم يتعمقوا كثيرا في بحث المشاكل الاجتماعية ، وانه لم يبحث عن جذور الظروف التي صورها في قصصه ، ولم ير الامكانيات التي تزيل الظواهر السلبية التي عرضها . ومع ذلك فان تيمور استطاع لأول مرة في القصة العربية أن يقدم تصويرا دقيقا لأبطاله وأن يصور شخصيات معينة تصويرا سيكلوجيا حيا . أما أسلوبه فمتعادل متوازن ، هادىء وبسيط ، وجمله قصيرة ومركزة ، لا يستعمل المجاز أو الرموز ولكنه يستخدم بمهارة ثروته الكبيرة من الألفاظ بشكل لا نظير له لدى الكتاب المحدثين ، وحواره حوار مسرحي تقريبا ، حي ، مؤثر ، ولغته ـ بشكل عام ـ تشبه النهر الجاري .

ويستطرد الكاتب قائلا ان موهبة تيمور تظهر واضحة في وصفه للحياة اليومية واستنتاجاته الموضوعية ولو أنها كثيرا ما تكون قدرية . فمصير أبطاله مكتوب على جبين كل منهم . فبطل قصته « في ظلمة الليل » حاول أن يغير مصيره ، ونجح في ذلك ولكنه في النهاية ندم كثيرا . ذلك لأن المصير أقوى من الأشخاص .

وفي معظم قصص تيمور يمر القارىء بخيط من الصراع بين الخير والشر ، بين الحب والكره ، بين الجمال والقبح ، بين الحياة والموت . بل اننا نجد النقيضين يجتمعان أحيانا في شخص واحد . وله موقف معين تجاه الحب ، اذ يعتقد (تيمور) أن الحب يملأ حياتنا ويدفع بقوته عجلة الحضارة الى الأمام وبدونه لا يكون للحياة قيمة .

ويتحدث الكاتب بعد ذلك عن موقف تيمور من المرأة وعن قصصه التي تستمد موضوعاتها من التاريخ الفرعوني ، كما تناول رواياته ومسرحياته الأخرى لكنه اعتبر مسرحياته أصلح للقراءة منها للتمثيل ، وأضاف أن موهبته الحقيقية تكمن في القصة القصيرة بغض النظر عن نشاطه المعروف في ميادين اللغة والرحلات والدراسات .

وقد اختتم الدكتور قلشي دراسته هذه بالاشارة الى ترجمات تيمور في أوربا منذ أن ترجمت أول قصة له الى اللغة الايطالية عام ١٩٢٧ وانتهى الى أن تيمور هو ـ بكل تأكيد ـ أشهر قصصي عربي في أوربا .

بقي أن أقول ان التلخيص السابق لهذه الدراسة ليس عن المقدونية ـ التي أجهلها للأسف ـ ولكنه عن رسالة خاصة بالعربية من المستشرق اليوغوسلافي الذي زار القاهرة مؤخرا .

● موسكو ●

● اكتشف الباحث الأدبى السوفييتى أ . تيتوف مخطوطة بمدينة لينتجراد تضم النص الكامل للجزء الثانى من رواية « الأرواح الميتة » لينكولاى جوجول ، وهى عبارة عن مفكرة من ٢٠٤ صفحة لم تعرف شخصية كاتبها . وقد تأكد بعد فحصها من أنها تضم أيضا التصويبات التى أجراها جوجول بقلمه قبل وفاته مباشرة ، وتقرر أن يستفاد بها فى الطبعة الجديدة لرواية جوجول .

● أنا كاراقاييفا روائية عرفت بثلاثيتها « الوطن » التى نالت عنها احدى جوائز الدولة وقد صرحت بأنها تعمل الآن فى رواية طويلة بعنوان « الفجر والريح » تتناول فيها مصائر عدد من الشخصيات التى تنتمى لعدة أجيال روسية عاشت فى ثلاث ثورات متعاقبة هى ثورة ١٩٠٥ وثورة فبراير ١٩١٧ وثورة أكتوبر ١٩١٧ .. الجدير بالذكر أن كاراقاييفا عمرها الآن ٧٢ سنة .

● قام القاص جيورجى سيميونوف (ولد فى موسكو عام ١٩٢١) بعدة رحلات فى الريف والأقاليم خرج منها بمجموعة من القصص القصيرة تحت عنوان « ٢٤ ليلة » .

● لنـدن ●

● جوليان جب ناقد قضى خمس سنوات يعرض الروايات الجديدة التى تصدرها دور النشر الانجليزية فى الملحق الأدبى لصحيفة « ذى صنداى تايمز » استهل احدى مقالاته الأخيرة بأن الانتاج الروائى خلال السنوات الخمس الماضية ليس فيه ما يشرح الصدر ! .

● صدرت عن دار فابر وفابر رواية جديدة للكاتب بيتر ابراهامز أحد كتاب جنوب أفريقيا المعروفين .. تدور حول الصراع العنصرى فى جنوب القارة وتدفعه عنوانها « ليلتهم » .. وقد كان ابراهامز أول كاتب من جنوب أفريقيا يكتب رواية بعد عام ١٩٢٠ . لكنه فر أخيرا من اضطهاد الحكومة العنصرية ورحل الى جامايكا حيث يعيش الآن .

● سيدة الكاميليا .. عنوان كتاب جديد صدر عن دار هتشنسون ، ألفه جان براستو وتناول فيه حياة مارى دوبليسيس بطلة رواية وبياس المعروفة « غادة الكاميليا » .. كما صدرت عن الدار نفسها رواية للكاتب الكندى مايكل شلدون بعنوان « القدر الذى لا يذوب » تناول فيها موضوع المهاجرين الكنديين فى مونتريال ، وكيف أن معظمهم ينتمى لفئات الشباب الانجليزى أو للطبقة المتوسطة الأوربية ، وأن بعضهم يعتقد أن كندا ملحق لأمريكا ، بينما يجد فيها البعض الآخر ملجأ من الاضطهاد القومى فى بلاده الأصلية .

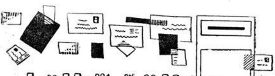
● نيويورك ●

● سبعة روائيين امريكيين معاصرين .. عنوان كتاب جديد صدر ضمن مطبوعات أكسفورد الانجليزية .. أعده وليم فان أوكنور وجمع فيه عددا من الدراسات النقدية التى عقدها بعض النقاد المعروفين حول فوكنر وفيتزجيرالد وسنكلير لويس واديث وارتون وتوماس وولف وناثانييل وست .

● نورمان ميلر كاتب قصصى عمره ٤٢ سنة أصدر روايتين ثم انقطع تسع سنوات عن الكتابة عاد بعدها فنشر رواية مسلسلة بمجلة سكواير الأمريكية تحت عنوان « حلم أمريكى » .. وفى الشهر الماضى سافر الى انجلترا وقرر أن يقيم فيها عساه أن يجد الشهرة والحظ اللذين افتقدهما فى بلاده . وهناك أشرف على طبع روايته الجديدة التى تأثر فيها بأسلوب ديكنز وثاكرى ويوكيو ميشيما اليابانى فى حشد كثير من الأحداث الدرامية فى مساحة زمنية قصيرة .

● باريس ●

● فى عام ١٩٥٧ قضت الكاتبة فرانسواز ساجان ٩ أيام فى مصحة للنقاهة من الأفيون الذى عولجت به اثر حادث تصادم سيارة . لكنها استغلت هذه الأيام التسعة فكتبت مجموعة من الخواطر والذكريات عن طفولتها وصباها وحبها لمهنة الكتابة ، واعجابها بمارسيل بروست الذى ترى أن فيه « يلتقى الأدب بالحياة الحقيقية ، وهو امر غير عادى » . وفى الشهر الماضى ظهرت الترجمة الانجليزية لهذا الكتيب الذى جعلت عنوانه « السام » ، واصدرته دار سوفينير موضحا بمجموعة من الرسوم للمصور برنار بوفى الذى تناول فيها شخصية ساجان كما تخيلها من ذكرياتها وخواطرها .



بين القصة والقراء

يقدمها ثروت أباظة

أحمد محمود أحمد :

قصتك فى هذه المرة يا أستاذ أحمد ليس فيها جديد على الاطلاق الموضوع قديم ولا باس عليك من قدم الموضوع ولكن العرض ايضا قديم فتاة احبت ثم ارغم الحبيب على ان يتزوج من فتاة أخرى . والارغام لم يكن طبيعيا . والنهاية أيضا لم تكن طبيعية . فانت تقول فى آخر القصة على لسان الفتاة التى تروى . « سوف اثبت له انى اقوى منه وأشد عزما مادام قلبه قد نفض هذا القلب الذى أحب بعمق وهوى ، بايمان وطهر ، وخفق لأول طارق . لن يكون جزاؤه مرة اخرى هذا الاهمال المزرى الذى يذهب بماء الوجه ويقضى على الآمال والأحلام سأترك هذا للأيام التى تأسو كل الجراح وتمحو كل هوان وهى كفيلة بذلك » ألا ترى معى أن هـــذا الشعور غريب وقت الصدمة .. وعلى كل حال المشاعر الانسانية تختلف من انسان الى آخر وقد توجد الفتاة التى تحس هذا الشعور ولكن كان لابد لك أن تبرر هذا النوع الفريب بعض الشيء من التاثر . لا ادرى لماذا احسست ان كلماتك هذه الأخيرة تشـــبه نوعا من النصيحة للبنات اللواتى أصبن بمثل ما أصيبت به . والنصيحة لا يجوز لها أن تحضر شخصيا فى القصة . يجب أن تنيب عنها وكيلا . من واقعة ، أو من حوار غير مباشر ، فانها اذا حضرت بنفسها أحالت القصة الى مقالة . اسلوبك جميل لا شك فى ذلك ولغتك سليمة واضح فيها أثر الثقافة العربية الأمر الذى نفتقده فى أدب الشـــباب فلا نجده . اننا فى انتظار قصتك القادمة وثق أنها ستأخذ مكانها الذى ننشده لها .

مراد صبحى :

قصتك هذه لا بأس بها ولكنها اضعف من قصتك التى نشرت لك فى مجلة القصة. ونحن نرجو التقدم لا الثبات ولا التأخر . أنت طوال عرض هذه القصـــة مباشر فى تعبيراتك تستغنى عن الواقعة بالحديث . فمعوض يجد فى عمله . ويجد فى مذاكرته أما كنت تستطيع ان تسوق الينا واقعة أو وقائع لترينا مقدار جده . لو أنك اتخذت السبيل القصصى فى العرض لأصبت التوفيق فى القصة . لأنك وفقت فى النهاية وفى طريقة عرضها توفيقا جعلنى آسف للعرض المباشر الذى لجـــأت اليـــــه دون داع الى ذلك .

اسلوبك بسيط وواضح . الا انك تخطىء احيانا قليلة فى النحو ولا شك انك اذا عنيت عناية هينة بدراسة النحو فستستطيع ان تتغلب على هذه الهنات التى تبدو من حين الى آخر فى كتابتك . اننى على ثقة أننا سننشر لك . ولكن عليك أن تعتنى بفنك أكثر مما تفعل. اننا فى انتظار قصتك القادمة .

شاهين حواش :

موهبتك القصصية لاشك فيها واسلوبك قصصى ممتع وانت ذو لغـــة ثرية تستطيع بها أن تقول ما تشاء . وقد اعجبت بقصتك هروب حقا واستمتعت بقراءتها. ولكن لى عليها بعض مآخذ قليلة ان رايت ان تتجنبها فى قصتك القادمة تصل ــ فى رايى ــ الى الاتقان غاية الاتقان .

هى طويلة بعض الشىء . ولقد ألقيت فيها نظرات الى الحياة تخدم القصة وتدل على حالة الهروب التى يعانيها البطل . ولكن هناك فقرات لا أدرى فيم تخدم القصة. مثلا « بعد انتهاء العرض خرجنا الى الطريق ونحن نتحدث عن القصة النفسية التى عاشها البطل وعن المعاناة والتجربة القاسية والألم الحاد الذى سيطر على حيـــاة البطلة وحطم اعصابها . وعن البعد الثالث فى الاخراج وروعة الكاميرا وهى تكشف عن خبايا النفس البشرية . وتصور ماخور القذارة حتى تصل الى بؤرة الضوء ومركز البداية . وضحكنا من الأعماق ونحن نستعيد صور الكارتون ونوادر الموقف ولهاث القط وهو يركض وراء الفار حتى يمسك به وينتقم منه دون طائل . وكانت اختى وصديقتها تتضاحكان فى صوت عذب تشوبه النشوة ورنة الاخلاص » .

فيم تفيد القصة هذه السطور . كم كنت أتمنى أن تكون متصلة ببناء القصة . فالقصة القصيرة لا تستطيع ان تحتمل فى سطورها ما لا يخدمها ويطورها ويصل بها الى الهدف الذى تنشده . واراك أيضا قد حشدت فى القصـــة بعض وقائع كنت تستطيع الاستغناء عنها . مثلا دخول والد البطل الى حجرته . اترى انك قلت شيئا بهذه الواقعة . قد تحتمل القصة الطويلة هذا ان كنت تريد أن تصور حياة او قطاعا من الحياة أما القصة فلا اظنها تحتمل . اكاد لا اشك أننى سأنشر قصتك القادمة .

احمد نصيف السامرائى ــ سامراء ــ العراق :

قصتك جميلة . وقد جاءت نهايتها موفقة . فالعرض لم يكن ينبىء عن المفاجأة التى اخفيتها الى آخر القصة . ترقب قصتك فى عدد قادم ان شاء الله .

محمود الحسينى المرسى :

قصتك جميلة . والرمز فيها فنى أحسنت التعبير عنه . ستنشر فى عدد قادم ان شاء الله .

سامى السيد طه :

قصتك تنبىء بأنك فى يوم ما ستكتب ما يرضيك . ولكن لا تتعجل فانه يبدو لى من قصتك انك فى مطالع الشباب الأولى . فانت تحتاج الى قراءة كثيرة وقد تبدو هذه النصيحة ــ اذ جاز لى ان أنصح ــ نصيحة متكررة تدعو الى الملل ولكنها ــ للأسف ــ حقيقة لا يمكن التخلى عنها من يريد ان يكتب لابد أن يقرأ . قصتك هذه بسيطة ولكن طريقة روايتك لها فيها صدق وموضوعها انســـانى وان كنت ــ دون أن تحس ــ قد وجهت الى الناس رأيا لو اتبعوه لأحاق بهم الشر . فليس الطـــريق الطبيعى لمن

يخذله طبيب ما ان يتوجه الى صيدلى . فليست مهمة الصيدلى ان يعالج . اقرأ أيها الأخ سامى ولا تتعجل الكتابة وثق انك حين تقرأ ستعرف متى تكتب .

محمود عبد العزيز سالم :

يا أخى لا عليك من هذه الحيرة التى تواجهها . واكتب . اكتب ما تشاء أن تكتب ولكن كن صادقا مع نفسك. وثق انك ما دمت قد قرأت كل هذا ستجد انك تطبق قواعد النقد دون افتعال . فالفن حر طليق وهو فى حريته وانطلاقه يخلق قواعد النقد التى تخشاها . وحين تطمئن الى عمل لك فارسله الى ولنا حينئذ حديث .

السيد السيد على هلال :

قصتك جميلة لاشك فى ذلك وتدل على موهبة قصصية ناضجة . ولكنك أتراك كنت تنظر بعض الشىء لقصة الزعبلاوى للأستاذ نجيب محفوظ . ان كان الأمر كذلك فقد اخترت لمن تبحث عنه مهنة لا اظن انها ترضيك . هذا المعنى جعلنى مترددا غاية التردد فى نشرها . ولكننى واثق اننى سانشر لك ما سترسله من بعد . فان أسلوبك المتمكن وعرضك الواعى ونظراتك الفنية البارعة كل ذلك يؤكد أن أعمالك لابد أن تنشر .

محمد السيد أبو دومه :

قصتك صورة وصفية تدل على انك تستطيع ان تقدم عملا قصصيا ناجحا ولكن اللغة العربية تنقصك فعباراتك ليست فى قوة عرضك القصصى كنت أحس دائما وانا أقرا القصة انك تريد أن تقول شيئا ولكنك لا تقع على التعبير الموفق . أما حوارك العامى فهو صادق ويدل على معايشتك للصورة التى ترسمها . لو أن لغتك العربية فى ثراء لغتك العامية لاستطعت ان تقدم لنا عملا فنيا متكاملا . وهناك هنة صغيرة أخذتها عليك فى القصة . لماذا قامت العداوة بين علم الدين وراوى القصة . ثم لماذا تم الصلح بينهما . لماذا كف علم الدين عن سب بطل القصة . انا لم أجد زيارة خال علم الدين لراوى القصة كافية لمنع علم الدين عن سبابه . أظن ان هذه الواقعة كانت تحتاج الى توضيح اكثر .

جـــلال منصور :

الواقع اننى اعجبت بقصتك فان فيها انسانية رقيقة وفيها أيضا تحليلا دقيقا للمشاعر . الا أن فى القصة تناقضا عجيبا . فالعرض عندك يدل على انك ناضج متفهم لأصول القصة القصيرة الا انك فجأة دخلت الى القصة وقلت رايك فى مباشرة ووضوح بشكل ينافى ما وضح فى عرضك من أصالة وتفهم أتراك فعلت ذلك عن قصد .. هذه الجملة « الحل الذى تقره الانسانية وتأباه الكرامة ، والكبرياء .. ولكن مليون شاهد يقرر بواقعية مؤلمة بل موغلة فى الأيلام أن ليس بالكبرياء ولا بالكرامة يفتدى الانسان . وهذه قضية معقدة غاية التعقيد . بل هى الصراع الأزلى بين الواقع والمثل » .

لماذا كتبت هذه الجملة . لماذا لم تترك الأحداث تقولها . وقد قالتها فعلا .

وهناك تناقض آخر عجيب . فأنت من خلال القصة تبين أنك متمكن من لغته دارس لها وللأساليب العربية دراسة واعية ثم انت مع ذلك تخطىء فى النحو فى أكثر من موضع . انى واثق أنك لو عنيت بقراءة قصتك بعد كتابتها لاستطعت ان تعفى أعمالك من الخطأ النحوى فما أظن أن مثلك يقع فى هذه الأخطاء عن تدبر . أنا فى انتظار قصة أخرى منك .

●● من القصص اخترت للنشر هذا الشهر قصة (الموعد) للأديب محمد صفوت عبده .

الموعد

بقلم : محمد صفوت عبده

عندما أوشك الليل أن ينتصف ، نهض الأسطى حسنين من على مقعده العتيق متثاقلا ، وفى بطء رفع ذراعيه الى أعلى ، وأحنى جذعه الى الخلف قليلا ، محاولا أن يمط جسده ، وأن يعيد النشاط والحركة لمفاصله .. وخرجت من حلقه آهة تعب وارهاق ، وهو يتثاءب فى تراخ وكسل ، كأنما ليتخفف من عناء يومه الطويل ، وينفض عن نفســه آثار جلسته المضنية ، التى استغرقته منذ الصباح الباكر ... ورتب الرجل بعض الأدوات فى حانوته الصغير ، وأطفأ الأنوار ، ومن ثم أغلق الحانوت ، واتخذ طريقه عائدا الى بيته ، وهو يدير فى رأسه أمرا هاما .

ذلك أن عيد الفطر المبارك . سوف يشرق على الدنيــا ، وعلى أسرته بعــد خمسة عشر يوما ، ولذا فقد آن له أن يشترى لبنيه وبناته الحلل والأكسية الجديدة ، وأن يبتاع لزوجه ما يحتاجه البيت من مستلزمات العيد البسيطة التى تتناسب مع رقة حاله .

وبينما كان الأسطى حسنين ، يخترق الشوارع والحارات والأزقة التى تؤدى الى مسكنه ، جعل يضرب أخماسا فى أسداس ، ويحسب ويجمع ويفكر .. انه يخشى أن تعجز نقوده التى ادخرها للعيد ، عن الوفاء بمطالب أسرته واحتياجات بيته فى تلك المناسبة السنوية السعيدة ! .

وظل الرجل يتدبر الأمر مليا ، الى أن قرر فيما بينه وبين نفسه ، أنه فى الصباح سوف يبدأ فيلبى رغبات أبنـــائه وامرأته والبيت ، وبعد ذلك ان نفذت الجنيهات العشر التى يملكها ، فلا مفر له من أن يصبرعلى نفسه ، ويتجاهل مطالبــه الشخصية ويستغنى عنها ، وحسبه أن يدخل البهجة والسعادة فى نفوس أفراد أسرته وقلوبهم ، بأن يهيئهم تهيئة حسنة لاستقبال العيد .

وما كاد الأسطى حسنين يدخل شقته المتواضعة ، حتى مضى الى خزانة الملابس الصغيرة ، التى تشبه الدولاب ، ففتحها واستخرج منها صندوقا معدنيا صغيرا ، كان قد أودع به العشرة جنيهات المدخرة ، والتى أراد أن يطمئن الى وجودها فى لحظته تلك ... ولكنه ما أن نزع غطاء الصندوق ، حتى ندت منه شهقة حادة ، كاد قلبه يخرج معها ، وصاح فى زوجته بغيظ وغضب :

ـ ويحك يا أم أحمد أليس هنا غير خمسة جنيهات ، فأين ذهبت الخمسة الأخرى ؟! .

وانتفضت زوجته وتملكها الخوف ، وزاغت عيناها ، حين نظرت اليه فوجدته جاحظ العينين منقلب السحنة ... وفتحت فمها وأقفلته دون أن تستطيع الكلام ، اذ طارت وتبخرت من ذهنها جميع الكلمات التى أعدتها لهذا الموقف العصيب .

وكانت الصدمة لا تزال تفعل فعلها بزوجها ، الذى اقترب منها وضيق عليها الخناق :

ـ قولى لى اين ذهبت النقود ، والا أضعت عمرك فى التو واللحظة .

وامتقع لون أم أحمد ، وتلاحقت دقات قلبها ، وتلعثمت وهى تقول بصعوبة بالغة :

ـ انه ابنـــك !!

قالتها ورفعت يدها لتستر بها وجهها ، اذا ما انهالت عليه صفعات زوجها ، وقد توقعت ذلك لفرط خوفها ، وطيبتها التى تبلغ حد السذاجة .

ولكنه امسك بيدها هذه ، وازاحها بعيدا عن وجهها ، ولما رفعت يدها الثانية ، ابعدها ايضا ، فاشاحت بوجهها ، ولوت رأسها اتقاء للضرب والأذى ... كما تفعل الخادم الغبية البليدة حين يحاسبها سيدها على خطأ ارتكبته .

ولم يمسسها زوجها بسوء ، وانما جاءها صوته المستفسر هادئا بعض الشيء :

ـ ماذا تقولين ... ابنى ؟! .. أريد ان اعرف اى ابنائى هو ، وكيف وصلت الجنيهات الخمسة الى يده ؟! .

وتحررت الزوجة من خوفها قليلا :

ـ انه ابنك عبد الحميد ، الغائب فى القاهرة ، ارسل الى مع أحد زملائه ، قائلا ان امتحانه النهائى فى الجامعة قد اقترب ، وانه لا يزال فى حاجة الى بعض الكتب والمذكرات .

والقى الرجل بيدى زوجته ، ودفعها فى ثورة وغضب ، وضرب كفا بكف ، وزفر زفرة حرى :

ـ أف ... اعوذ بالله منك ايتها المرأة انت وابنك ، اهكذا تبعثران النقود دون علمى ، ألن تنتهى اسطوانة الكتب والمذكرات هذه أبدا ؟! .

وقالت تسترضيه :

ـ هون عليك ، فما هى الا أشهر قلائل ، حتى يأخذ عبد الحميد الشهادة الكبيرة ، ويصبح موظفا كبيرا ، وحينئذ يكون الموعد .. موعدنا معه ليرد لنا الجميل .

ـ ولكنك تعلمين انى أرسلت له ستة جنيهات فى أول الشهر ، فماذا يظن سيادته !؟ .. هل يظن انى اصنع النقود ، أو اغترفها من معين لا ينضب ؟! .. أم تراه يعتقد انى على كل شيء قدير ؟! .

وصمت قليلا ثم قال فى تأفف وضيق :

ـ عجبى له ، ما دام يعلم كيف نحصل على القرش ، ويعلم اننا نحرم انفسنا حتى من ضروريات الحياة ، فى سبيل أن نوفر له نفقات تعليمه ، فما باله ينفق اكثر منا جميعا ، ولا يقنع ، بل يطالب بالمزيد ، دون ان تأخذه بنا شفقة أو رحمة ؟! .. هذا والله حرام ! .. قالها وكأنه يشكو ابنه الى الله .

وربما اقتنعت الأم ، بمنطق زوجها ، وآمنت به ، ولكن حبها لابنها جعلها تقول :

ـ بالله عليك اهدأ يا حسنين ، والذى جعلنا نصبر طويلا ، يجعلنا نصبر قليلا ، فقد هان الأمر ، واقتربنا من بلوغ الأمل .

وقال الأب بصوت يغلفه الألم :

ـ لقد صبرنا على عبد الحميد حتى كاد ان يحرم اخوته واخواته من حقهم فى الحياة ، ونحن من قبلهم ...

وتنهد فى مرارة ويأس ، ثم أردف وكأنه قد بدأ يستسلم لقضاء لا مفر منه :

ـ وماذا نفعل اذن وقد سلبنا نصف المبلغ الذى كنا ندخره للعيد ؟ .

ـ لا عليك ، فالخمسة جنيهات الباقية تكفى لأن نكسو عيالنا ، أما أنت وأنا ، فنستطيع أن نصبر ، ولن تكون بنا حاجة الى شيء ، طالما نرى أبناءنا وهم سعداء بملابسهم وأثوابهم الجديدة .

ـ واذا ضحينا ـ أنا وأنت ـ برغباتنا كما تعودنا ، فهل هذا هو كل ما فى الأمر ؟ ألن يحتاج البيت الى شيء لمواجهة العيد ؟ .

وكان النقاش بين الزوجين قد هدأ تماما ، فوضعت أم أحمد يدها على كتف زوجها فى حنان وتودد ، وقالت تهون عليه وتيسر له الأمر :

ـ ان الله لن ينسانا ، وأملى أنه سـيفرجها علينا ما دمنا نوسـع على عيالنا ... وما يدريك ، قد يبعث الله اليك ـ فى الحانوت ـ ببعض الزبائن الذين يطلبون منك أحذية جديدة ، فتربح من ورائهم ما يغطى حاجتنـــا .

وابتسم الأسطى حسنين :

ـ أرجـــو ذلك .

وبعد لحظة صمت ، وبعد أن استعادت الزوجـة طمأنينتها وثقتها بنفسها ، نظرت الى زوجهـــا باسمة ، وقالت فى استعطاف وتوسل :

ـ حسنين ... أرجو أن تغفر لى ولابنك ، وأن تقدر ظروفه ولا تظلمه ، فهو غريب فى القاهرة ، يواجه العيد والامتحانات ، ويحتاج الى الغذاء الجيد والكساء المناسب ، أو كما قال ، تنقصه الكتب والمذكرات للامتحان النهائى ، فهل ترانى أخطأت حين أرسلت له النقود ؟! .

ونجحت الأم الطيبـة فى أن تفجر ينابيع الحب والحنان فى قلب الأب الحانى ، وأفلحت فى أن تمس منه أوتار الأبوة الصادقة .. فبصوت ملؤه العطف والاخلاص والتأثر ، قال الأسطى حسنين :

ـ الحقيقة يا أم أحمد انك فعلت خـــيرا ، وأملى أن الخير سيكون فى موضعه ، وأن عبد الحميد سيكون بارا بنا ، بعد ما يأخذ الشهادة العالية ويصبح موظفا عالى المقام .

وابتسمت الزوجة فى سعادة غامرة :

ـ أجل يا حسنين ، انه فرحتنـــا وثروتنا وأملنا فى الحيـــاة ، انه النافذة التى منها ستطل علينا الســـعادة .

وفى تلك الليلة ، ضل النوم سبيله الى عينى الأسطى حسنين ، الذى ظل ساكنا مسهدا فى فراشه ، وبدلا من أن يتسرب السبات الى نفسه ، تسربت ذكريات حياته الى مخيلته .

والأسطى حسنين يعمل « حذاء » بمدينة الزقازيق ، بدأ حياته حينما كان غلاما يمسح الأحذية ، يتجول فى الشوارع ويطوف بالمقاهى ، ويحوم حول بعض الأماكن العامة ، وهو يحمل فى يده صندوقا خشبيا صغيرا ، علقت وشدت الى جوانبـــه زجاجات الأصباغ وقنينة الماء ، وعلب الطلاء ، وفى باطن ذلك الصندوق ، كان حسنين يضع الكثير من الأشياء ، مثل الفرش وشرائح القماش ، وعلب الورنيش ، التى تحوى احداها قليلا من الصابون وقطعة من الأسفنج ... وأيضا كان حسنين يحمل كرسيا صغيرا جدا ، لا تتجاوز أبعاده سنتيمترات قليلة ، حتى انه كثيرا ما كان يضعه بداخل الصندوق .

كان الصبى يدور ويسعى فى شوارع الزقازيق ، وهو يحمل صندوقه وكرسيه الصغير ، وقد ستر جسده الضئيل ، وعوده الأخضر ، بجلباب رخيص الثمن ، ملطخ بالأصباغ والورنيش ، قذر رث ، ألمت به الثقوب وحال لونه من القدم ، وبترت أكمامه ، وشقت فتحة صدره فاتسعت حتى كشفت عن أعلى البطن .. وبالرغم من أن حسنين كان كثيرا ما يسير حافى القدمين ، الا انه كان دائما يضع فوق رأسه قلنسوة من القماش الأبيض ، يطل من تحتها شعره الأشعث الطويل .

كانت المقاهى هى المجال الخصب الذى فيه يزاول حسنين مهنته ، ويتكسب لقمة عيشه ، فكان يطوف بتلك المقاهى ، وفى كل منها يقترب من الرواد الجالسين واحدا بعد الاخر ، ويقول وفى عينيه ذل وانكسار ، وفى صوته رجاء وتوسل واستعطاف :

ـ تمسح يا بيـــه ؟؟ !!

فاذا ما أومأ اليه أحدهم بالايجاب ، غمرته السعادة ، وتحرك فى سرعة كالعصفور ، ودس كرسيه الصغير تحت جســـده النحيل ، ووضع صندوقه الخشبى تحت القدم ، والحذاء الذى سيطليه ، ومن ثم راح يباشر عملية التنظيف والطلاء والتلميع ، فيظل يهز يده اليمنى الصغيرة القذرة ، وتبعـــا لذلك ـ وبالرغم منه ـ تأخذ ذراعه الأخرى ورأسه وسائر بدنه فى الاهتزاز المتتابع ، ويستمر فى تحريك أصابعه المتسخة ، رائحة غادية على جلد الحذاء فى خفة ومهارة ، حيث يطليه بالصبغة ثم الورنيش ، مستعينا على ذلك بالفرشاة وقطعة من القماش ، .. وبعد جهد وارهاق ، ينتهى حسنين من مهمته تلك ، فيتقاضى عنها عشرة مليمات ـ تزداد خمسا فى أحيان قليلة ـ يضعها فى جيبه وهو يشكر ربه .. ثم يمضى ليعرض خدماته على باقى الزبائن ، واذا ما أتم دورته فى ذلك المقهى ، سعى الى غيره وغيره ،.. وهو فى الغالب يمر بالمقهى الواحد أكثر من مرة فى اليوم الواحد .

ويعرق حسنين ويجوع ، ويلم به التعب ، ويوشـــك رأســـه أن يدور ، ولـــكنه ابدا لا يهدأ ولا يستريح ، ولا يتكاسل ولا يتقـــاعد ، بل يجد فى السعى والطواف ، باحثـا عن العشرة مليمات أينما تكون .

وبعد سنوات طويلة شاقة من العرق والكفاح المرير ، والجهد المتصل ، والعذاب والحرمان ، استطاع حسنين ان يدخر مبلغا لا بأس به من المال ، وربما كان لديه مبلغا بسيطا بقى له من بعـــد والديه ، فتمكن من أن يفتتح حانوتا صغيرا متواضعا ، لمسح واصلاح الأحذية ... وأيضا كان يشترى الأحـذية والنعال المستعملة ، ويجرى لها عمليات الاصلاح والترميم والتجديد ، ومن ثم يبيعها للفقراء من الناس ، فيحقق بذلك بعض الكسب ..

وشيئا فشيئا تمكن من حرفته واتقنها ، فاصبح يصنع الأحذية لمن يطلبها ، وكان فى صناعته حاذقا ماهرا ، واخلص لمهنته وأحسن معاملة زبائنه ، فاجتذب اليه الكثيرين من العملاء ، ونال اقبالا ورواجا لا بأس بهما .

ولـما بلغ الأسطى حسنين الثامنـــة والعشرين من عمره ، تزوج من ابنـة صاحب المقهى البلدى المجاور لحانوته .

ونظرا لفقر الأسطى حسنين وضيق مورده ، فان ابنه الأكبر أحمد ، لم ينل من العلم غير مبادىء

القراءة والكتابة ، وذلك فى مدى ثلاث سنوات اختلسها من الزمن اختلاسا ، وأمضاها بالمدرسة الابتدائية ... ومن ثم استبقاه أبوه معه فى الحانوت ، وصار يلقنه أصول المهنة وأسرار الصنعة ، حتى تعلم أحمد ، فاصبح يمسح الأحذية ، بينما تفرغ الأب ــ الى حد ما ــ لعمليات الاصلاح والصناعة .



ولكن عبد الحميد ، الابن الثانى ، كان محظوظا الى حد كبير ، اذ استطاع ــ فى غفلة من الزمن ــ ان يصل الى التعليم الثانوى ... وبالرغم من ذكاء عبد الحميد ، وتفوقه فى دراسته بعض الشىء ، فقد كان ينفرد ببعض الطباع الغريبة غير المستحبة .

كان عبد الحميد عنيدا مستبدا ، آنانيا لا يحب الا نفسه ، وآية ذلك ، انه لم يكن يقنع أبدا بالقروش التى يأخذها من أبيه كمصروف لليد ، بل كان يلجأ الى أمه ليأخذ منها المزيد ، ومن ثم يعمد الى خطف قروش أخوته وأخواته ، بالحيلة أو القوة أيهما أجدى ، ثم ينفق كل ذلك فيما لا يفيد ، وفى أشياء لا غناء فيها .

ولم يكد عبد الحميد يتجاوز الرابعة عشرة من عمره ، حتى طالب بأن تكون له غرفة خاصة به ، ومع ان الأسرة كلها كانت تعيش فى شقة ضيقة مكونة من غرفتين صغيرتين ، وصالة أصغر منهما ، فقد استطاع بمكره وخبثه أن ينفرد باحدى هاتين الغرفتين ، تاركا كل افراد الأسرة ليعيشوا فى غرفة واحدة .

وهو نادرا ما يجالس أفراد الأسرة على الطعام ، أو يشاركهم فيما يأكلون ، فأحيانا لا يروقه ما يأكلون ، وأحيانا يشمئز ويتقزز من منظر أختيه الصغيرتين وهما تعملان أيديهما فى صحاف الطعام ، فتعافه نفسه ، وتتملكه الأثرة وحب الذات ، فيحاول دائما أن ينفرد وحده بالطعام ، الذى غالبا ما يكون أفضل وأجود من طعام الأسرة .

والويل كل الويل لأبيه وأمه ان هما تأخرا فى تلبية رغبة من رغباته ، التى لا تقف عند حد ، والتى غالبا ما تكبدهما فوق طاقتهما ... فهو عندما يريد ، لابد أن يحصل على ما يريد ، وهو حينما يتحدث أو يتناقش ، فليس لهما أن يعارضاه ، أو حتى يرفعا صوتهما على صوته ، وانما الغلبة له دائما ، لأنه ــ كما يصور له غروره وكبرياؤه ــ صاحب العلم والمعرفة والرأى المستنير .

ولكن ثمة شخص واحد ، كان يستطيع ان يشارك عبد الحميد فى حجرته أو طعامه ... ذلك هو أخوه ابراهيم الذى يلاحقه فى العمر والدراسة .

على هذا النحو شب عبد الحميد ، متخذا صفة الألوهية والزعامة على افراد أسرته ، وهم لفرط طيبتهم وبساطتهم المشوبة بالسذاجة ، لا يفطنون الى كنه نفسه ، ولا يدركون من امره شيئا ، بل هم

يعمقون فى نفسه الصفات والطباع التى نبتت فيها ، اذ يحيطونه بالاحترام والتقدير ، والحب والتهيب .

وحصل عبد الحميد على الشهادة الثانوية العامة بمجموع لا باس به ... وبعد الزغاريد والشربات ، وبعد الفرح والسرور ، قامت القيامة ، فعبد الحميد يريد أن يلتحق بالجامعة ليواصل دراسته ، وأبوه يريد منه أن يلتحق باية وظيفة كى يعول نفسه ، ويسهم فى نفقات الأسرة ، التى تئن تحت ضغط الحاجة والفقر ، ولولا نفقات تعليمه بالثانوى لكانت الأسرة أيسر حالا ... واختتم الأب حديثه قائلا ، انه أولى لعبد الحميد أن يحمد الله على أن وصل الى هذه المرحلة من التعليم ، وأن عليه أن يعمل ليتولى أمر نفسه ، وليتح الفرصة لأخيه الأصغر ابراهيم عسى أن يصل مثله الى الثانوية العامة ، التى لا يطمعون فى أكثر منها ، والتى يعدونها نعمة من الله وفضلا .

وكانت الأم حائرة بين ابنها وزوجها ، لا تدرى أيهما تناصر ، فهى لا تفهم ولا تدرك معنى أن يواصل ابنها تعليمه فى الجامعة ، ولا تكاد تشعر باية أهمية لذلك اطلاقا ، ولكنها ترى أنه ما دام قد أخذ شهادة تؤهله للوظيفة ، فحسبه ذلك ، وعليه أن يتوظف ، حتى يفرحون بوظيفته ، وينعمون بما يعطيهم من راتبه .

وبعد أيام من المناقشات الحادة والخلافات المستمرة ، أخذت المعركة تهدأ تقريبا دون أن يكون النصر فيها لأحد ، فكل يعتقد أنه سيصل الى غرضه ، ولكن عبد الحميد انفرد بأمه ، وبمكره ودهائه وحيلته الواسعة ، استطاع أن يحصل منها على بعض النقود ، ومن ثم سافر خلسة الى القاهرة ، وقدم أوراقه الى مكتب التنسيق .

وبلغت الأزمة اشدها ، حين حمل البريد الى عبد الحميد بطاقة ، تفيد قبوله بكلية الزراعة ، اذ أعلن ذلك الى أهله ، وأقسم لهم بالعظيم ثلاثا ، أنه سوف يضع حدا لحياته ، اذا هم لم يدبروا أمر ذهابه الى الجامعة ... وكانت مفاجأة مذهلة أخذ لها الجميع وعجبوا ، .. بكت أمه ، وعبثا حاول أبوه أن يثنيه عن قراره ، ودون جدوى توسل اليه أن يرحمه ، وأن يقدر أنه فقير ، ولا طاقة له على تحمل مصاريفه فى الجامعة ، وما يتبعها من نفقات اقامته ومعيشته فى القاهرة ، فلم يرتد عبد الحميد عن عزمه ، بل ازداد تصميما واصرارا ، وأضرب عن الطعام ، مهددا بانه سينتحر ! .

ظل النزاع العنيف سجالا بين عبد الحميد وأبيه ، والذين تدخلوا من أفراد الأسرة ، لم يسلموا من هجمات عبد الحميد وفظاظته ... وفى النهاية استسلم الأب مضطرا ، وخضع وانقاد لمشيئة ابنه ، وبات من المقرر أن يذهب عبد الحميد الى الجامعة .

ولكن ذلك كان وبالا عظيما انصب فوق رأس أخيه الأصغر ابراهيم ، ذلك المسكين الذى كتب عليه أن يضحى بنفسهوبمستقبله فداء لمستقبل عبدالحميد ، والذى قضى عليه أن يعيش فى الفقر والظلام ، وأن يحرم العلم وقود الحياة ونورها ... ضاع ابراهيم ضحية للأنانية البشعة وهو مخدوع دون أن يدرى ! .

فما وافق الأسطى حسنين على أن يلتحق عبد الحميد بالجامعة ، الا بعد أن تمكن الاثنان من اقناع ابراهيم ، بأن يعمل بالشهادة الاعدادية ... وسرهما أنه بعد تردد ضعيف ، قبل فى سهولة ويسر أن يتوظف ! .

ربما فرح الصغير الذى لم ينل من العلم الا قليلا ، لأنه سيستريح من عناء الاستذكار ويصبح موظفا يجلس على المكتب ويتقاضى المرتب فى أول كل شهر .

وكان هذا المرتب هو كل ما يعنى عبد الحميد والأسطى حسنين ! .

وذهب عبد الحميد الى الجامعة بعد ان منى ولديه وأخوانه ، بأنه بعد تخرجه سيكون لهم نعم الابن والأخ ، وانه سوف يرد لهم الجميل ، ويغدق عليهم المال والخير العظيم ... ويسعدهم جميعا .

كان عبد الحميد يسرف فى الوعود والآمال ، كلما أرسل يطلب النقود من والده أو والدته .. وباتت الأسرة الفقيرة كلهـا تعيش فى سبيل أن تدخر ما ترسله لعبد الحميد فى أول كل شهر .. ولم يكن الفاقة ، وترضى بمر العيش ، فى سبيل أن تدخر ما ترسله لعبد الحميد فى أول كل شهر ... ولم يكن عبد الحميد ليقنع بالقليل ، أو يتحرج من طلب النقود فى منتصف الشـهر أو آخره ... فهو دائما فى حاجة الى مصاريف للكلية ، وكتب مذكرات ، وملابس وايجار .. وهاتيك من الحجج والأسباب .

وظلت الأسرة على ذلك الحال ... الأسطى حسنين وأحمد يكدحان ويشقيان فى حانوتهما ، وابراهيم يتقاضى راتبه ولا ينعم بهكما كان يظن ، وأم أحمد تجمع قرشا من هنا وقرشا من هناك ، وربما اضطرت أحيانا ـ وفى السر ـ لأن تعمل كغسالة فى بعض البيوت ، كى تدبر ولو جزءا من النقود التى يطلبها منها ابنها ، والتى ترسلها اليه دون علم أحـد ! .

حتى فى أيام الأعياد والمناسـبات ، التى ينفق فيها كل الناس عن سعة وبحبحة ، من مبالغ تكون مرصودة لذلك غالبا ، فينعمون بالخير والبهجة ، ويغشمون نعم الحياة ومسراتها ... فى هذه الأعياد ، كانت أسرة الأسطى حسنين لا تجد ما تنفقـه ... عبد الحميد يمتص دخلها أولا بأول ، بل ويلجئها الى الدين المذل ، فتعيش الأسرة فى حرمان وعدم ، وهى تتطلع فى حسرة وكبت الى أهل اليسار والنعمة أولئك ، وتذوب أملا فى القليل من النعيم والهناء ، وتتحرق شوقا الى طيبات الحياة .. تشتهى كسوة جديدة ، أو أكلة لذيذة ، أو حتى بسمة سعيدة ، تجفف حبات الدموع والعرق ، ... ولكنها لا تجد الى ذلك سبيلا ! .

كل ذلك من أجل عبـــد الحميد .. ومن أجله أيضا ، كانت قلوب أهله عامرة بالصبر والرضى ، والأمل والانتظار .

وجاء اليوم المنتظر ، وتخرج عبد الحميد من الجامعة ، فكان يوم عيد .. فى سعادة غامرة ، وفرحة طاغية ، زغردت أمه ورقصت ، وصاحبها زوجها مصفقا لها على الواحدة ، وهو يهتز ويميل طربا ، ولمــا غلبته الفرحة ، صـــار يرقص معها ، بينما راح الأولاد والبنات يدقون لهما الايقاع على الأكف والأوانى النحاسية ، فى سرور وتهليل .

فاضت السعادة والبهجة بأسرة عبد الحميد ، وأترعت أكواب الشربات ، تتخاطفها الأيدى ، وتوزع على المهنئين والنسوة اللاتى جئن يزغردن مع أم عبد الحميد ، ويشاركنها فرحتها ، وكان قلب هــذه الأم يضج بالنشوة ، ويرقص من الفرحة ، كلما نوديت بأم عبد الحميـــد ، أم الأستاذ ، أم البيك ، ام الباشمهندس ، لقد لذ لها ذلك وأشعرها بالعزة والفخار ، ومثلها كان أبو عبد الحميد ، سيما وأن جيرانهما ، سكان الزقاق ، أصبحوا ينظرون اليهما فى كثير من الاجلال والاحترام .

وكانت الفرحة الكبرى يوم تسلم عبد الحميد وظيفته ، فهى وإن كانت بالقاهرة ، بعيداً عن اهله الذين تألموا لذلك ، الا انها كانت ايذانا لهم ببدء تحقيق الأحلام وبلوغ الآمال .

فعبد الحميد سوف يبدل حالهم ، من عسر الى يسر ، ويرفع عن وجوههم بصمات الفقر والفاقة ، ويمحو من حياتهم آثار البؤس والشقاء ، ويضيء لهم شموع السعد والهناء ... انهم جميعا على موعد مع الســـــعادة .

أخته الصغرى سـعدية تتحسس أذنها فى تمن وغبطة ، بعد أن ثقبتها وهيأتها للقرط الذهبى الذى وعدها به .. وأخته الكبرى عزيزة ، يداعبها أمل لذيذ ، وحلم رائع ، فسوف يتم زواجها الذى كان مؤجلا حتى يتخرج أخوها ويتوظف .. وأم عبد الحميد ، تنظر فى المرآة ما بين يوم ويوم ، لتتخيل نفسها حين يعود اليها الصبا والشباب والجمال ، بفضل هدية ابنها .. ثوب من القطيفة وغطاء للراس من الحرير الطبيعى ... ثم ابراهيم ، انه وبعـــد أن كبر وأدرك ، يحاول ان يقهر الشعور بالندم ، الذى أصابه لضياع مستقبله ، ممنيا نفسه بأن أخاه سوف يساعده ويعاونه ، ليستذكر من جديد ، ويحصل على الثانوية العامة ، وينتسب الى الجامعة ... والأسطى حسنين ، آماله ، هى أن تتحقق آمال اسرته جميعا ، وان كان يطمع — هو وابنه أحمد — فى أن يعاونهما عبد الحميد ، كى يستأجرا حانوتا اكبر ، فى مكان افضل ، حيث تتسع صناعتهما ، وتنمو تجارتهما وتزدهر وتربح ..

... والذى لا شك فيه ، أن هذه الأسرة كانت تنوى البحث عن مسكن جديد مناسب .

وبين الأمانى والأحلام ، عاشت الأسرة فى شوق ولهف وحنين ، تنتظر حضور عبد الحميد ، حيث يأتيهم بالنعيم والخيرات ، والسعادة والهناء ، ويحقق لهم الآمال .

ومر شهر واثنان وثلاثة ، وطالت غيبة عبد الحميد ، وسرى القلق فى نفوس اهله ، وعشش الهم فى قلوبهم ، وكادت أحلامهم تتبـدد ، وآمالهم تتداعى ، حين تصلهم رسائله المتباعدة ، التى فيها ينتحل الأعذار ... تارة يقول أنه يشترى الملابس الجـديدة ، التى تليق بمظهره بين زملائه ورؤسائه فى العمل ... وتارة يذكر أنه يؤثث غرفتـــه أثاثا مناسبا ، ومرة يقول أنه اضطر لأن يشترى ساعة يعرف بها الوقت ، ومرة يؤكد أنه مدين ، وسوف يحضر اليهم بعد أن يسدد ديونه ! .

ولكن الأيام والأشهر كانت تنقضى وتمر ، دون أن يحضر عبد الحميد ، وان كان لا يفتأ يمنى أهله بقرب حضوره ، ويؤكد لهم أنه لن ينساهم ، وسيكون عند حسن ظنهم به .

ولكن أهله ظلوا ينتظرونه حتى ملوا الانتظار ، واستمروا يسمعون وعوده حتى سئموها ، وزهدوا فيها ، وأيقنوا أنها وعود زائفة كاذبة .

تمزقت أحلامهم ، تحطمت آمالهم ، وتملكهم اليأس ، وتغلغـــل الألم فى نفوسهم ، وخيم الحزن على بيتهم المتواضع الحقير ، ولفه سكون مطبق وصمت كئيب !

وتوسلت الأم الى ابنها ابراهيم ، كى يذهب الى القاهرة ، ليطمئن على أخيه ، ويستطلع احواله ، ولكنه أبى ورفض تماما ... ولجأت الى زوجها ، فكان رفضه أقسى وأشد ..

... انفجر الأب فى زوجته ، وراح يصب عليها غضبه ، ويؤنبها ويعنفها ويلومها قائلا ، انها هى

سبب عقوق عبد الحميد ، أفسدته بتدليلها ، وجعلته يشب أنانيا بإيثارها له .. ان هذا الولد تربية أمه ، وها هو قد نسينا ولم يعد يعرفنا .. لقد ضاع أملنا فيه !

وفي البداية كانت الأم تدافع عن ابنها ، ولكنها أخيرا ، يئست وغلبت على أمرها ، فبكت وغمغمت :
ـ يا خيبة أملي فيك يا ولدي .

وفجأة ، أشرق الأمل ، فبعد قرابة العام ، وصلتهم رسالة سحرية من عبد الحميد ، تقول انه سيحضر غدا ... الموعد غدا وليس أبعد من ذلك ..

وكما زغردوا ورقصوا لنجاحه وتوفقه ، زغردوا ورقصوا لعودته ...

شاعت السعادة في البيت ، وابتهج الجميع ، وراحوا يعملون في حيوية ونشاط ، يعدون المنزل لاستقبال عبد الحميد ، ويستعيرون ما ليس عندهم من الجيران ، وأولئك يبذلون لهم المعونة في اخلاص ، وقد سرهم أن يحضر عبد الحميد .

وفي الغد ، وحين حضر عبد الحميد ، استقبله أهله بالحفاوة والترحيب ، والشوق والحنين ، والأحضان والقبلات .. وكانت أمه تزغرد وتبكي ، وهي تضمه وتقبله ، ولا تكاد تصدق انه بين أحضانها ... لقد حقق لها النصر أخيرا ، وأن لها أن ترفع رأسها على زوجها والآخرين ... لقد استطاعت أن تربي ابنها ، واليوم ستجني ثمار تربيتها .

وبعد قليل من الوقت ، جلست العائلة ، لتتناول مع عبد الحميد ، أشهى وأفخر وجبة من الطعام ، أنفقت فيها الأم وابنتاها الكثير من الجهد والوقت والمال ... ومن ثم اختتموا غداءهم بالفاكهة والحلوى التي أحضرها عبد الحميد .

ولم يعد الأسطى حسنين ، ولا ابنه أحمد ، الى الحانوت في ذلك اليوم ، بل تركاه مغلقا ، وظلا يستمتعان بلقاء عبد الحميد .

أمضى الجميع أمسية سعيدة هانئة وهم ملتفون حول عبد الحميد ، يبثونه الأشواق والمحبة ، ويعاتبونه عتابا رقيقا ، ويتبادلون معه الأحاديث العذبة الطلية ، والسمر الحلو الطريف ، وهو من فينة لأخرى ، يطلعهم على أخباره المشرقة ، ويقص عليهم أقاصيص نجاحه وتقدمه في العمل .

وفي تلك الليلة ، بات أفراد الأسرة يحلمون بما يحمله لهم الغد من خير وبشر .

وفي اليوم التالي ، وبينما كان عبد الحميد نائما ، عن لأمه أن تعبث في جيوب بدلته ، كأنما لتعلم مقدار ثرائه ، وتطمئن لمقدرته على أن يحقق لهم الآمال ... ولدهشتها ، وجدت في جيبه صورة فتاة ! .... ولفترة وجيزة ، لم تستطع الأم أن تتبين حقيقة مشاعرها ، ولكنها عادت فأحست بالرضى والسعادة ... ابنها رجل .. ويحب .. ومحبوبته جميلة وحلوة .. هذا شيء رائع

وعثرت أناملها على الأوراق المالية ، الخضراء والحمراء ، وفي مزيج من الفرحة والارتباك ، ارتعشت يداها وهي تحاول أن تعد هذه الأوراق ، ولكنها عجزت عن عدها ، حيث لا عهد لها بمبلغ كبير كهذا ، فأعادت النقود الى مكانها ، وهي لا تزال مأخوذة بجمالها ، مبهورة بسحرها .

وفي أصيل ذلك اليوم ، ارتدى عبد الحميد بدلته بعد أن جاءت من عند الكواء ، وصفف شعره ،

وتأنق وتعطر ، ومن ثم قال لأمه انه ذاهب لأبيه ، فسرت واستبشرت ، وأدركت بقلبهـــا الطيب ، أن ابنها سيتفاهم مع أبيه فيما يجب عليه عمله نحو الأسرة ، بالنقود الكثيرة التى معه ، وتمنت لو تذهب مع ابنها ، ولكنها خجلت ، وفضلت أن تصبر حتى يأتيها بالخبر .

أقبل عبد الحميد على الحانوت ، وألقى التحيـة على والده ، الذى ترك عمله ، ونهض فاستقبله واقفا ، وقدم اليه مقعدا ليجلس ، وطلب اليه مشروبا من المقهى المجاور ..

وفى خجل وحياء ، تمتم الأسطى حسنين :

ـ أحمد ليس موجودا ، ذهب يشترى بعض الخامات للحانوت .

وجلس يتم مسح حـــذاء الزبون الذى كان امامه ، ولكنه شعر بالحرج والهوان ، وهو يزاول تلك العملية أمام ابنـــه ، فود لو تنشق الأرض وتبتلع هـــذا الزبون ، او لو يطيح به من على الكرسى ويصرخ فيـــه :

ـ اغرب عن وجهى ، فلن أمسح أحـــذية بعد الآن ، الا تعلم ايها الأحمق ؟! .. هـــذا ابنى ، انه افضل منك ... باشمهندس زراعى كبير .. كبير ..

ونظر عبد الحميد الى ساعته ، لقد اقترب موعده مع حبيبته ، صاحبة الصورة التى يحتفظ بها فى جيبه ، وفى قلبه ، والتى أحبها وأحبته منذ كانت معه فى الكلية ، وبعد أن تخرجت وعينت مدرسة باحدى مدارس الزقازيق ، كانت الرسائل هى سفير الحب ورسوله بينهما . والآن هو على موعد معها ، حيث يتفقان على موعد الخطوبة وتقديم الشبكة ..

ولذا ، فما كاد الزبون يخرج من الحانوت ، حتى نهض عبد الحميد ، وجلس أمام أبيه وقال :

ـ أرجو أن تمسح لى حذائى ، فان لدى موعدا هاما ! .

... وخر الأب مغشيا عليه ، فسقط راسه ، ووجهه على حذاء ابنه ! .

محمد صفوت محمد عبده



فهرس

في هذا العدد